

السيرة النبوية

محمد رسول الله
والذي معه

فتح مكة
مر ٧٢ عجم ٧

عبد الحميد جوده النجار

بسم الله الرحمن الرحيم

« وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » .

(قرآن كريم)

خرج مالك بن عباد — وهو رجل من بني الحضرمي — تاجرا ، فلما
توسط أرض خزاعة عدوا عليه فقتلوه وأخذوا ماله ، فأصبح بين بني بكر
وخزاعة ثأر . فعدت بنو بكر على رجل من خزاعة فقتلوه . فعدت خزاعة
قبيل الإسلام على أشراف من بني بكر فقتلوهم بعرفة عند أنصاب الحرم . فبينما
بنو بكر وخزاعة على ذلك حمز بينهم الإسلام وتشاغل الناس به ، فلما كان
صلح الحديبية بين رسول الله — ﷺ — وبين قريش كان فيما شرطوا
لرسول الله ﷺ : أنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله — ﷺ —
وعهده فليدخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدها فليدخل
فيه : فدخلت بنو بكر في عقد قريش ، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله —
ﷺ .

ونامت العداوة التي كانت ناشبة بين قريش والمسلمين ، فرأت بنو بكر أن
تستعين بقريش للثأر من خزاعة : فمشى بعض أشراف بني بكر إلى سادات
قريش يسألونهم أن يمدوهم بالرجال والسلاح على خزاعة ، فأمدوهم برجال
خرجوا معهم مستخفين ، فيهم صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى
وعكرمة بن أبي جهل وشيبة بن عثمان وسهيل بن عمرو وظنوا أنهم لم يعرفوا .
وكانت خزاعة على الوثير — ماء قريب من مكة — وكانوا آمنين لا
يخشون غدرا ، وإذا بنو فل بن معاوية قائد بني بكر يتقدم إليهم مستترا بالليل
ومعه القرشيون متكررين متتبعين ، فبيتوا خزاعة ليلا وهم غافلون فقتلوا منهم

رجالا ، وارتفعت الأصوات فخفف الخزاعيون إلى سيوفهم وهم في ذهول ،
واقتل الفريقان قتل من خزاعة عشرون وتقهقر الخزاعيون إلى الحرم ، فلما
انتهوا إليه قالت بنو بكر :

— يا نوفل إنا دخلنا الحرم ، إلهك إلهك .

كان الحقد يملأ صدر نوفل ، فقائد بنى بكر يرى أعداءه في متناول
السيوف ، إنها فرصة لا تعوض لثأر من خزاعة ، فقال دون تفكير :
— لا إله لي اليوم ، يا بنى بكر أصيبوا ثأركم فلعمرى إنكم لتسرقون في
الحرم ، أفلا تصيبون ثأركم فيه ؟!

واستمر القتال حتى لجأت خزاعة إلى دار بديل بن ورقاء ودار مولى لهم
يقال له رافع ، فلما التقط تميم بن أسد أنفاسه وسكن روعه راح يتذكر ما
كان ، إنه خرج مع رجل من قومه يقال له منبه وكان منبه رجلا معوزا ، فلما
جن الليل باتا بالوتير ، فإذا بنى بكر ومن تطوع للقتال معهم من قريش
ينقضون عليهم ويضعون فيهم السيوف ، فقال له منبه :
— يا تميم ألج بنفسك ، فأما أنا فوالله إنى لميت قتلونى أو تركونى ، لقد اثبت
فؤادى .

إن تميمًا لم يرى نفسه وقد أطلق ساقيه للريح وقد ترك صديقه ليقع أسيرا في
أيدى الأعداء ، وإنه ليحس عرق الحجل يتصبب منه ، وأراد أن يفر من
تأنيب ضميره الذى كان يخزه وخزا أليما فراح يعتذر من فراره عن منبه :
لما رأيت بنسى نفائسة أقبللوا يغشون كل وتيرة وحجاب^(١)
صخرا ورزنا لا عريب سواهم يزجون كل مقلص خناب^(٢)

(١) الحجاب : ما اطمان من الأرض وخفى .

(٢) لا عريب : لا أحد . الخناب : القرم الواسع المخترين .

وذكرت ذحلاً^(١) عندنا متقادما فيما مضى من سائف الأحقاب
وخشيت ربح الموت من تلقا لهم ورهبت وقع مهتد قضاب
وعرفت أن من يثقفوه^(٢) يتركوا وطرحت بالمتن العراء ثيابي
قومت رجلا لا أخاف عثارها لحما مجرية وشلسو غسراب
ونجوت لا ينجو نجاى أحقب^(٣) عالج أقب مشمر الأقرب
تلحى ولو شهدت لكان نكيرها بولا ييل مشافر القبقاب^(٤)
القوم أعلم ما تركت منها عن طيب نفسى فاسأل أصحابي

وسكت السيوف وانطلق الشعر يروى فى مبالغة ما كان بين كنانة
وخزاعة ، فراح شعراء كنانة يقولون إنهم حبسوا خزاعة فى دار الذليل
وأجثوهم إلى دار العبد رافع بعد أن شفوا نفوسهم . وجعل شعراء خزاعة
يذكرون تلك الأيام التى كانت بينهم وبين كنانة وكيف أنهم لم يدعوا لهم سيذا
يجمعهم فى المجالس . وبين الفريقان يتراشقان بالأشعار خرج عمرو بن سالم
الخرزاعى فى أربعين راكبا من خزاعة وانطلق إلى المدينة ليخبر رسول الله ﷺ —
بأن بنى بكر وقريش قد تظاهروا على خزاعة وأصابوا منهم ما
أصابوا ، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ — مما استحلوا من
خزاعة .

وذاع فى مكة أن صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى وعكرمة بن أبى

(١) الذحل : طلب الثأر .

(٢) يثقفوه : يجهلوه . المجرية : البوّة .

(٣) أحقب : حمارة الوحش . العالج : الحمار . الأقب : الضامر البطن .

(٤) القبقاب : من أسماء الفرج .

جهل وشية بن عثمان وسهيل بن عمرو قد اشتركوا مع بنى بكر في الغدر بخزاعة ، فخشيت قريش أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ — فمظاهرتهم لبنى بكر نقض صريح للعهد الذى كان بينهم وبين رسول الله ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه ، وقد يبيح ذلك الحداث المسلمين ويحركهم للمسير إلى مكة ، فندموا على ما فعلوا وجاء الحارث بن هشام إلى أنى سفيان وأخبره بما فعل سادات قريش فقال :

— هذا أمر لم أشهده ولم أغب عنه وإنه لشر . والله ليغزوئنا محمد . ولقد حدثتني هند بنت عتبة أنها رأت رؤيا كرهتها ، رأت دما أقبل من الحجون يسيل حتى وقف بالخدمة .

فكره القوم ذلك وقالوا لأنى سفيان :

— ما لها سواك ، أخرج إلى محمد فكلمه في تجديد العهد وزيادة المدة . فخرج أبو سفيان ومولى له على راحلتين . فأمرع السير وهو يحسب أنه أول من خرج من مكة إلى رسول الله ﷺ ، وما دار بخلده أن عمرو بن سالم والذين معه من خزاعة قد خرجوا قبله ، وأن رسول الله ﷺ — كان صبيحة الواقعة التى جرت بين بنى بكر وقريش وبين خزاعة في بيت عائشة فقال لها :

— حدث في خزاعة حدث .

فقالت في دهش :

— يا رسول الله أترى قريشا يجرئون على نقض العهد الذى بينك وبينهم ؟

— ينقضون العهد لأمر يريد الله .

— خير ؟

— خير .

وأنه عليه السلام بات عند ميمونة ليلة بعد ذلك فقام ليتوضأ للصلاة ، فسمعه يقول :

— لييك لييك لييك ! نصرت نصرت نصرت .

فانطلقت إليه عليه السلام وقالت :

— كأنك تكلم إنسانا ، هل كان معك أحد ؟ .

— هذا راجز بنى كعب يزعم أن قريشا أعانت عليهم بكر بن وائل .

فأقاموا ثلاثاً ثم صلى رسول الله ﷺ — الصبح ، وقدم عمرو بن سالم وركب بنى خزاعة على المدينة ، فوقف عمرو ورسول الله ﷺ — جالس في المسجد بين ظهرا في الناس فقال :

يا رب إني ناشد محمداً	جلف أينما وأيه الأثلداً ^(١)
قد كنتم ولداً وكنا والداً	ثُمَّتْ أسلمنا فلم ننزع يداً
فانصر هداك الله نصرنا أعتداً	وادع عباد الله يأتوا مدداً
فبهم رسول الله قد تجردا	إن سيم نحشفاً وجهه ترئداً
في فيلق ^(٢) كالبحر يجرى مزبداً	إن قريشا أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا	وجعلوا لي في كداء رُصداً
وزعموا أن لست أدعو أحداً	وهم أذل وأقل عدداً
هم يبتونا بالوتير هُجداً	وقتلونا رُكعاً وسجداً

وبلغ صوت الراجز دور النبي فأعارته عائشة سمعها وقد أشرق وجهها بنور الإيمان . إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم —

(١) الأثلد : العريق النسب .

(٢) الفيلق : الجيش .

حدثها قبل أن يصل وفد خزاعة بأن قريشا قد فجرت في عهدها ، وها هو ذا شاعرهم يفرع إلى رسول الله ﷺ — يستنصر — وظلت عائشة تصفى وهى ساكنة وقد أطبقت شفتيها وإن كانت كل خلجة من خلجات نفسها تشهد أن محمدا رسول الله حقا . وراحت ميمونة تلقى السمع إلى عمرو بن سالم وقد تفرقت في عينيها الدموع . إن رسول الله ﷺ — قال لها : « هذا راجز بنى كعب يزعم أن قريشا أعانت عليهم بكر بن وائل » . وها هو ذا شاعر بنى خزاعة ينشد في مسجد الرسول شعرا يناشد فيه رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — الحلف الذى بينهما ويستنصره . فلما انتهى عمرو بن سالم من شعره ساد المسجد سكون ، وأرهفت الآذان وتعلقت الأعين بشفتى رسول الله عليه السلام فإذا به يقول في صوت جهورى :

— نصرت يا عمرو بن سالم .

ودمعت عينا رسول الله ﷺ ، وقام وهو يجرداءه ويقول :

— لا ينصر فى الله إن لم أنصر بنى كعب مما أنصر به نفسى .

وأشرقت وجوه بنى خزاعة بالفرح ، وزاد سرورهم لما قال عليه السلام :

— خزاعة منى وأنا من خزاعة .

ثم عرض له عليه السلام سبحانه فقال :

— إن هذا السحاب ليستهل بنصر بنى كعب .

ولم يطل مكث وفد بنى خزاعة فى المدينة ، فلما عزموا على الرحيل قال لهم عليه السلام :

— ارجعوا وتفرقوا فى الأودية .

ليخفى عليه السلام مجيئهم له . فرجعوا وتفرقوا فذهبت فرقة إلى الساحل

وفيه عمرو بن سالم ، وفرقة فيهم بديل بن ورقاء لزمت الطريق .

وراح أبو سفيان وغلامه يطويان الأرض التى تفصل بين مكة والمدينة

وياطلما قطع أبو سفيان ذلك الطريق . إنه طواه تاجرا وغازيا ، وكان في كل مرة يفكر في ربح تجارته أو في الغنائم التي سيغنمها من حرب المسلمين وما كان القلق يساوره . أما في هذه المرة فإنه يستشعر مرارة ، فهو في طريقه إلى سفارة ذليلة سواء أنجح فيها أم أخفق . إنه ذاهب إلى عدوه اللدود يلتبس منه شد العقد والزيادة في المدة بعد أن كانت أضعف أمانيه أن يعود ذات يوم إلى مكة وهو يسوق محمدا وأصحابه في الأسرى .

كان يريد أن يكتم أنفاس الإسلام المترددة في المدينة . وقد أنفق الأموال وهو الرجل الشحيح في سبيل القضاء على من ينافسه في زعامة قريش . وقد حالف اليهود ليبحث الخطر الذي كان يتفاقم شأنه على طريق تجارة الشام ، ولكن كل محاولاته قد باءت بالإخفاق كأن هناك قوة في السماء ترعى هؤلاء المسلمين كما يزعم محمد .

كان الحسد ينهش قواده لما زعم محمد أنه رسول رب العالمين وصدقه الناس ، وزاد في حنقه أن محمدا لم يكتف بقريش والأوس والخزرج بل راح يطالب بدولة عالمية يسود فيها الإسلام . إنه يشر أصحابه بملك فارس والروم ولم يكتف بذلك القول بل أرسل الجيوش لتتأوى هرقل على حدود الشام . وأطرق أبو سفيان فلم يستطع أن يسخر في وحدته بما كان يسخر منه وهو في نادى قومه عند الحرم . وطاقت بذهنه ذكريات . إنه يرى نفسه وقد خرج وأمية بن أبي الصلت التقي تجارا إلى الشام . فكلما نزلوا منزلا أخذ أمية سيفراً له يقرؤه عليهم . وإنه ليرى في وضوح ليلة أن نزلوا قرية من قرى النصارى فجاءوا أمية وأكرموه وأهدوا له وذهب معهم إلى بيوتهم . وإنه ليراه وقد آب في وسط النهار فطرح ثوبه وأخذ ثوبين له أسودين فلبسهما . ومس أذنى أبي سفيان صوت أمية بن أبي الصلت كأنما كان آتيا من وراءه حجب السنين :

— هل لك يا أبا سفيان في عالم من علماء النصارى إليه يتناهى علم الكتاب
تسأله ؟

— لا أرب لي فيه ، والله ليس حدثى بما أحب لا أثق به ، وليس حدثنى بما
أكره ، لأجدن منه .

ورأى أبو سفيان في مرآة نفسه أمية بن أبى الصلت يذهب وشيخا من
النصارى يتحلف ثم يقول له :

— ما بمعك أن تذهب إلى هذا الشيخ ؟

— لست على دينه .

— وإن ، فأراك تسمع منه عجا وتراه .. أأنقى أنت ؟

— لا ولكن قرشى .

— فما بمعك من الشيخ ؟ والله ليحكم ويوصى بكم .

ورأى أبو سفيان بعن الخيال أمية بن أبى الصلت وهو يعود بعد هدأة الليل
فيطرح ثوبيه ثم يسجد على فراشه فما نام ولا قام حتى أصبح كئيبا حريبا ما
يكلهم ولا يكلهمونه ، ورن في أعماق نفسه صوت أمية :

— ألا نرحل ؟

— وهل بك من رحيل ؟

— نعم

ودار في ضميره ذلك الحوار الذى دار بينهما قبل أن يبعث ابن عبد الله :

— ألا تحدث يا أبا سفيان ؟

— وهل بك من حديث ؟ والله ما رأيت مثل الذى رجعت به من عند

صاحبت .

— أما إن ذلك لشيء لست فيه ، إنما دنت لشيء وحلت منه من مقبلتي .

— وهل لك من مقلب ؟

— أى والله لأموتن ثم لأحين .

— هل أنت قابل أمانتى ؟

— على ماذا ؟

— على أنك لا تبعث ولا تحاسب .

إن أمية ضحكك فى ذلك اليوم وقال :

— بلى والله يا أبا سفيان لسعثن ثم لحاسس ، وليدخلن فريق الحنة وفريق

البار .

سمع أبو سفيان ذلك القول فى تلك الأيام فقال لصاحبه فى هدوء : « ففى

أيهما أنت أحرك صاحبك ؟ » . قالها فى سحرية هازئة بفكرة البعث بعد

الموت . إلا أنه وهو فى طريقه إلى المدينة تقاصرت نفسه لما رأت فى جوفه حديث

أمية اس أنى الصلت : فقرآن محمد ما انك يردد الدار الآخرة والثواب

والعقاب والجنة والبار حتى كاد إيمانه يتزعزع بالطبع المحيى والذههر المعسى ،

وطافت به موجة من رهبة لما مد عينيه إلى السماء ، ثم سرعان ما عاد إلى

الإصحاء إلى ما دار بينه وبين أمية فى تلك الرحنة :

— هيا يا صخر .

— ما تشاء .

— حدثنى عن عنة بن ربيعة أيجتب المطالم والمخارم ؟ .

— أى والله .

— ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟

— أى والله .

— وكريم الطرفين وسط فى العشرة ؟

— نعم .

— فهل تعلم قرشياً أشرف منه ؟

— لا والله ما أعلم .

— أعوج هو ؟

— لا بل هو ذو مال كثير .

— وكم أتى عليه من السن ؟

— زاد على المائة .

— فالشرف والسن والمال أزرين به .

— ولم ذاك يزرى به ؟ لا والله بل يريد حيرا .

— هو ذاك .

كان ذلك الحديث في تلك الليلة أشبه بالألغار ، وأما وأبو سفيان ومولاه يفتدان^(١) السير إلى المدينة فقد كان الأمر واضحاً وصوح النهار . إنه يرى صورة محمد بن عبد الله تملأ الأفق وتسد عليه المسافة ، فأبما يولى وجهه يراه . وإن صوت أمية بن أبى الصلت يرد في العشاء حتى ليعلو على كل صوت : — هو رجل من العرب .. من أهل بيت يحجه العرب .. هو من إخوانكم من قریش .. رجل شاب حين دخل إلى الكهولة . بُدُو أمره يحتب المظالم والمخارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ، وهو محوح كريم الطرفين متوسط في العشرة ، أكثر جنده من الملائكة .

وامتلات جوانح أبى سفيان رهبة وربا حوفة^(٢) لما رن في أغوار نفسه صوت ضميره يرتل : : وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن

(١) يفتدان : يسرعان .

(٢) ربا حوفة : زاد .

غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون . إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ولنطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم . إذ يغشيكم النعاس أمة مه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عكم رجس الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام . إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فتتوا الذين آمنوا سألنى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله فإن الله شديد العقاب » (١) .

وسرت فى بدن أنى سميان قشعريرة ، وراح يقلب وجهه فى الكون العريض فاستشعر لأول مرة حقارة شأنه . واثالت على رأسه ذكريات القتال الذى دار بينهم وبين محمد وصحبه : كانت كل الظروف المادية تؤكد سحق المسلمين ولكن النتائج كلها كانت على عكس كل تقدير . تقوضت القوى المتفوقة فى العدد والعتاد أمام قوة خفية ، إنها نصر الله ، إنها مدد الله من ملائكته ، جمود محمد الذين حدثه عنهم أمية بن أبى الصلت يوم أن كانوا عائدتين من الشام إلى مكة قبل أن يعود إليهم محمد بن عبد الله من عار حراء يزعم أنه رسول رب العالمين .

وهمس فى وحدان أنى سفيان هامس : « لماذا لا تذهب إلى المدينة لتعلن على الملأ إسلامك كما فعل عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وسادات قریش من قبلهما ؟! » . فانتفض فوق راحته انتفاضة قوية كأنما يطرد ذلك الخاطر

الذى انسل إلى نفسه في غفلة مه ، وقال في صوت عاضب كأنما يؤنب نفسه :

— أو يذهب شرقى ؟!

كان أبو سفيان يعلم أن محمدا — ﷺ — صدوق لا يكذب قد جاء أمرا لا يبقى معه شرف . فقاتله حمية كراهة أن يذهب شرفه . وألح عليه ما دار من حديث بينه وبين أمية بن أبى الصلت بعد أن بعث الله محمدا عليه السلام :

— يا أمية ، قد خرح النبي الذي كنت تنعته .

— أما إنه حق فاتبعه .

— ما يمنعك من اتباعه ؟

— ما يمنعني إلا الاستحياء من نساء ثقيف ، إني كنت أحدثهن أنى هو ثم يرينى تابعا لفلان من بنى عبد مناف .

وأطرق أبو سفيان وقد زوى ما بين حاجبيه وقطب جبهه ، فصوت أمية الآتى من بحر الذكريات كان كخحر يقطع كل آماله في سفارته إلى المدينة : « كأنى بك يا أبا سفيان قد حالفته ثم قد ربطت كما يربط الجدوى حتى يأتى بك إليه فيحكم فيك بما يريد » .

ولم يستطع أبو سفيان أن يلقى شفته السعلى استهزاء بأقوال أمية بن أبى الصلت التى طلت حية في ضميره طوال تلك السنين ، فراح يحث راحلته على الإسراع ليفر من أشباح الماضى التى تحاول أن تمحو إشراقة الأمل في المستقبل المجهول .

راح أبو سفيان ومولاه يقدان السير . إنه يريد أن يصل إلى المدينة قبل أن
تتصل حزاعة برسول الله ﷺ — وأن تحرره عليه السلام بأن قرىشا قد
نقضت ما كان بينها وبينه من عهد . وكان أبو سفيان يطمع في أن يشد العقد
ويزيد في المدة فقد أقرت قرىش بمعزها عن وقف رسول الله ﷺ — صلوات الله
وسلامه عليه — إذا ما أراد أن يفتح مكة ، فلم يبق في جعبتها إلا السلم أو
الاستسلام .

ورجع أولئك الركب من حزاعة ، فلما كانوا بعسفان لقوا أبا سفيان
ومولى له كلا على راحلة فقال لهم :
— هل ذهبتم إلى المدينة ؟
— لا .

وقال بديل بن ورقاء :

— إنما كنا في الساحل نصلح بين الناس في قتل .
— أما أتيت محمدا .

— نعم : ما أتيت محمدا .

وصبر أبو سفيان وانتابه قلق ، حتى إذا ما انطلق بديل والذين معه إلى مكة
قال أبو سفيان لمولاه :

— لكن كان جاء إلى المدينة لقد علف بها الوى .

فجاء مرلهم فقتت أبعاد أباعرهم فوجد فيها الوى ، قال أبو سفيان في

غيظ :

— أحلف بالله لقد جاء القوم محمدا .
وكان رسول الله — ﷺ — في المسجد ومن حوله المهاجرون والأنصار
يلقون إليه أسماعهم . فقال عليه السلام :
— كأنكم بأني سفيان قد جاءكم ليشد العقد ويريد في المدة وهو راجع
بسخطه .

وانطلق أبو سفيان وهو يطوى الصحراء شاردا وقد اشتد
وجيب^(١) قلبه . إنه كان يقطع هذه العياق شاعبا بألفه يتبعه بشره فهو شيخ
بى أمة بل وسيد قريش . فكاست إيماءته أمرا وكلمته قانونا . أما اليوم فهو
داهب إلى مسجد علوه يلتبس منه أن يشد العقد الذى كان غائبا عنه ويزيد
في مدته ، إنه يستشعر بالذل يملأ جوانحه ولكنه يحاول أن يقهر عواطفه
التمردة ، فليس لمكة من نجاة إلا أن تحج سفارته وأن يقبل ابن أوى كبشة
تخديد العقد وزيادة المدة .

ولاحت لأوى سفيان أرباص المدينة فانهرت أعيناه وراح يصبر على
أساهه ، فقد عاظه أن ليس له من الأمر شيء وأن مفتاح الموقف لم يعد في يده .
بل في يد بى الإسلام إن شاء حدد العقد وأن شاء قطعه .
وتذكر ابنته أم حبيبة . إنها هناك في دور البى وصارت أما للمؤمنين . فإن
كانت قد تركت دين الآباء ودخلت فيما يدعو إليه ابن عبد الله فإنها لن تتحلى
عه ولن تحمد أبوتها ولن يرضيها أن يعود أبوها إلى قريش وفي ركابه الحزى
والخذلان . فتألمت في نفسه بارقة أمل فعزم على أن يحىء أم حبيبة وأن
يوسطها بينه وبين روحها وأن تصمم صوتها إلى أصوات قومها في شد
العقد وزيادة المدة .

(فتح مكة)

واسباب أبو سفيان ومولاه في المدينة فلم يهرع أحد لاستقباله ولم يلتفت أحد لدخوله . فاستشعر قهرا فقد كان أشراف الأوس والخرج يأتون إليه مهطعين^(١) والبشر يعلو الوجوه قبل أن يغزو محمد أفئدة القوم بسحره المبين . فتحرك سحطه وراودته فكرة أن يلوى أمة راحلته وأن يرجع إلى مكة لولا بصيص من رحاء لمع في ظلمات يأسه ، فاندفع إلى مسجد الرسول ليواجه واقعه كيفما يكون .

ووقف على باب المسجد ومد عبيه فألقى محمدا — ﷺ — في أصحابه فحقق قلبه رهبة ، ولم يطل وقوفه فسرعان ما اتجه إلى دور السى ودخل على ابنته أم حبيبة وقد افتر ثمره عن ابتسامة قلقة فلم يبد على ابنه أنها فرحت بمقدمه ، فحسب أن المعاجة قد أذهلتها . وأراد أن يجلس على فراش السى — ﷺ — فطوته عه ، فأحس كأن خجرا مسموما صرب إلى قسه فقال في صوت فيه انين وإن حاول أن يبدو هادئا :

— يا بية ، ما أدرى أرغمت بي عن هذا الفراش أم رعبت به عى ؟

— بل هو فراش السى — ﷺ — وأنت مشرك نجس .

فدار به المكان ولو طاول إحساساته للطمها لظمة نفس عن عضبه ، ولكنه كبح جماح نفسه وقال :

— والله لقد أصابك بعدى شر .

فقال في ثقة :

— بل هداني الله تعالى للإسلام وأنت تعد حجرا لا يسمع ولا يبصر .

واعجبا ملك يا أبنت وأنت سيد قریش وكبيرها !

— أنا أترك ما كان يعبد آباي وأتبع دين محمد !

(١) مهطعين حاضعين أدلاء .

وحرص وهو حائق ، وزاد في حقه أنه كان يعرف في أعماق ذاته أنه يعيد نفسه . إنه لا يريد أن يتبع دين محمد حتى لا يقر لابن عبد الله بالزعامة ، وقد عاش طوال حياته يحلم بزعامة قريش . وذهب إلى المسجد حتى أتى ألى — صلى الله عليه وسلم — وهو يجاهد ليبدو هاشا هاشا . وفر عبيه في الحاضرين فإذا بمحمد عليه السلام ومن حوله المهاجرون والأنصار . ومد بصره إلى خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن عفان وسرعان ما غض الطرف . وحيا القوم بتحية الجاهلية فردوا عليه بتحية الإسلام .

والنفث إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقال :

— إني كنت عابئا في صلح الحديبية فامدد العهد وردنا في المدة .

فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — :

— لذلك جئت يا أبا سفيان ؟

— نعم .

— هل فيكم من حديث ؟

— معاذ الله نحن على عهدنا وصلحنا لا نغير ولا نبين .

وصوبت أعين القوم إلى أبي سفيان . إنه يحاول أن يكرر ما كان بين بني بكر وبين خزاعة ومعاونة قريش بنى بكر على حراة حلفاء رسول الله عليه السلام . إنه لا يريد أن يعترف بأن قريشا قد نقضت العهد ومزقت صلح الحديبية . فموا اعترف لأعطي المسلمين الحق المشروع في عرو مكة . وهو ما تحشم السفر وقبل هذه السفارة المدلة إلا ليمع سير المسلمين إلى أم القرى ليقى له السلطان . وأرهف السمع لينتقط ما يقول ابن عبد الله فقال الرسول — صلى الله عليه وسلم .

— محص على مدتنا وصلحنا .

فأعاد أبو سفيان القول :

— امدد العهد وزدنا في المدة .

فلم يرد عليه شيئا . فقام أبو سفيان مطرقا يمر أذبال الخبية ، وخرج من مسجد النبي عليه السلام لا يكاد يرى شيئا فقد أعماه سخطه ، حتى إذا ما خلا بنفسه راح يقاوم يأسه فهده تفكيره إلى أن ينطلق إلى أبي بكر يلتبس منه أن يكلم له رسول الله — ﷺ — فخرج إلى العالية حيث كان أبو بكر ، فلما دخل عليه قال :

— يا أبا بكر جدد العقد وزدنا في المدة .

— جوارى و جوار رسول الله — ﷺ — وحاول أبو سفيان أن يشي أبا بكر عن قراره وأن يزيح له أن يكلم له رسول الله عليه السلام . ولكن أبا بكر أبى أن يكلم رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — في أمر صمت عنه . فقام أبو سفيان وخرج يمر رحليه وهو يحس كأنما يحمل على ظهره أثقال الأرض واستشعر أبو سفيان كأنما قطعت له أثواب الدل . ف راحت تراوده فكرة أن يقفل راجعا إلى مكة . ولكنه أبى أن يعود بالإخفاق فعزم في إصرار على أن يأتي أصحاب رسول الله — ﷺ — وأن يلتبس منهم أن يكلموا له النبي عليه السلام لعل قلب أحدهم يلين لشبح بى أمية ، فانطلق إلى عمر بن الخطاب ليتحرع كأس المهابة حتى الثمالة^(١) .

وفي صوت حافت لون بالأسى كلم عمر . وفي صوت حارم قوى قال عمر :

— أبا أشفع لكم إلى رسول الله — ﷺ — فوالله لو لم أجد إلا الذر

(١) الثمالة : بقية الكأس .

لخاهدتكم به .

— إن بينا وبينكم حلما .

— ما كان من حلفنا جديدا أحلقه الله . وما كان مقطوعا فلا وصله الله .

رمى أبو سفيان عمر بن الخطاب بهظرة قاسية ثم قال :

— حزيت من دى رحم شرا .

وراح أبو سفيان يدور في طرقات يثرب وهو حاقدا على نفسه تتردد أنفاسه في أذنيه كأنما كانت ناعية تعي كرامته ، حتى إذا ما بلغ دار عثمان بن عفان انسل إليها مسرعا حشبة أن تقع عليه أعين الشامتين الداخلين إلى المسجد والخارجين منه ، حتى إذا ما أتى عثمان قال له :

— إنه ليس في القوم أقرب إلى رحما منك ، فزد في المدة وحدد العقد فإن صاحبك لا يرده عليك أبدا .

فقال عثمان معتذرا :

— جوارى في جوار رسول الله ﷺ .

وسأل أبو سفيان وألحف وتوسل وتودد ولكن عثمان أبى أن يكتم رسول الله ﷺ . فقام أبو سفيان من عده وقد تفصد العرق من جبينه حتى ملأ عيه وسأل على لحيته ، وخرج يصرف^(١) ألبابه وراح يمسح وجهه لا يكاد يفرق بين عرقه ودموعه .

ووقف على باب دار عثمان يلتقط أنفاسه ، حتى إذا ما سكن روعه بعض الشيء رأى أن يقطع الطريق إلى دار علي بن أبي طالب ، فإن كان زوج أم كشوم بست محمد قد رده خائبا فلعل زوج فاطمة تتحرك فيه فروسيته فيكلم

(١) الصريف : صوت الألباب .

له ابن عمه وحييه في تحديد العقد وزيادة المدة .

ودخل على علي بن أبي طالب وعنده فاطمة وحسن علام يدب بين يديها فقال :

— يا علي ، إنك أمس القوم في رحما ، وإني قد جئت في حاجة فلا أرجع كما جئت خائبا ، اشفع لي إلى محمد .

— ويحك يا أبا سفيان ! لقد عزم رسول الله — ﷺ — على أمر ما نستطيع أن نكلمه .

فالتفت إلى فاطمة فقال :

— يا ابنة محمد . هل لك أن تأمرى اهلك هذا فيجبر بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟

— والله ما يبلغ ببي ذلك أن يجبر بين الناس ، وما يجبر أحد على رسول الله .

وتذكر أبو سفيان أن أختها زينب قد أجات زوجها العاص بن الربيع فطمع في أن يجبره ، فقال لها :

— أجزري بين الناس .

— إنما أنا امرأة .

— قد أجات أحتك زوجها وأجار ذلك محمد .

— إنما ذاك إلى رسول الله .

وفهم أبو سفيان أنها لا تريد أن تجبر في الناس حتى لا تغضب أباها ، فإذا بحسن يدخل عليهم ، فالتفت أبو سفيان إلى الحسن والحسين فقال :

— فأمرى صبيان ليس مثلهما يجبر .

— إنما هما صبيان ليس مثلهما يجبر .

وابتعد على عن المكان وهو واثق أن أحدا لا يستطيع أن يكلم رسول الله ﷺ —
 في أمر أبي سفيان ، فقد قال عليه السلام قبل قدوم شيخ بني أمية :
 « كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد ويزيد في المدة وهو راجع
 بسخطه » . وقد جاء أبو سفيان ليشد العقد ويزيد في المدة ولا بد أن يرجع
 بسخطه كما تنبأ رسول الله ﷺ .

وراح أبو سفيان يتلفت بأعين زائفة فقد طال مكثه بالمدينة دون أن يصل
 إلى شيء ، طرق جميع الأبواب فأعلقت في وجهه ، توسل دون جدوى .
 طلب من ابنة محمد أن تحبره فأبت وصنت بالحسن والحسين ، ولو أن عليا قد
 أتى أن يكلم له رسول الله عليه السلام فهو آحر أمل . فقال لفاطمة الزهراء :
 — فكلمي عليا

— فكلمه أنت .

فرحف إلى حيث كان علي بن أبي طالب كما يزحف الحيوان الذي سددت
 إليه سهام القوم فتركنه كالفقد فقال في الكسار :
 — يا أبا الحسن اشفع لي إلى محمد وأخبرني .

— يا أبا سفيان إنه ليس أحد من أصحاب رسول الله ﷺ — يفتات
 على رسول الله ﷺ — بخوار .

وأحس أبو سفيان أنه يريد أن يقض وأن الأرض قد مادت تحت قدميه .
 إنه أتى أشراف قريش والأبصار وكل يقول : حوارى في حوار رسول الله ﷺ —
 فقال لعلي في صوت أقرب لسحب :

— يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد أفسدت علي فاصحني .

— والله لا أعلم لك شيئا يفي علك ، ولكنك سيد بني كنانة فقم وأحر
 بين الناس ثم الحق بأرصك .

— أو ترى ذلك مغنيا عني شيئا ؟
 — والله ما أطبه ولكن لا أحد لك غير ذلك .
 فدخل أبو سفيان في المسجد فقام فقال :
 — أيها الناس إني أجرت بين الناس ،
 ثم جاء إلى النبي — ﷺ — فقال :
 — يا محمد إني أجرت بين الناس ، لا والله ما أظن أحدا يخفركني ويرد
 جوارى .

فقال رسول الله — ﷺ :
 — أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة .
 ثم ركب أبو سفيان بعيره ليقتب إلى أهله مدحورا . وإن كان عروره يزيى
 له أن أحدا لن يخفركه ويرد جواره .
 وكانت قريش ترصد مقدمه في قلق فقد طالت غيبته ، واتهمته قريش أنه
 صبا واتبع عمدا سرا وكنم إسلامه ، فلما طوى الأرض التي تفصل بين المدينة
 ومكة دخل داره بالليل فاستقبلته زوجته همد بنت عتبة وهي منلهفة على سماع
 أخباره وهو في شوق إليها . فلما دنا منها وجلس معها مجلس الرجل من امرأته
 قالت له :

— إن كنت مع طول الإقامة جئتكم بسحح فأنت الرجل . فراح يقص عليها
 ما كان بينه وبين محمد وأصحابه ، فصرت برجلها في صدره وقالت .
 — قبحت رسول قوم ، فما جئت بحجر .

فما أصبح أبو سفيان حلق رأسه عند أساف وناثلة وذبح عدهما البدن^(١)

(١) بدن جمع مبردة بدنه وهي الواحدة من الإبل والقر كالأصحية تهدي إلى مكة .

ومسح رءوسهما بالدم ليدفع عنه التهمة ، فلما رأته قريش قالوا :
 — ما وراءك ؟ هل جئت بكتاب من محمد أو عهد ؟
 — لا والله لقد أتى علي ، وقد تتبع أصحابه فما رأيت قوما لملك أطوع
 منهم له .

وساد الوجوم . ثم قال أبو سفيان ليغر من ذلك الصمت القاتل :
 — جئت محمدا فكلمته فوالله ما رد علي شيئا ، ثم جئت إلى اس أبي قحافة
 فلم أحد فيه خيرا ، ثم جئت عمر بن الخطاب فوجدته أعدى العدو ، ثم جئت
 عليا فوجدته ألين القوم وقد أشار علي بشيء صنعت ، فوالله لا أدرى أيغني
 عني شيئا أم لا ؟
 — وبم أمرك ؟

— أمرني أن أجير بين الناس ، قال لي : لم تلتمس جوار الناس على محمد
 ولا تحير أنت عليه وأنت سيد قريش وأكرها وأحقها ألا يخفر حوارك ؟
 ففعلت .

— فهل أجاز لك ذلك محمد ؟
 — لا وإنما قال : أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة ، والله لم يزدني .
 وأحسن القوم أن عليا قد سخر منه فقالوا :
 — رضيت بغير رضا وجئت بما لا تغني عا ولا عك شيئا . ولعمرك ما
 حوارك بجائز وإن إحصارك إزالة حفاتك^(١) عليهم حين . والله أراد الرجل أن
 يلعب بك .

فقال أبو سفيان في يأس :
 — والله ما وجدت غير ذلك .

(١) الخمار : الإجارة والحماية .

كان رسول الله ﷺ — إذا أراد غزوة ورى بغيرها ، فلما هم عليه السلام بغزو أهل مكة بعث أبا قتادة في ثمانية نفر من حملتهم يحكم بن جثامة الليثي إلى بطن إضم ليظن ظان أن رسول الله ﷺ — توجه إلى تلك الناحية وتنتشر بذلك الأخبار .

وانطلق أبو قتادة والذين معه فمر عليهم عامر بن الأضبط الأشجعي فسلم عليهم تحية الإسلام فأمسك عنه القوم ، وحمل عليه محكم فقتله لشيء كان بينه وبينه وسلبه متاعه وبغيره ، ثم ساروا حتى بلغوا بطن إضم فسم يلقوا كيدا ، فقفلوا راجعين إلى المدينة ليلقوا رسول الله ﷺ — .
وقال ﷺ لعائشة :

— جهزينا وأخفى أمرك .

فدخل أبو بكر على ابنته عائشة وهي تعد بعض جهاز رسول الله عليه السلام ، كانت تجعل قمحا سويفا ودقيقا فقال :

— أي بنية ، أمركن رسول الله ﷺ — بتجهيزه ؟

— نعم فتجهز .

— فأين تريه يريه ؟

— لا والله لا أدرى .

ودخل عليهما رسول الله ﷺ — فقال أبو بكر :

— يا رسول الله أردت سفرا ؟

— نعم .

— أأأتجهز ؟

— نعم .

— فأين تريد يا رسول الله ؟

— قريشا واخف ذلك يا أبا بكر .

— يا رسول الله أو ليس بيننا وبينهم مدة ؟

— إسم قد غدروا ونقضوا العهد ، واطو ما ذكرت لك .

ودخل عمر بن الخطاب فسمع أبا بكر يقول :

— هم قومك .

وعلم عمر أن رسول الله — ﷺ — قد عزم على السير إلى مكة فقال :

— نعم هم رأس الكفر ، زعموا أنك ساحر وأنت كذاب . وإيم الله لا

تذل العرب حتى تذل أهل مكة .

وأمر رسول الله — ﷺ — الناس بالحجار وطوى عنهم الوجه الذى

يريد . وأرسل إلى أهل البادية ومن حوله من المسلمين فى كل ناحية يقول

لهم :

— من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحصر رمضان بالمدينة .

فقدمت المدينة من قبائل العرب أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهية ،

حتى إذا ما اكتمل عقد المسلمين أعلم عليه السلام الناس أنه سائر إلى مكة ثم

قال :

— اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها . اللهم خذ

على أسماعهم وأبصارهم فلا يروا إلا بغنة ولا يسمعون بنا إلا فحاة .

ووقف بكل طريق جماعة ليعرف من يمر بها ، وقال هم عليه السلام :

— لا تدعوا أحدا يمر بكم تكرونه إلا رددهم .

وكان في المسلمين من يشفق على أهل مكة ، فأبى بكر الصديق قال له مشيراً بعدم السير إلى أم القرى : « هم قومك » . فلما أمر عليه السلام بالجد في السير أطاع ولم يحظر له على قلب أن يحذر أهل مكة ، أما حاطب بن أبى بلتعة فقد رأى أن يبعث إلى سهيل بن عمرو وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل يحبرهم فيه أن رسول الله — ﷺ — قد خرج قاصدا مكة فكتب : « إن رسول الله قد توجه إليكم بحيش كالليل ، يسير كالسيل . وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لينصرنه الله تعالى عليكم فإنه منحز له ما وعده فيكم ، فإن الله تعالى ناصره ووليّه ، وقد أحببت أن تكون لى يد بكتانى إليكم .

وراح يفكر فيمضي يبعث معه بالكتاب فهذه فكره إلى سارة مولاة لبعض بني عبد المطلب كانت مغية بمكة وكانت قدمت على رسول الله — ﷺ — المدينة وطلت منه الميرة وشكت الحاجة ، فقال لها رسول الله — ﷺ — : « ما كان في غنائك ما يغيبك ؟ » فقالت : « إن قريشا مد قتل منهم من قتل بيدركوا العاء » . فوصلها — ﷺ — .

واطمأن حاطب إلى سارة وجعل لها جملا على أن تباع كتابه قريشا ، فجعلته في رأسها ثم قتل عليه قرونها خوفا أن يطلع عليه أحد . وقال لها : — أحفهم ما استطعت ولا تمرى على الطريق فإن عليه حرسا .

فسلكت سارة غير الطريق وهى فرحة بالدنانير العشرة التى أخذتها وبالردة التى كساها إياها وما ينتظرها من خير لما تضع الكتاب في أيدي سادات قريش . وفيما هى معلقة إلى مكة أتى رسول الله — ﷺ — — الخبر من السماء بما صنع حاطب فبعث عليا والربيع وطلحة والمقداد وعمارا وأنا مرثد فقال :

— انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ (موضع بين مكة والمدينة) فإن بها طعينة معها كتاب من حاطب بن أبى بلتعة إلى المشركين ، فخذوه منها واخلوا سبيلها ، فإن أبى فاضربوا عنقها .
فخرجوا حتى أدركوها فقللوا لها :
— أين الكتاب ؟

فحنفت بالله ما معها من كتاب . فاستترلوها وفضوها واتمسوا في رحلها فلم يجدوا شيئا ، فقال لها على كرم الله وجهه :
— إني أحلف بالله ما كذب رسول الله — ﷺ — قط ولا كدبها ، ولنخرجن هذا الكتاب أو لكشفك أو أضرب عنقك .
فلما رأت الجذ منه قالت :
— أعرض .

فاعرض فحلت قروا رأسها فاستخرجت الكتاب مه وهم يطرون إليها في ارداء ، كانوا جميعا يفتونها فقد كان ابن حنظل يلقى عليها هجاء رسول الله — ﷺ — فتعنى به . ولولا أن رسول الله عليه السلام قال لهم حلوا سبيلها لسدد أحدهم إلى قلبها سهما .
واقللوا إلى رسول الله — ﷺ — بالكتاب ، فدعا رسول الله — ﷺ — حاطبا وعمر بن الخطاب عنده ، فقال له :
— أنعرف هذا الكتاب ؟

— نعم .
فقال عمر في حدة :
— يا رسول الله دعني لأضرب عنقه فإن الرجل قد بافق .
وقال حاطب :

— والله إني لأؤمن بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت .

فنظر إليه عمر في شزر وقال :

— قاتلك الله ! ترى رسول الله يأخذ بالأنقاب وتكتب إلى قريش تحذره ؟

وقال حاطب :

— ما كمرت منذ أسلمت ، ولا غششت منذ بصحت ، وما أحبتهم منذ فارقتهم .

واشتد غيظ عمر فقال :

— دعني لأضرب عنقه .

فقال رسول الله ﷺ — إلى عمر وهو ينظر إلى حاطب بن أبي بلتعة رسولته إلى المقوقس في إشفاق :

— إنه قد شهد بدرا ، وما يدريك يا عمر لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

وقال حاطب :

— يا رسول الله كت عرييا في قريش وأمي بين أظهرهم وأردت أن يحفظوني فيها ، وما فعلت ذلك كفرا بعد إسلام وقد علمت أن الله تعالى منزل هم بأسه لا يغني عنهم كتابي شيئا .

فقال رسول الله ﷺ — لمن كانوا عنده :

— إنه قد صدقكم ولا تقولوا له إلا حيرا .

وفاصت عينا عمر بالبكاء وأمر الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيل

واستغاء مرضاقي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أحفيتم وما أعلمكم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ، إن يشقوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون . لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير ^(١) .

واستخلف — ﷺ — على المدينة ابن أم مكتوم وخرج لثمان عشرة ليلة خبت من رمضان ستة ثمان من الهجرة ، وكان المهاجرون سبعمائة ومعهم ثلاثمائة فرس ، وكانت الأنصار أربعة آلاف ومعهم خمسمائة فرس ، وكانت مزينة ألفا وفيها مائة فرس ، وكانت أسلم أربعمائة معها ثلاثون فرسا ، وكانت جهينة ثمانمائة ومعها خمسون فرسا .

كان رسول الله — ﷺ — يعي بترية الخيل وقد أمر الله تعالى المسلمين بأن يعدوا لأعداء الله ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل ليرهبوا عدوا الله وعدوه ، فأنفق المسلمون مدحراتهم في إعداد الخيل والسلاح . وها هم هؤلاء يطلقون إلى مكة على ظهور الخياد لكأهم في حصون مشيدة .

ورجع قتادة والذين معه إلى المدينة فبلغهم أن رسول الله ﷺ — قد توجه إلى مكة ، فمالوا إليه حتى لقوه ، وقصوا عليه ما كان بينهم وبين عامر بن الأضط الأشجعي وما كان من قتل محكم له بعد أن سلم عليهم بتحية الإسلام وقال رسول الله لمحكم :

— أقتله بعد ما قال إني مسلم ؟!

فقال محكم :

— يا رسول الله لو شققت عن قلبه أكنت أعلم ما في قلبه ؟

— فلا أنت قبلت ما تكلم به ولا أنت تعلم ما في قلبه .

— استغفر لي يا رسول الله .

— لا غفر الله لك .

فقام يتلقى دمه بمرده وأنزل الله تعالى فيه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعَدَّ اللَّهُ مَعَامِكُمْ كَثِيرَةً كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا » (١) .

كان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أخاه — ﷺ — من الرضاعة ، وكان آلف الناس له عليه السلام قبل البوة لا يفارقه ، وكان أبو سفيان شاعر بني هاشم بعد أن مات الربير بن عبد المطلب وأبو طالب . فلما بعث الله محمداً — ﷺ — رحمة للعباد نفس أبو سفيان بن الحارث على ابن عمه وناصبه العدا . وكان من أشد الناس أذية له — ﷺ .

وكان أبو سفيان بن الحارث يلقي سمعه إلى القرآن فيربو حسده فيسب رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، وقد خرج من قريش في كل حروبها لابن عمه . فأيات الذكر الحكيم كانت تخر روحه فهو في قرارة نفسه يحس إعجاز القرآن وأن شعره لن يصل إليه ، فكان القضاء على محمد هو السبيل لإسكات ذلك السحر الذي تفتش في القبائل وعلاصوته في الأسواق على كل الأصوات .

كان رسول الله — ﷺ — خطرا على سلطان أبي سفيان بن حرب وعلى مملكة الشعر التي يريد أن يكون أبو سفيان بن الحارث فارس حلبتها وعلى نفوذ رجال الدين وأشراف قريش ، فكتلوا جميعا لا عن اقتناع بل دفاعا عن مصالحهم المهددة بالبوار .

ومرت السون وأبو سفيان بن الحارث يرى يعودهم يتقلص على مر الأيام وشأن ابن عمه يعلو ، فكان إذا خلا بنفسه يحاسبها يجد أنه ليس على صواب وأن ابن عمه على الحق . فكانت نفسه تراوده على الانطلاق إلى حيث يعلن (فتح مكة)

إسلامه كما فعل كثير من قريش ، ولكن حسده كان يتحرك فيلحمه ويحمده عن الصراط .

و ذات يوم استطاع أن يقهر حسده وأن يتصر على نفسه المتمردة فأخذ بيد ابنه وانطلق ليلحق برسول الله ﷺ . وبينما هما في الطريق لقيا عبد الله بن أمية بن المغيرة ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب ، أخت أم سلمة أم المؤمنين لأبيها ، فقال له أبو سفيان بن الحارث :

— إلى أين ؟

— إلى رسول الله أشهد شهادة الحق .

كان أكبر القائمين على رسول الله ﷺ — ومن أشد الناس أذية له ، لقد قال له عبد الله بن أمية بن المغيرة بمكة : « والله لا آمنت بك حتى تنحد سلما إلى السماء فتعرج فيها وأنا أنظر إليك فتأتى بصك وأربعة ملائكة يشهدون لك أن الله أرسلك » . كان من المستهزئين وكانت سحرته مريرة حتى إن رسول الله ﷺ — لم يس قط إساءته حتى في أروع لحظات الانتصار ، وكان هجاء أبي سفيان بن الحارث قاذعا بذينا ولطالما ضاق به صدره عليه السلام .

ولقي أبو سفيان بن الحارث وابنه وعبد الله بن أمية بن المغيرة جيش المسلمين بالقرب من الأبواء فطلبوا مقابلة رسول الله ﷺ — فلم يأذن لهم ، فقال أبو سفيان :

— والله ليأذن لي أو لأخذ بيد ابني هداثم لندهن في الأرض حتى يموت جوعا وعطشا .

والتقى على بن أبي طالب بابن عمه أبي سفيان بن الحارث ، وذهب عبد الله إلى أخته أم سلمة أم المؤمنين يسأها أن تكلم رسول الله ﷺ — صلوات الله

وسلامه عليه — فبهما ، فلما دخل عليه السلام على أم سلمة قالت له :
 — لا يكون ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك .
 — لا حاجة لي بهما . أما ابن عمي فهتك عرضي وأما ابن عمتي فهو الذي
 قال لي بمكة ما قال .

وقال علي بن أبي طالب لابن عمه أبي سفيان بن الحارث :
 — أنت رسول الله — ﷺ — من قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف
 ليوسف : « تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لحاططين » (١) فإنه — ﷺ —
 لا يرعى أن يكون أحد أحسن قولاً منه .

فدخل أبو سفيان بن الحارث على ابن عمته فقال ما علمه علي بن أبي
 طالب . فقال رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه :
 — لا تريب عليكم اليوم يعفر الله لكم وهو أرحم الراحمين .
 وكان أبو سفيان بن الحارث شاعر قريش ، فأنشد يعتذر مما كان قد مضى
 من فعله : .

لعمرك إني يوم أحمل راية لتغلب خيل اللات خيل محمد
 لكالمداخل الحيران أطلم ليده فهذا أواني حين أهدى وأهتدى
 هذاني هاد غير نفسي ودلسي على الحق من طردت كل مطرد
 نصرب رسول الله — ﷺ — في صدره وقال .

— أنت طردتني كل مطرد .
 واستمر أبو سفيان بن الحارث في إنشاده :

أصد وأناى جاهدا عن محمد وأدعى وإن لم أنتسب من محمد
هم ما هم من لم يقل بهواهم وإن كان ذا رأى يلم ويفسد^(١)
أريد لأرضيهم ولست بلائط مع القوم ما لم أمد في كل مقعد
فقل لتقيف : لا أريد قبالها وقل لتقيف تلك : غيرى أوعدى
قبائل جاءت من بلاد بعيدة نزائع جاءت من سهام وسردد^(٢)

ودخل عبد الله بن أمية بن المغيرة على رسول الله عليه السلام وأعلن إسلامه ، وكان أبو سفيان بن الحارث لا يرفع رأسه إلى رسول الله — عليه السلام — حياء منه فقد عاداه نحو عشرين سنة بهجوه أفذع اهحاء ولم يتخلف أبدا عن قتاله ، يسا كان رسول الله عليه السلام يحبه ويقول : — أرحو أن يكون خلفا من حمزة .

كانوا في رمضان فصام عليه السلام وصام الناس ، ولحقه في الطريق من القبائل بو أسد ومن أسلم من سيم ، حتى إذا كانوا بالكديد أظفر فقد كان الحر شديدا ، وبلغه عليه السلام أن الناس شق عليهم الصيام فاستوى — عليه السلام — على راحلته بعد العصر ودعا بإناء فيه ماء فشرب ثم ناوله لرحل بجنبه فشرب ، وأتى بعض الناس أن يعطروا فقبل له عليه السلام . — إن بعض الناس صام . — أولئك العصاة .

ثم التفت عليه السلام إلى الصحابة وقال .

(١) يفسد : يهمل أو يخرق .

(٢) الرابع : العرباء ، سهام وسردد : موضعان من أرض عث .

— إنكم قد دبوتم من عدوكم والقطر أقوى لكم .

وفي قديد عقد — ﷺ — الألوية والرايات ودفعها للقبائل ثم سار حتى نزل بمر الظهران ، وأعمى الله الأخبار عن قريش فلم يعلموا بوصولهم إليهم . وأمر — ﷺ — أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار وجعل على الحرس عمر ابن الخطاب .

واندلعت السنة النيران فكادت تحيل الليل نهارا . وراح عمر بن الخطاب يفكر فيما كان منه في صلح الحديبية : إنه يرى نفسه والعرق يتصبب منه وهو يشب إلى أبي بكر بعد الصلح ويرى في أعماقه قوله : « أبا بكر ، أليس هو رسول الله ؟ » ويمس وحدانه قول أبي بكر مما لكأنه اليلسم : « بلى » . فيعود صوته يفح في أعماقه : « أوليسوا بالمشركين ؟ » . فيسمع قول أبي بكر : « بلى » فيلوى صوته في عين ذاته يكاد يعصف به : « فعلام نعطي الدنيا في ديننا ؟ ! » .

واستشعر عمر بالدموع تضمر إلى ماقيه ، وعجب في نفسه كيف مع به غضبه في ذلك اليوم أن يرد على رسول الله — ﷺ — الكلام حتى إن أبا عبيدة بن الجراح يقول له :

« ألا تسمع يا ابن الخطاب رسول الله — ﷺ — يقول ما يقول ؟ تعود بالله من الشيطان الرحيم » .

إنه تعود بالله من الشيطان الرحيم يوم الحديبية وفي المس شيء . أما وهو على حرس رسول الله — ﷺ — وعشرة آلاف نار تتأحج في مر الظهران على بعد بضعة أميال من مكة فإنه تعود بالله من الشيطان الرحيم وهو نادم ندما صادقا على ما فات ، وقد كاد يفر ساجدا ما تذكر قول رسول الله عليه السلام له : « أنا عبد الله ورسوله لن أحالف أمره ولن يصيحي » .. ولكنه كان على

الحرس فقال في نفسه وقد انتابته رقة أمدت عييه بالدموع :

« صدقت يا رسول الله » .

وتذكر عمر ما قال لما جاء في الصلح أن من جاء مسلما إلى محمد رده إلى قريش : إنه قال في حدة : « يا رسول الله أترضى بهذا ؟ » فبسم رسول الله — ﷺ — وقال : « من جاءنا منهم فردناه إليهم سيجعل الله له فرجا ومخرجا » . وقد كان . وأثبت الأيام أنه عيه السلام كان على صواب ، وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى .

وضايق عمر أنه لم يستطع أن يستشف ما تأتى به الأيام في ذلك اليوم الشديد ، فيما استطاع مشركا من قريش هما مكرز وحويطب أن يريا ما ستأتى به الأحداث يوم أن جاء أبو حنبل بن سهيل بن عمرو إلى المسلمين . يرسف في الحديد ورمي بنفسه بين أظهرهم ، فجعل المسلمون يرحيون به ويهشونه ، فلما رأى سهيل أنه قام إليه فأخذ غصنا من شجرة به شوك وضرب به وجه أبي حنبل ضربا شديدا حتى رق عليه المسلمون وبكوا ، وأحد بتلابيه وقال : يا محمد هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلنى ، لقد لجت القضية بى وبيلك قبل أن يأتيك هذا . قال : صدقت .

رأى مكرز وحويطب ما رأى عمر فقال حويطب لمكرز : ما رأيت قط قوما أشد حائل دخل معهم من أصحاب محمد . أما إني أقول لا تأخذ من محمد نصفا أبدا بعد هذا اليوم حتى يدخلها عوة . فقال مكرز : وأنا أرى ذلك ، أما هو عمر بن الخطاب وريز رسول الله ﷺ — فقد أعماه العصب . لم ير ما رأى المشركا من فتح قريب . فقد وثب ومشى إلى جنب أبي حنبل وأبوه سهيل نجيه يدفعه وصار يقول لأبي حنبل : اصبر يا أبا حنبل فيما هم المشركون . وإما دم أحدكم كدم كلب ومعك السيف .

كان يحرض أبا جندل على قتل أبيه سهيل بن عمرو . ولو أطاعه أبو جندل لحرم المسلمون من أكبر نصر قبل الفتح ، فقد انضم أبو جندل والدين معه إلى أنى بصير وقطعوا طريق قوافل قريش حتى أرغموا سادات قريش على أن يأتوا إلى المدينة وهم صاغرون يلتزمون تعطيل ذلك الشرط الذى ضج منه المسلمون وقالوا دون علم : « سبحانه الله ! كيف يرد للمشركين من جاء مسلما ؟ ! » .

وتفاصرت نفس عمر لما دوى في ضميره ذلك الحديث الذى كان يبه وبين رسول الله ﷺ — بعد صلح الحديبية :

— يا رسول الله ألم تقل إنك تدخل مكة أما ؟

— بلى . فقلت لكم من عامى هذا ؟

— لا .

— فإنكم تأثرونه وتطوفون به .

وتمنى عمر لو أن صيام الدهر وقيامه وعتق ما يصل إليه من رقاب يكون كعارة عما بدر منه في ذلك اليوم الشديد ، ولم يكن وحده الذى اهتر فقد تكلم بعض الصحابة حتى بعد أن نزلت سورة الفتح وقال :

— ما هذا بفتح ، لقد صدونا عن البيت وصُدُّ هدينا . فقال — ﷺ —

لما بلغه الكلام :

— بل هو أعظم الفتح ، لقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ، وسألوكم القصية ويرجوا إليكم في الأمان ، وقد رأوا مكهم ما كرهوا وأطعركم الله عليهم وردكم الله سالمين مأجورين ، فهو أعظم الفتح .
أسيت يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أحراكم ؟ !
أسيت يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل مكهم إذ راعت

الأنصار وبلغت القلوب الحاسر وتظنون بالله الظنونا ؟

— صدق الله ورسوله فهو أعظم الفتح ، والله يا نبي الله ما فكرنا فيما فكرت ولأنت أعلم بالله وبأمره منا .

وخنقت عمر عراته وراح يسأل نفسه : « لماذا لم ينزل الله السكينة على قلبه كما أنزلها على قلب أبي بكر ؟ » ولكن أين إيمانه من إيمان أبي بكر ؟ لو ورن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرححهم .

وهب عليه قول أبي بكر كالسيم :

— يا أيها الرجل إنه رسول الله — ﷺ ، وليس يعصى ربه وهو ناصره .

استمسك بفرزه حتى تموت فإنني أشهد أنه رسول الله .

وقال عمر وقد فاضت مه أنوار اليقين حتى كادت تملأ ما بين السماء والأرض :

— وأنا أشهد أنه رسول الله .

كان العباس بن عبد المطلب قد أسلم وأخفى إسلامه وبقي بمكة ليكون قلم
مخابرات رسول الله ﷺ — يوافيه بأنباء قريش . فلما كان يوم بدر أمر
رسول الله عليه السلام ألا يقتل العباس إذا ما وقع أسيرا في أيدي المسلمين ،
لأنه عمه فما كان صلوات الله وسلامه عليه يفرق بين أهله وعامة الناس في
أمر الدين . بل ليحقق دم مسلم أخفى إسلامه ، ولكيلا يقتل مسلما مسلما
وهو لا يدري .

وأخذ عليه السلام من عمه الفداء لكيلا يكشف أمره تزكية لماله . وما
أكثر ما أنفق أبو بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وأغنياء المسلمين من أموال
في سبيل الله ، وكانت خراعاتهم الرسل على الدوام بين رسول الله عليه السلام
وبين عمه ، فقد كان هوى خزاعة مع نبي الإسلام مؤمنهم وكافرهم ، فلما
كان صلح الحديبية لم يخفوا ميلهم ودخلوا في حلف رسول الله ﷺ — صلوات الله
وسلامه عليه .

وكاد العباس أن يفصح أمره لما جاء الحجاج بن علاط إلى مكة بعد فتح
خيبر يستوفي أمواله . إنه وجد بشية البيضاء رجالا من قريش يستمعون
الأخبار ويسألون عن أمر رسول الله ﷺ — وقد بلغهم أنه قد سار إلى
حير ، وقد عرفوا أنها قرية الحجاز ريفاً ومنعة ورجالا ، فهم يتحسسون
الأخبار ويسألون الركبان ، فلما رأوه قالوا :

— الحجاج بن علاط عنده والله الخير . أخبرنا يا أبا محمد فإنه قد بلغنا أن

القاطع قد سار إلى خيبر وهى بلد يهود وريف الحجاز .

— لقد بلغنى ذلك وعندى من الخبر ما يسركم ، هزم هزيمة لم تسمعوا بمثناها قط ، وقتل أصحابه قتلا لم تسمعوا مثله قط ، وأسر محمد أسرا وقالوا لا تقتله حتى نبعث به إلى مكة فيقتلوه بين أظهرهم بمن أصاب من رجالهم . — إن العباس لما سمع الخبر لم يستطع أن ينهض ، فلم تكن فجيعته في ابن أخيه فحسب بل كانت فجيعته في رسول الإسلام عليه السلام ، فبمس أخرجه من الظلمات إلى النور ، فلما علم أن الحجاج قد ترك ابن أخيه عروسا على صفية بنت حبي بن أحطب وقد افتتح خيبر أحس كأنما ردت إليه الروح ، فلبس حلة له وتحلق وأحد عصاه ثم خرج حتى أتى الكعبة وطاف بها شكرا لله على نصرته دبه ، ثم قال لقريش في اعتزاز المسلم :

— لقد فتح محمد خيبر ، وترك عروسا على ابنة منكهم ، وأحرر أمواهم وما فيها فأصحت له ولأصحابه .

كلام لا يقوله إلا مسلم قوى الإيمان ، وإلا لو كان الدافع إليه رابطة الدم لقال مثله أبو سعيان بن الحارث ابن عم محمد — عليه السلام — وهو رفيق صباه . والتقى العباس بابن أخيه قبل ذلك في عمرة القضاء وكانت بينهما حاجة ، أفضى العباس إلى ابن أخيه عما كان وأبأ عليه السلام عمه بما سيكون . وخرج رسول الله عليه السلام في جيش من الأبرار لفتح مكة وكان عمه العباس هناك . إنه الفتحة ولن يكون بعده هجرة ؛ فإن لم يخرج عمه إليه من مكة قل أن يدخلها عليه السلام فلن تكون له هجرة ولن يكون له ثواب المهاجرين . فبعث إليه عليه السلام سرا أن يخرج مهاجرا ليكون له الثواب الذى يستحقه بعد كل ما أدى للإسلام من خدمات في الخفاء . فلم تعد هناك حاجة لخدمته وقد أصبح فتح مكة على الأبواب .

وخرج العباس في غفلة من قريش بعياله مهاجرا فلقى رسول الله — ﷺ — بالحففة ، فاستقبل عليه السلام عمه وقد غمره الفرح فقال :
— هجرتك يا عم آخر هجرة .

وبالعباس الخزاء الأوفى ورجع معه عليه السلام إلى مكة ليكون له فضل الجهاد إلى فضل الإسلام والمهجرة . وأرسل أهله وثقله إلى المدينة حتى إذا ما نزل المسلمون بمر الظهران وأوقدوا النيران رق قلب العباس لأهل مكة وقال :

— واصباح قريش ! والله لئن دخل رسول الله — ﷺ — مكة عوة قبل أن يأتوه فيستأسوه إنه هلاك قريش إلى آخر الدهر .

فجلس العباس على بغلة رسول الله — ﷺ — البيضاء فخرج عليها وألسته البيران تتراقص وسار على صوثها حتى جاء الأراك فقال :

— لعل أحد بعض الخطابة أو صاحب لن أو ذا حاجة يأتي مكة يخبرهم بمكان رسول الله — ﷺ — ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عنة .
وكانت قريش قد علمت بمسيرة رسول الله — ﷺ — ولم يعموا إلى أي جهة ، وكانوا يرتفعون فرقا بعد أن نقصوا العهد وأخفقت سعادة أبي سفيان في مد المدة وتجديد العقد من أن يعزوهم ، فبحثوا أبا سفيان بن حرب يتحسس الأخبار وقالوا له :

— إن لقيت محمدا فخذ لنا منه أمانا .

فخرج أبا سفيان وحكيم بن حزام يتحسسان الأخبار ، وبيناهما في الطريق لقيتا بديل بن ورقاء فاستصحاها واسطلقوا ينظرون هل يحنون خيرا أو يسمعون به .

كان بديل يرحو من كل قلبه أن يكون رسول الله — ﷺ — قد سار

إلى مكة ، فقد خرج بديل مع وفد خزاعة إلى المدينة بعد أن أغارت بنو بكر على خزاعة وعاونتهم في ذلك قريش وقد وعد عليه السلام عمرو بن سالم بالنصر وما أحلف — صلوات الله وسلامه عليه — وعدا قط . وكان أبو سفيان يتقدم في هجعة الليل وقد اشتد وجيب قلبه وما يدرى علة ذلك الخوف ، فما بلغ قريش مسيره ولكن أبا سفيان كان يستشعر في قرارة نفسه أن رعامته على قريش باتت في يد القدر ، فلو أن محمدا سار إلى مكة لا تنهى كل شيء . وكان حكيم بن حزام شارد اللب حاقا على نفسه لا يدرى سببا لانقياده لأبي سفيان بعد أن فكر في الإسلام طويلا فانشرح له صدره . إنه لو أنصف نفسه من نفسه طرعا إلى المدينة يعلن على الملأ إسلامه كما فعل كثير من سادات قريش . ورأوا على البعد ألسنة البراء فأغلغوا السير ، وصك آذانهم صهيل الخيل لكانه الرعد فراعهم ما سمعوا وراحوا يقلبون وحوهم في العسكر . فانتاب أبا سفيان قلق وأحس بديل أن رسول الله عليه السلام قد أقبل لعزو مكة وفاء لما وعد به عمرو بن سالم فعمره سرور وإن جاهد حتى يخفى عن صاحبيه ما اعتمل في صدره من فرح ، وظل حكيم بن حزام يفر المكان في دهشة . وقال أبو سفيان :

— ما رأيت كالثيلة نيرانا قط ولا عسكرا . هذه كبران عرفة .

عشرة آلاف نار كانت تتأجج في جوف الليل ، إن أبا سفيان لم ير مثل هذه النيران إلا في موسم الحج في عرفة ، إنه لا يدرى من القوم ولماذا تجمعوا ، وكان كل ما يحس به أنه يرتجف خوفا من الرأس إلى القدم . وقال حكيم بن حزام :

— هذه والله خزاعة حمشتها الحرب .

فقال أبو سفيان ولم يفق من دهشته :

— خزاعة أدل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .

وارتفع صوت في سكون الليل ينادى :

— يا أبا حنظلة .

فالتفت أبو سفيان ناحية الصوت . إنه صوت العباس وقد عرفه فالعباس

صديقه وندمه ، فقال :

— أبو الفضل ؟

— نعم .

— مالك فداك أفي وأمي !

— والله هذا رسول الله ﷺ — في الناس قد جاءكم بما لا قبل لكم به .

فقال أبو سفيان في يأس :

واصباح قريش والله ! فما الخيلة فداك أفي وأمي ؟

— والله لئن طعرتك ليضربن عنقك ، فاركب في عجز هذه البعثة حتى

أتيتك رسول الله ﷺ — فأستأمنه لك .

فركب أبو سفيان حلف العباس ورجع صاحبه ، فحاج به كما مرأ بار

من نيران المسلمين قالوا :

— من هذا ؟

وإذا رأوا بعلة رسول الله ﷺ — والعباس عليها قالوا :

— عم رسول الله ﷺ — على بغلته .

حتى مرأ على نيران عمر وكان على الخرس ، فقال :

— من هذا ؟

وقدم إلى العباس ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال :

— أبو سفيان ! عدو الله ، الحمد لله الذي أمكن منك من غير عقد ولا

عهد .

ثم راح يشده نحو رسول الله ﷺ ، فركضت البغلة فسبقته وراح عمر يعدو خلفها . وكان سباق بين العباس وعمر إلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، العباس يريد أن يستأمن لصديقه ونديمه رسول الله عليه السلام ، وعمر يريد أن يأخذ منه الأمر بقتل عدو الله .

ودخل العباس على رسول الله ﷺ — ودخل عمر في أثره ، فقال وهو يلتقط أنفاسه :

— هذا أبو سفيان وقد أمكن الله منه من غير عقد ولا عهد ، فدعني لأضرب عنقه .

فطر العباس إلى عمر في يكار ، ثم التفت إلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فقال :

— يا رسول الله إني قد أحرته .

ثم جلس إلى رسول الله ﷺ — فأخذ رأسه فقال في نفسه : « والله لا يباحيه الليلة رجل دوني » . فعاد عمر يقول لرسول الله عليه السلام :

— دعني لأضرب عنقه .

فقال العباس في غضب :

— مهلا يا عمر ، هو الله لو كان من رجال بني عدى بن كعب ما قلت مثل هذا ، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف فقال عمر في نبرات صادقة :

— مهلا يا عباس ، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم . وما لي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلي رسول الله ﷺ — من إسلام الخطاب لو أسلم .

فقال رسول الله — ﷺ :

— اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فائتني به .

وذهب العباس بأبي سفيان إلى رحله . فلم يعرف أبو سفيان النوم وراحت الأفكار تنثال على رأسه ، فتذكر فيما تذكر قول أمية بن أبي الصلت له : « لكأنى بك يا أبا سفيان إن خالفته قد ربطت كما يربط الحدى حتى يرقى بك إليه فيحكم فيك بما يريد » . فاستشعر أبو سفيان أسى ، إنه نام في خيام العباس يحس ضياعا لا يدري أبصغى محمد إلى شفاعته عمه أم يستجيب لدعوة عمر فيضرب عنقه .

إنه يوم أن جاء الحجاج بن علاط يشرهم بهزيمة محمد وبأسره وأن أهل حير قالوا : لا نقتله حتى نعت به إلى مكة فيقتلوه بين أظهرهم بمن أصاب من رجالهم تهلل بالفرح ، وعزم على أن يقتل محمدا على الملأ ليشمى عليه وغليلهم ، وإنه لو كان في مكان محمد ما عفا أبدا عن عدوه الذى ناصه العداء منذ أول يوم رعم فيه أنه سى مرسل . إنه ساق الخيوش وجمع الأحزاب ليستأصل شأته . ولو كان قد قدر له أن ينتصر فما كان ليتردد لحظة في صرب عبق الذى فرق بين الأب وبيه والزوج وزوجته وجاهد ليستل منه زعامته .

وبت بقيس تصرف رسول الله — صوات الله وسلامه عليه — بمقاييسه فرأى أنه هائل ، فحزن حتى الموت ونمى بكل عواطفه لو أن الدنيا لا تشرق لها شمس ولا يطلع عليها نهار .

وراح بلال يرفع الحجوم ويرصد الشمس حتى إذا ما بدأ مولد المعمر أذن بالصلاة فثار الناس ، ففرع أبو سفيان وقال للعباس :

— يا أبا الفضل ما للناس أمروا في بشىء ؟

— لا ولكنهم قاموا إلى الصلاة .

وَأَمَّ رَسُولُ اللَّهِ الْمُسْلِمِينَ وَوَقَفَ أَبُو سَفْيَانَ بِيَابِ الْخِيْمَةِ يَنْظُرُ ، رَأَاهُمْ يَرْكَعُونَ إِذَا رَكَعَ وَيَسْجُدُونَ إِذَا سَجَدَ وَيَهْرَعُونَ إِلَيْهِ يَلْقَوْنَ إِلَيْهِ الْأَسْمَاعَ إِذَا مَا قَضَيْتِ الصَّلَاةَ وَيَفْئِدُونَ مَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ مُسْتَبْشِرِينَ . فَلَمَّا عَادَ الْعَبَّاسُ إِلَى رَحْلِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ قَالَ لَهُ أَبُو سَفْيَانَ :

— مَا رَأَيْتُ مُلْكًا مِثْلَ هَذَا ، لَا مُلْكٌ كَسْرِي وَلَا مُلْكٌ قَيْصَرٍ وَلَا مُلْكٌ بَنِي الْأَصْفَرِ .

وَوَضَعَ أَبُو سَفْيَانَ مِثْلَهَا بَرَهَةً حَتَّى قَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ :

— كَلِمَةٌ فِي قَوْمِكَ هَلْ عِنْدَهُ مِنْ عَمَلِهِمْ .

فَانْطَلَقَ الْعَبَّاسُ بِأَبِي سَفْيَانَ حَتَّى أَدْخَلَهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ — فَقَالَ لَهُ — ﷺ :

— وَيَحْكُ يَا أَبَا سَفْيَانَ ، أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ؟

— يَا أَبَتِ وَأُمِّي ، مَا أَحْلَمْتُ وَأَكْرَمْتُ وَأَوْصَلْتُ ! لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّهُ لَوْ

كَانَ مَعَ اللَّهِ إِلَهٌ غَيْرُهُ لَمَا أَغْنَى عَنِّي شَيْئًا بَعْدَ .

— وَيَحْكُ يَا أَبَا سَفْيَانَ ، أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ؟

لَوْ أَقْرَأَهُ بِالرَّسَالَةِ فَقَدْ ذَهَبَتْ رِعَامَتُهُ وَدَالَتْ دَوْلَتُهُ وَقَدْ حَارَبَ الْمُسْلِمِينَ فِي

سَبِيلِهَا فَقَالَ :

— وَاللَّهِ إِنْ هَذِهِ فِي الْفَسْ مِنْهَا شَيْئًا .

كَانَ أَبُو سَفْيَانَ يَطْمَعُ فِي أَنْ يَرْجِيَ مُحَمَّدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اعْتِرَافَهُ بِنُبُوَّتِهِ لَمَّا رَأَى

مِنْ حِلْمِهِ وَعَفْوِهِ ، فَمَنْ يَدْرِي فَقَدْ تَأَنَّى الرِّيحَ دَاتِ يَوْمٍ بِمَا يَشْتَبَى وَتَعْصَفُ

بِالْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ فَتُظَلُّ لَهُ السِّيَادَةُ عَلَى قَوْمِهِ وَلَا يَذْهَبُ شَرَفُهُ فِيهِمْ .

وَرَأَى الْعَبَّاسُ الشَّرَّ فِي عَيْنِي عَمْرٍ فَقَالَ لَصَدِيقِهِ وَدَيْمِهِ :

— ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تضرب عنقك .

عقه ؟! إنه عده أهم من كل شرف ومن كل زعامة ، وإن ابن الخطاب ليتحرق شوقا إلى ضربه فقال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .
وكان صوته خافتا ينز أسي .

ودبت الحياة في العسكر ، وراح الناس يتأهبون للانطلاق إلى مكة وقد خفقت القلوب في الصدور فعير الأرض المقدسة يملأ النفوس ، وقد لاح الفتح للأعين فإن هي إلا بضعة أميال ثم يتحقق حلم السنين .

وطافت بالرعوس ذكريات ، والتف حول الرسول أصحابه يصفون إلى أوامره وهم يتذكرون كل ما قاله في الليل . قال فيما قال : « إن مكة أربعة عر من قريش أرباً بهم عن الشرك وأرعب بهم في الإسلام : عتاب بن أسيد ، وحير بن مطعم ، وحكيم بن حرام ، وسهيل بن عمرو » . فشعلت العقول بمكارم هؤلاء الرجال وإن كانوا لهم أعداء .

وتجهز المسلمون بسير فانتاب أبا سفيان قلق شديد فلا قل لقريش هؤلاء الرجال ، فذهب إلى رسول الله ﷺ — وقال :

— يا رسول الله ادع الناس بالأمان . أرأيت إن اعتزلت قريش فكمت أيديها آمنون هم ؟

— نعم من كف يده وأغلق داره فهو آمن .

وكان العباس أعرف الناس بذيمة وصديقه فقال :

— يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً .

— نعم : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو

آمن ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن .

فقال أبو سفيان وهو شارد :

- ما تسمع دارى وما يسمع المسجد ؟
 كان رسول الله — ﷺ — عقد لأبى ربيعة الذى آخى عليه السلام بيه
 وبين بلال لواء قائمه أن ينادى :
 — من دخل تحت لواء أبى ربيعة فهو آمن .
 فاستشعر أبو سفيان راحة وقال :
 — هذه واسعة .
 وتأهبت القائل للسير فقال — ﷺ — لعنه العباس :
 — أحلسه بمضيق الوادى حتى تمر به جنود الله فيراها .
 ووقف العباس وأبو سفيان بمضيق الوادى ، وأقبل خالد بن الوليد فى بنى
 سليم حتى إذا ما مرت بأبى سفيان وأصاحت عند محاذاته ارتفعت الأصوات
 مدوية :
 — الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر .
 فقال :
 — يا عباس من هؤلاء ؟
 — هذا خالد بن الوليد .
 — العلام ؟
 — نعم .
 — ومن معه ؟
 — هو سليم .
 — ما لى وسلى سليم ؟
 ثم مر على أثره الربير بن العوام فى خمسمائة من المهاجرين وقياد العرب ،
 حتى د ما صاروا عند محاذاته نطلقت الأصوات من المحاجر :

— الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر .

فقال أبو سفيان :

— من هؤلاء ؟

— الزبير .

— ابن أختك ؟

— نعم .

ثم مرت بنو غفار ثم أسلم ثم بكعب ثم مربة ثم جهينة ثم كنانة ثم أشجع والتكبر يرتفع ليبلغ عمان السماء . ولما مرت أشجع قال أبو سفيان للعباس :

— هؤلاء كانوا أشد العرب على محمد .

— أدخل الله الإسلام قلوبهم فهذا فضل الله .

وأقبل رسول الله ﷺ — في كتيفته اخضراء فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الخدق من الحديد ، فيها ألعا دارع وعمر من الخطاب يقول :

— رويدا حتى يملحق أولكم آخركم .

فجعل أبو سفيان يبصر وهو مشدوه ثم قال :

— يا عباس من هؤلاء ؟

— هذا رسول الله ﷺ في الأنصار .

— ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة .

وراح يقلب وجهه في الكتيفة الخضراء وقد ثارت انفعالاته ، كان يرتفع مرقا على قريش وكان يمتلئ دهشة من عظم دث الخيش الذي كونه رسول الله ، فالتفت إلى العباس وقال :

— والله يا أبا العصل لقد أصبح ملك ابن أهلك اليوم عظيما .

— يا أبا سفيان إنها النبوة .

— نعم إذن .

وكانت مع سعد بن عباد راية رسول الله ، ولما مر بأبي سفيان وحاذاه قال :

— يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أدل الله قريشا .

فلما مر بأبي سفيان رسول الله — ﷺ — وحاذاه ناداه أبو سفيان :
— يا رسول الله أمرت بقتل قومك ؟ فإنه زعم سعد ومن معه حين مر بنا أنه قاتلنا فإنه قال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أدل الله قريشا ، أنشدك الله في قومك فأنت أبر الناس وأرحمهم وأوصلهم .
فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف :

— يا رسول الله فإنا لا نأمن من سعد أن يكون له في قريش صولة .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— يا أبا سفيان كذب سعد : اليوم يوم الرحمة .. اليوم أعز الله فيه قريشا .

وأرسل رسول الله — ﷺ — علي بن أبي طالب إلى سعد بن عباد أن يرع النواء منه ويدفعه لآبيه قيس ، فأبى سعد أن يسلم اللواء إلا بأمرة من رسول الله — ﷺ — ، فأرسل عليه السلام بعمامته فدفع اللواء لآبيه قيس .
وساد السكون لحظة ، ثم قال العباس لأبي سفيان .

— المحاء إلى قومك .

فامتطى أبو سفيان راحلته وانطلق يعدو حتى دخل مكة ، فراح يصرح بأعلى صوته :

— يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار

أبى سفيان فهو آمن .

ودقت القلوب في شدة في الصدور ، وتعلقت الأعين بسيد قريش الذي جاء يعدو يحذر قومه ويدعوهم للأمان ، ورن صوت أبى سفيان في دور مكة وصك أذنى زوجه هند بنت عتبة ، فثار غضبها ، فخرجت تشتد إلى حيث كان زوجها وقد كادت تنفجر حقا ، إنها تعيش على أمل أن تتأثر من محمد وصحبه لمقتل أبيها عتبة وعمها شيبة وأخيها الوليد . إنها كانت تؤجج نار الحقد في صدر زوجها كلما حبت . أو تقبل أن ينتهى كماح السنين بالتسليم ؟ إنها لن تقبل هذا الذل أبدا .

وبلعت مكان أبى سفيان وهي حارقة أعماها الغضب ، فأحدث بلعته ونادت :

— يا آل غالب اقتلوا الشيخ الأحمق .

ثم قالت لزوجها :

— قبحت من طليعة قوم .

وهرع الناس إليها فقالت هد :

— هلا قاتنم ودفعتم عن أنفسكم وبلادكم ؟

فقال لها أبو سفيان في حدة :

— اسكنى وادخلى بيتك .

ثم التفت إلى الناس وقال :

— ويحكم لا تفرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قل لكم به .

من دخل دار أبى سفيان فهو آمن .

ففرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد ، وهرع أناس فقد بلغهم أن السى — ^{مكة} ~~عليه~~ أمر بقتلهم وإن وحدوا متعلقين بأستار الكعبة . كانوا ستة نفر وأربع

نسوة منهم : عبد الله بن أبي سرح أحو عثمان بن عفان من الرضاعة وكان فارس بنى عامر وكان من كتاب الوحى ثم زعم أنه يكتب على هواه ثم ارتد عن الإسلام ، وعبد الله بن حنظل وقيتاه وكان يهجو رسول الله عليه السلام هجاء قاذعاً وكانت قيتاه تغيان ذلك الهجاء . وعكرمة بن أبى جهل وكان ألد الخصام ، والحويرث بن نفيل ومقيس بن حبابه ، وهبار بن الأسود ، وكان قد أفرع زينب بنت محمد عبد هجرتها إلى المدينة وكانت حاملاً فأصابها نريف كان يعاودها لم يقطع حتى ذلك اليوم ، وكعب بن زهير وكان لا يفتأ يظم القصائد في ذم محمد عليه السلام والمسلمين ، والحارث بن هشام وهو أخو أبى جهل وكان يتربص بالمسلمين الدوائر لينأر لأخيه ، وزهير بن أمية ، وسارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب حاملة كتاب حاطب بن أبى بلتعنة إلى قريش ، إياها مولاة عمرو بن صفى بن هاشم بن عبد مناف ، وإياها أتت رسول الله — من مكة إلى المدينة ورسول الله — يتحيز لفتح مكة ، فقال لها رسول الله — .

— أمسلمة جئت ؟

— لا .

— أمهاجرة جئت ؟

— لا .

— فما حاجتك ؟

— كنت كثيرة العشرة والأهل والنوالى ، وقد ذهبت موالى واحتجت حاجة شديدة فقدمت عبيكم لتعطونى وتكسبونى وتحملونى .

— فأين أنت من شباب مكة ؟

وكانت مغيبة نائحة قالت :

— ما طلب مني شيء بعد وقعة بدر .

فحث رسول الله ﷺ — بنى عبد المطلب وبنى المطلب فكسوها وحملوها وأعطوها نفقة ، فأثاها حاطب بن أبي بلتعة حليف بنى أسد بن عبد العزى فكتب معها إلى أهل مكة كتابا ، ولم تحمد لرسول الله ﷺ — عطفه وبره بل راحت تتعنى بهجاء النسي — صلوات الله وسلامه عليه — حتى بعد أن أطلقت لما وجد الكتاب في قرونها ، وصفوان بن أمية وكان أكثر سادات قريش عداء لرسول الله ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه ، فهو في كل وقت يبدى عداوته ويؤذى المسلمين بماله ويده ولسانه ، وزهير بن أبي سلمى ، وهند بنت عتبة ، ووحشى .

وجمع صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو أناسا باخدية وهو جبل مكة ليقاتلوا لا دفاعا عن مكة ولا الحرم بل عن أعناقهم ، وراح حماس بن قيس بن خالد أخو بني بكر بعد سلاحه ويرى سله ويصلح من شأنه ، فقالت له امرأته مستهزئة :

— لماذا تعد ما أرى ؟

— لحمد وأصحابه .

— والله ما أراه يقوم لحمد وأصحابه شيء .

فقال في انفعال :

— لأخدمك مخادما من بعض من نأمره .

— والله لكأنى بك وقد رحمت تطلب محبا أحبك فيه لو رأيت خيل

محمد .

وأمر رسول الله ﷺ — خالد بن الوليد أن يدخل مع جملة من قبائل

العرب من أسفل مكة ، وأن يغرر رايته عند أدنى البيوت وقال :

— لا تقتلوا إلا من قاتلكم .

وحمل — ﷺ — الزبير على إحدى المجبتين وخالدا على الأخرى وأبا عبيدة على الرحالة ، وأعطى الزبير راية وأمره أن يفرزها بالحقون لا يروح حتى يأتيه في ذلك الخيل . وتقدم خالد والزبير ، وعرر خالد رايته عند أدنى البيوت ، وعرر الزبير رايته بالحقون وانتظر حتى وافاه رسول الله — ﷺ — وبني هناك مسجدا عرف فيما بعد بمسجد الراية .

ولما وقف رسول الله — ﷺ — على دى طوى ، قال أبو قحافة لابه له من أصغر ولده :

— أى بنية ، إظهري لى على جمل أى قيس .

وكان قد كف بصره ، فأشرفت عليه فقال لها :

— أى بنية ماذا ترين ؟

— أرى سوادا محتمعا .

— تبث الخيل .

— وأرى رجلا يسعى بين يدي ذلك السواد مقبلا ومدبرا .

— ذلك الوارع (الذى يأمر الخيل ويتقدم إليها) .

— قد والله انتشر السواد .

— قد والله إذا دعت الخيل ، فأسرعى إلى بيتى .

فانخطت به ، وتلقاه الخيل قل أن يصل إلى بيته وفى عرق الحاربة ضوق من فصة ، فتبناها رجل فانقطع من عقها ، فانطلقت بأبيها لا تدوى على شيء ، وبقيت في الدار ترصد مقدم أحبا أن بكر الصديق :

كان رسول الله على راحلته معتحرا بشقة بُرد حمراء وإنه ليصع رأسه تواسعا لله تعالى حين رأى ما أكرمه الله به من معتح ، وراح صرير من الخطاب

يرنو إلى رسول الله ﷺ — في حب بعد أن قال عليه السلام لأبي سفيان :

— يا أبا سفيان اليوم يوم المرحمة ، اليوم أعز الله فيه قريش .

فهزت أرمحية رسول الله ﷺ — علو الأمس ضرار بن الخطاطب الذي فعل بالمسلمين الأفاعيل يوم أحد ، فقال :

يا نبي الهدى إليك لجأ	حى قريش ولات حين لجا
حين ضاقت عليهم سعة الأر	ض وعاداهم إليه السماء
والتقت حلقتا البطان على القو	م ونودوا بالصيلم الصلعاء ^(١)
إن سعدا يريد قاصمة الظهـ	ر بأهل الحجون والطحاء
خررجي لو يستطيع من العيـ	ظ رمانا بالنسر والعواء ^(٢)
وغير الصدر لا بهم بشيء	غير سفك الدما وهتك النساء
قد تلتطى على البصاح وجاءت	عنه هند بالسوءة السوأة
إذ يادى بدل حى قريش	وابن حرب بدا من الشهداء
فكن أقحم اللواء ونادى	يا حماة اللواء أهل اللواء
ثم ثابت إليه من يهم الخز	رج والأوس أنعم الهيجاء
لنكونن بالبطاح قريش	بقمة ^(٣) القاع في أكف الإماء
فأبينسه فإنه أسد الأر	د لدى الغاب والغب في الدماء
إنه مطرق يريد لنا الأمـ	ر مكنوتنا كالخيلة الصماء

فأرسل رسول الله ﷺ — إلى سعد بن عباد فزع اللواء من يده وجعله

(١) تنقت حقت اصطال مثل في بلوع الأمر . واسطد . حرام يجعل تحت ظل
البحر . والصيلم : الداهية الشديد

(٢) النسر والعواء : كوكبات .

(٣) البقمة : صرب من الكبأة وهي البصاء لرحوة يشبه بها الرجل المليل .

يبد قيس ابنه ، ورأى رسول الله ﷺ — أن اللواء لم يرح عنه إذ صار إلى ابنه .

ووقف خالد بن الوليد والذين معه حيث غرز رايته وراح يدعو صفوان وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أفى جهيل ومن معهم من قريش إلى الإسلام ، فكان ردهم أن رموا المسلمين بالنبل . وكف خالد ما استطاع ولكن صفوان والذين معه شرعوا أسلحتهم للقتال ومشوا إلى المسلمين مشى الوعول ، فقم يحد خالد بدأ من أن يقاتل من قاتلوه فأعمل فيهم السيف فقتل منهم أناسا ، واستمر يدفعهم إلى أن وصل الخزورة إلى باب المسحد ، وصعدت طائفة منهم الحبل فتبعهم المسلمون . فرأى — ﷺ — وهو على العقبة بارقة السيوف فقال :

— ما هذا وقد نهيت عن القتال ؟

ف قيل له :

— لعل حالدا قوتل ويديء في القتال فلم يكن له بد من أن يقاتل من قاتله ، وما كان يا رسول الله ليحالف أمرك .

وقتل خالد من المشركين أربعة وعشرين من قريش وأربعة من هذيل ، وبعث رسول الله ﷺ — إلى خالد وقال له :

— لم قاتلت وقد نهيت عن القتال ؟

— هم يا رسول الله بدعوا بالقتال ورمونا بالنبل ووضعوا السلاح ، وقد كعفت ما استطعت ودعوتهم إلى الإسلام فأبوا ، حتى إذا لم أجد بدا من أن أقاتنهم فظفروا بهم فهربوا من كل وجه .

وهر حماس بن قيس بن خالد أخو بكر يترقب من الخوف بعد أن شهد يوم الخدعة ورأى سيوف المسلمين تحصد الرجال ، واستمر يعدو مبهور الأنفاس

حتى دخل على امرأته وقال وهو يرتجف من الرعب :
— أغلقتى على بائى .

وتذكرت زوجها قوله :

إن بقلوا اليوم فما على هذا سلاح كامل وآلة^(١)
وذو غرارين^(٢) سريع السلّة

فقلت فى هزء :

— فأين الذى كنت تقول ؟ أين الخادم الذى وعدتسى ؟

فقل :

إبك لو شهدت يوم الخدمة إذ فر صموان وهو عكرمة
وأبو يزيد قائم كالوئة واستقبلنا بالسيوف المسلمة
يقطعن كل ساعد وحممة صريبا فلا تسمع إلا أعممة
لهم بهيت^(٣) حلما وهممة لا تطفى فى اللوم أدنى كلمة
وهرب هيرة بن أنى وهب روح أم هانئ بنت أنى طالب أحت على لأبويه
إلى نجران ، وقال معتذرا عن فراره :

لعمرك ما وليت طهرى محمدا وأصحابه حنا ولا حيلة القتل
ولكننى قلبت أمرى فلم أحد لسمى عاء إن ضربت ولا نبلى
وقفت فلما حقت صبعة موقفى رجعت لعود كاهلبر إلى الشبل

(١) الآله : جمع أداة الحرب .

(٢) الغرار : حد الرمح .

(٣) البهت : رثير الأسد .

دخل — عليه السلام — مكة وهو راكب على ناقته القصواء مردفا أسامة بن زيد بكرة يوم الجمعة ، وعليه عمامة سوداء قد أرخى طرفيها بين كتفيه بعير إحرام ، ولواژه أبيض ورايته العقاب سوداء قد شهدت خير والفتح . ودخل عليه السلام من كداء واضعا رأسه على رحله تواضعا لله ثم قال :
— اللهم إن العيش عيش الآخرة .

وتقدم المهاجرون والأنصار : وكان شعار المهاجرين يا بنى عبد الرحمن ، وشعار المحررح يا بنى عبد الله . وشعار الأوس يا بنى عبد الله ، ولم يكن قتال فكان شعارهم الذى يعرف به بعضهم بعضا فى ظلمة الليل . حتى إذا ما بلغ الحجون موضع ما غرز الربير رايته عد شعب ألى طالب طافت برأسه عليه السلام ذكريات : رأى أيام الشدة ، أيام أن حصرت قريش فى الشعب بى هاشم وبنى المطلب وتعاهدت قريش على أن لا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم ولا يزوجوهم ولا يتزوجوا منهم ، فاعرورقت عيناه بالدموع ، ووقف فحمد الله وأثنى عليه ونظر إلى موضع قبته والتفت إلى جابر وقال :
— هذا مرلنا يا جابر حيث تقاسم قريش علينا .

فذكر جابر حديث المقاطعة وكان سمعه منه — عليه السلام — قل ذلك بالمدينة ، ونزل عليه السلام فى قبة من آدم صرمت له هناك ومعه فيها أم سلمة وميمونة وروحاه — عليه السلام ، وما كاد يستقر حتى تذكر حديث أسامة بن زيد :

— يا رسول الله أين تنزل ؟ عدا تنزل في دارك .

— وهل ترك لنا عقيل من دار ؟

ثم سار — ﷺ — وإلى جانبه أبو بكر رضى الله عنه يحاذيه ويقرأ سورة الفتح حتى جاء البيت وطاف به سبعا على راحلته ، ومحمد بن مسلمة أخذ بزمامها ليستلم الحجر بمحجن في يده ، وكان على الكعبة ثلاثمائة وستون صنبا لكل حى من أحياء العرب صنم قد شدت أقدامها بالرصاص ، فجاء رسول الله — ﷺ — معه قضيب فحمل يهوى به إلى كل صنم منها فيحرق لوجهه وهو يقول :

— حاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا .

وبقى هل في خوف الكعبة وقد أرخى الليل سدوله ، فقال — ﷺ —
لعلى كرم الله وجهه :

— اصعد على منكبي واهدم الصنم .

— يا رسول الله بل اصعد أنت فإني أكرمك أن أعينك .

— فاصعد أنت .

فجلس البى — ﷺ — فصعد على كرم الله وجهه على كاهله ثم نهض به ، فحبل لعلى حين نهض به أنه لو شاء لبال أفق السماء ، فصعد فوق ظهر الكعبة وتحى رسول الله — ﷺ — وراح على يخال الصنم حتى تمكن من رفعه فأنقاه على الأرض وأبو سفيان يسطر ورسول الله يقول :

— حاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا .

فالتفت الربير بن العوام إلى أبي سفيان وقال :

— قد كسر هل ، أما إنك قد كست في يوم أحد في عرور حين ترعم أنه

قد أنعم .

فقال أبو سفيان :

— دعنى ولا توبخنى ، لو كان مع إله محمد إله آخر لكان الأمر غير ذلك .
وانطلق المسلمون يدفون إلى الكعبة دفيق السور ويحسون إليها حين الطير
إلى يصها لهم عجيج^(١) منطلق من أفدة عامرة بأنوار اليقين ، على الشفاه
تسيح وفي المأق الدموع ، وعمر بن الخطاب مستبشر بالفتح يعكر صمائه
ذكريات يوم الحديدية ، يلوم نفسه على تلك الثورة العارمة التي ثارها لما وقع
الصلح ، فما استطاع أن يرى أن ذلك الصلح هو النصر والفتح المبين .
وراح يقرأ سورة الفتح وقد سجدت كل مشاعره لله ، وراح يدعو الله أن
يعفّر له ما كان منه وينذر الصوم وفك الرقاب لعل ذلك يكون كفارة عما بدر
منه في ذلك اليوم الشديد .

وأرسل عليه الصلاة والسلام بلالاً إلى عثمان بن أبى طلحة يأتى بفتح
الكعبة ، فجاء إلى عثمان فأحبره فقال :
— إنه عند أمى .

فرجع بلال إلى رسول الله ﷺ — فأحبره أن المفتاح عدأمه ، فبعث
إليها رسولا فقالت :

— لا واللات والعزى لا أدفعه أبدا .

فقال عثمان :

— يا رسول الله أرسلنى أخبصه لك منها .

فأرسله فجاء إليها فطلبه منها فقالت :

(١) العجيج : الصراخ .

— لا واللات والعزى لا أؤصله إليك أبدا :

— يا أمه ادفعيه إني فإنه قد جاء أمر غير ما كنا عليه إن لم تفعل قُلت أنا وأخي ويأخذه منك غيري .

فأدخلته حجرها وقالت :

— أي رجل يدخل يده ههنا ؟ أشدك الله أن يكون ذهاب بائرة قومك على يديك .

كان رسول الله ﷺ قائما ينتظر حتى إنه ليتحدر منه كالحممان من العرق ، فلما رأى أبو بكر وعمر ذلك انطلقا إلى دارها ، فيينا عثمان بن أبي طلحة يحاور أمه إذ سمعت صوت أبي بكر وعمر في الدار ، وعمر رافعا صوته وهو يقول :

— يا عثمان اخرج .

ف قالت :

— يا بني خذ المفتاح فإن تأخذه أحب إلي من أن تأخذه تيم وعدي .
فأخذه عثمان وحرص يمشي حتى إذا كان قريبا من وجه رسول الله ﷺ ، فاستقبله عثمان بمشر واستقبله عليه السلام بمشر فأخذ منه المفتاح ، فلما أحده قال :

— ادعوا إلى عمر .

فجاء فقال له — ﷺ — ومفتاح الكعبة في يده :

— هذا الذي قلت لكم .

ودخل — ﷺ — هو وأسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة ، وكان خالد بن الوليد يذب الناس وهو واقف على باب الكعبة ، وأمر عليه السلام بلال بن رباح أن يؤذن فأذن وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد والحارث

ابن هشام جلوس بفناء الكعبة ، فقال عتاب بن أسيد :

— أكرم الله أسيدا ألا يكون سمع هذا فيسمع ما يغيظه .

فقال الحارث :

— أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته .

فقال أبو سفيان :

— لا أقول شيئا ، لو تكلمت لأحرت عني هذه الحصى .

ورأى عليه السلام في الكعبة صور الملائكة وصور إبراهيم وإسماعيل في أيديهما الأزلام يستقسمان . وصور الأنبياء وصورة مريم فقال :

— قاتل الله قوما يصورون ما لا يخلقون .

وأمر عليه السلام عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان أن يقدموا إلى البيت لمحو كل صورة فيه ، ومحيت الصور ونقبت صورة إبراهيم ، فقال عليه السلام لعمر :

— يا عمر ألم أترك فيها صورة ؟ فأنهم الله حيث جمعوه شيئا يستقسم بالأزلام . « ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » (١) .

ودعا — ﷺ — بدلوا ماء فأتاه به أسامة بن زيد فجعل — ﷺ — يمحوها ، ووجد حمامة من عیدان فكسرها بيده وطرحتها ، وكبر في نواحي البيت وصلى به ركعتين بين العمودين اليمانيين وبينه وبين الحدار ثلاثة أذرع . وفتح باب الكعبة وكان أول من ولح ابن عمر فتبع خطوات الرسول ، فنقى بلالا فسأله :

(١) آل عمران ٦٧ .

— هل صلى فيه رسول الله — ﷺ ؟

— نعم .

فذهب ابن عمر لبصلي حيث صلى رسول الله — ﷺ .

ووقف — صلوات الله وسلامه عليه — على باب الكعبة فقال :

— لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم

الأحزاب وحده . ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا

سدانة البيت وسقاية الحاج ، ألا وقبيل أخضأ شه العمد بالسوط والعصا فقيه

الدبة معصية مائة من الأبل ، أربعون منها في بطونها أولادها

— يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء .

الناس من آدم وآدم من تراب .

ثم تلا قوله تعالى : يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا

وقبائل لنعرفكم إن أكرمكم عند الله أتقاكم أن الله عليه حير^(١) .

ووضع — ﷺ — يده على عصا داني الب ثم قال .

— ماذا تقولون وماذا تطعون أني فاعل فيكم ؟

— حيرا .

فقال أحدهم :

— نقول حيرا ونظن حيرا . أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت .

— قول كما قال أحي يوسف . لا تثريب عليكم اليوم يعمر الله لكم وهو

أرحم أرحمين . أدهر هامة تصنفاء .

وعملوا بالسرور لكأنما نشروا من القبور ، ثم جاء — ﷺ — إلى مقام إبراهيم وكان لاصقا بالكعبة فصلى ركعتين ، ثم أحمره حتى لا يعوق الطائفتين ، ثم انصرف إلى زمزم فاطلع فيها وقال :

— لولا أن تغلب بهو عبد المطلب على وظيفتهم لزعت منها دلوها .

كانت السقاية في سبي عبد المطلب وكان عليها العباس ، فخشى عليه السلام أن ينزع منها دلوها فيقتدى الناس به ويعلمون بنى عبد المطلب على وظيفتهم ، وانتزع له العباس دلوها فشرب منه وتوضأ فانتدب المسلمون يصبون على وجوههم .

وحل رسول الله — ﷺ — في المسجد والناس حوله ، فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده فقال :

— يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية .

فقال عليه السلام :

— أين عثمان بن أبي طلحة ؟

فدعى له فقال :

— هاك مفتاحك يا عثمان . اليوم يوم بر ووفاء .

ودفع إليه رسول الله — ﷺ — المفتاح وهو يقول :

— حذوها يا بنى أبي طلحة تالده حالدة ، لا يزعها مككم إلا طالم .

ودفع السقاية إلى العباس بن عبد المطلب .

وأبى أبو بكر بأبيه يقوده ، فلما رآه رسول الله — ﷺ — قال :

— هلا تركت الشجع في بيته حتى أكون أما آتيه فيه ؟

قال أبو بكر :

— يا رسول الله هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى إليه أمت .

فأجلسه بين يديه ثم مسح صدره ثم قال له :
— أسلم .

فأسلم ، وهما رسول الله — ﷺ — أبا بكر بإسلام أبيه ، وعند ذلك
قال أبو بكر للنبي — ﷺ :
— والذي بعثك بالحق لإسلام أبنى طالب كان أقر لعيسى من إسلامه ، وذلك

لأن إسلام أبنى طالب كان أقر لعينك .

ثم أتى رسول الله — ﷺ — الصفا فعلاه حيث ينظر إلى البيت ، ورفع
يديه ، فجعل يذكر الله عما يشاء أن يذكره ويدعوه والأنصار تحته ، قال
بعضهم لبعض :

— أما الرجل فأذكره رعة في قرية ورأفة بعشيرته .

فرل الوحي عليه — صلوات الله وسلامه عليه — مما ذكر القوم ، فلما
قضى الوحي رفع رأسه وقال :

— يا معشر الأنصار قلتم : أما الرجل فأذكره رغبة في قرية ورأفة
بعشيرته .

— قلنا ذلك يا رسول الله .

— فما أسئمت إذا ما فعلت ذلك ؟ كيف أسئمت وأوصفت بأنى عبد الله
ورسوله ؟ لا أفعل ذلك . إني عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليك فالحيا
حياكم والمات مماتكم .

فأقبلوا إليه يكون ويقولون :

— والله ما قلنا الذى قلنا إلا الضن بالله ورسوله .

لجأ عبد الله بن أبي سرح إلى عثمان بن عفان أخيه في الرضاة فقال :
 — يا أحمى استأمن لى رسول الله — ﷺ — قبل أن يصرب عنقى .
 فعليه عثمان وأطرق عبد الله يدكر ما كان ، إنه كان قد أسلم وكان يكتب
 لرسول الله — ﷺ — الوحي ، وكان — ﷺ — إذا أملى عليه سمعيا بصيرا
 كتب عليهما حكيمًا ، وإذا أملى عليه عليهما حكيمًا كتب عفورا رحيمًا .
 إنه لما كتب : ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في
 قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما
 فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر ^(١) . تعجب من تفصيل خلق
 الإنسان فطلق بقوله فتبارك الله أحسن الخالقين قبل إملائه ، فقال — ﷺ —
 — اكتب ذلك هكذا أنزلت .

فاستولى عليه العرور ولعب به الشيطان فقال :
 — إن كان محمد سببا يوحى إليه فأنا سببى يوحى إلى .
 فارتد ولحق بمكة فقال لقريش :
 — إني كنت أصرف محمدا كيف شئت ، كان يملئ عني عزيز حكيم
 فأقول : أو علم حكيم فيقول نعم ، كل صواب . وكل ما أقول يقول :
 اكتب هكذا أنزلت .

(١) المؤمنون ١٢ — ١٤ .

إن رسول الله ﷺ — أهدر دمه ولطالما اُعتري عليه ، وقال ليرصى
 قريشا إن محمدا لا يعلم ما يقول . إنه حال الأمانة وطهرت حياته فلم يستطع
 أن يقيم في المدينة ولم يكتف بالردة والهروب بل أطلق لسانه كذبا ليبال الحظوة
 عند أناس باعوا آحرتهم بدنياههم ، إن ذنبه عظيم ولكنه يعلم أن عمرو رسول
 الله ﷺ — أعظم . فلما هدا الناس واطمأنوا حرح عثمان بن عفان ذو
 النورين إلى رسول الله ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه — فاستأمن له وكان عليه
 السلام يستحى من عثمان ، فعاد عثمان إلى حيث كان عند الله بن أبي سرح فألقى
 به إلى السبي — ﷺ — فأعرض عنه صلوات الله وسلامه عليه فصار عثمان
 يقول :

— يا رسول الله أمتته .

والسبي — ﷺ — يعرض عنه ، وعاد بن بشر عبده وكان يسر إن رأى
 عبد الله قتله وقد أخذ نغم سيف ستعر السبي يشير إليه أن يقتله . فلما لم يفعل
 قال عليه السلام :

— بعه .

فسيط يده بعه ، فلما حرح عثمان وعد الله قال — ﷺ — من حو به :

— أعرضت عنه مرارا ليقوم عليه بعضكم فيصرب عقه .

وفد تعداد بن بشر

— انتظرت أن نعى سدرك .

— يا رسول الله خفتك ، أفلا أومضت إلي ؟

— إنه ليس لسي أن يومض .

وصار عبد الله بن أبي سرح يستحى من مقدسه — ﷺ — فقال عليه

السلام لعثمان بن عفان :

— أما بایعته وأمته ؟

— بلى ، ولكن يذكر جرمه القديم فيستحي منك .

— الإسلام يجب ما قبله .

وأحبره عثمان بذلك فصار إذا جاء جماعة للنبي — ﷺ — يجيئ معهم ولا يجيئ إليه مفردا .

وكان ابن حنبل يطلق مرعوبا إلى الكعبة ليلود بها . إنه عزم أن رسول الله — ﷺ — قد أهدر دمه . إنه وهو على ظهر فرسه يذكر في وصوح كل ما اقترعه من ديوب ، فالموت أدنى إليه من شرك نعله . إنه كان قد أسلم وكان اسمه عبد العزى فسماه رسول الله — ﷺ — عبد الله ، وبعثه رسول الله — ﷺ — عليه صلوات الله وسلامه — لأحد الصدقة وأرسل معه رجلا من الأنصار يخدمه ، فزل مزلا وأمره أن يذبح له تيسا ويصنع له طعاما ، وبان ثم استيقظ فلم يجد صبح له شيئا وهو بانم فعدا عليه فقتله ثم ارتد مشركا ، وكان شاعرا يهجو رسول الله — ﷺ — في شعره وكانت له قبتان تعيان بهجاء رسول الله — ﷺ — الذي يصعه .

إنه ركب فرسه وقد لبس الحديد وأخذ بيده قنطرة وصار يقسم :

— لا يدخلها محمد عوة .

فما رأى حيل الله دخله الرعب فاضطرب إلى الكعبة فنزل عن فرسه وألقى سلاحه ودخل تحت أستارها ، فأخذ رجل سلاحه وركب فرسه ولحق برسول الله — ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه — بالخمجون فأحبره خبره ، فقال عليه السلام :

— اقتنوه فإن الكعبة لا تعبد عاصيا ولا تمنع من إقامة حد واجب .

وهتفه بأسياهم سعد بن حريث وأبو بررة وربيعة وسعد بن دؤوب

وأمر — ﷺ — بقتل قتيبة . فقتلت إحداهما واستؤمن من رسول الله — ﷺ — للأخرى فأمنها وأسلمت .

وخرج الخويزث بن نفيد هائما على وجهه لا يلبى على شيء . إنه كان يؤذى رسول الله — ﷺ — بمكة ويعظم القول في أدبته وينشد الهجاء . وكان العباس عم السى — ﷺ — حمل فاطمة وأم كلثوم بنتي رسول الله عليه السلام من مكة يريد بهما المدينة فحس الخويزث البعير الحامل لهما فرمى بهما الأرض .

إنه في فرع حتى الموت . فعل بن أئ طالب في أثره يطلبه بعد أن أهدر دمه رسول الله — ﷺ — صوات الله عليه . واستمر الخويزث يعدو حتى أحس أن السماء والأرض أطبقتا عليه ، إنه يترقب في رعب مبهور الأنفاس فعلى قد لحق به ولم يعد بينهما إلا خطوات ، وصره على ضربة كانت وترا فتركه حثا بلا حراك .

وكان مقيس بن ضبابه في جماعة من قريش يشرب خمرأ دون أن يدري أن رسول الله — ﷺ — أمر بقتله ، إنه كان قد أتى السى — ﷺ — مسلما طالبا لدية أخيه هشام بن ضبابه قتله رجل من الأنصار في غزوة دى قرد خطأ يطمه من العدو . ودفع له النبى — ﷺ — دية أخيه ، ثم إنه عدا على الأنصارى قاتل أخيه فقتله بعد أحد دية أخيه ، ثم لحق بمكة مرتدا .

وأخبر ابن عمه ثمينه بن عبد الله اليشى أن مقيسا مع جماعة من كبار قريش يشربون الخمر ، فذهب إليه فقتله وهو قريز العين ، فلو أن غيره من المهاجرين أو الأنصار كان قد قتله فقد كان ذلك يوغر صدره على صحابى من أصحاب رسول الله — ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه .

وأطلق هار بن الأسود ساقيه للريح . كان عرض لزيب بت رسول

الله — ﷺ — في سفهاء من قريش حين بعث بها زوجها أبو العاص إلى المدينة . فأهوى إليها هبار ونخس بعيرها وضربها بالرمح فسقطت من على الحمل على صخرة وكانت حاملا ، فألقت ما في بطنها وأهراقت الدماء ولم تنزل تعاني من ذلك المرض .

إن رسول الله — ﷺ — قال لحماة فيهم أبو هريرة :
— إن لقيتم هبارا فأحرقوه .

ثم قال :

— إنما يعذب بالنار رب النار . إن ظفرتم به فاقطعوا يده ورجله ثم اقلوه .

وخرجوا يطلبونه ولكنهم لم يجدوه فقد هرب من رسول الله — ﷺ — في البلاد .

وفر عكرمة بن أبي جهل إلى اليمن لما أمر رسول الله — ﷺ — بقتله . إنه كان أشد الناس هو وأبوه أذية للنبي — ﷺ — فلما أسلمت امرأته بنت عمه أم حكيم بنت الحارث بن هشام خرجت في أثره فوجدته في ساحل البحر يريد أن يركب السفينة ، فقالت له :

— يا بن عم جئتك من عند أوصل الناس وأبر الناس وخير الناس . لا تهلك نفسك فقد استأمنت لك .

فجاء معها حتى إذا ما رآه رسول الله — ﷺ — وثب إليه قائما فرحاه به ، فقد تذكر عليه السلام أنه رأى في مامه أنه دخل الحلة ورأى فيها عذفا فأعجبه وقال : من هذا ؟ فقيل لأبي جهل ، فشق ذلك عليه — ﷺ — وقال : لا يدخلها إلا نفس مؤمنة . فلما جاءه عكرمة بن أبي جهل مسلم فرح به وأول ذلك العذق لعكرمة .

وتقدم عكرمة من رسول الله — ﷺ — على استحياء ، ثم التفت إلى
زوجه وقال :

— يا محمد هذه أغبرتني أنك أمتني .

— صدقت ، إنك آمن .

فقال عكرمة في افعال :

— أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنت عبده ورسوله .

وطأ طأ رأسه من الحياء ، فقال له — ﷺ :

— يا عكرمة ما تسألني شيئا أقدر عليه إلا أعطيتكه .

— استغفر لي كل عداوة عاديتكها .

— اللهم اغفر لعكرمة كل عداوة عاديتها أو مطلق تكلم به .

ولما رل رسول الله — ﷺ — بأعلى مكة فر إلى أم هانئ أحت على من

أنى طالب الحرب بن هشام ورهبر بن أمية فاستجاراها فأحارتهما ، فدخل

عليها أحوها على كرم الله وجهه وأراد قتلها . قال :

— والله لأقتلنها .

— قد أحرمتها .

— تحريمين المشركين !

وحالت بينه وبينهما فحرج فأعققت عليهما بيتها فقد كانا من أقارب

زوجها هيرة بن أنى وهب ، ثم جاءت النسي — ﷺ — بأعلى مكة فوحدث

المتعظيم يعنسل من حفصة فيها أثر العجين وفاطمة ابنة تستره ثوب ،

فسلمت عليه فقال :

— من هذه ؟

— أم هانئ .

وكانت أم هانئ لم تسلم بعد فقال :

— مرحبا بأم هانئ .

فلما اعتسل أحد ثوبه وتوشح به ثم صلى ثمان ركعات من الضحى ، ثم أقبل على أم هانئ فقال :

— ما جاء بك ؟

— مر إلى الخارث بن هشام وزهير بن أمية مستجيرين لى فأحرتهما .

فقال عليه السلام وهو يادى الشر :

— أحرنا من أحررت وأما من أمنت فلا نقتلهما .

ولما ذكر ذلك لابن عباس قال :

— إني كنت أمر على هذه الآية : « يسبح بالعشى والإشراق »^(١)

فأقول : صلاة ، صلاة الإشراق ، فما عرفت صلاة الإشراق إلا الساعة .

وأسلمت أم هانئ وانطلق عليه السلام إلى بيتها فقال لها :

— هل عندك من طعام نأكله ؟

فقالت فى استحياء :

— ليس عدى إلا كسر يابسة وأنا أستحي أن أقدمها إليك .

— هلمى بهن .

فكسرن فى ماء وجاعت بملح فقال :

— هل من آدم ؟

— ما عدى يا رسول الله إلا شيء من حل .

— هلميه .

فصبه القائد المظفر والفتاح العظيم على الكسر وأكل منه ثم حمد الله ، ولا جرم فهو خير البشر ، أسوة الإنسانية الحسة ، رسول رب العالمين .

وخرج رسول الله ﷺ ، إلى المسجد ، فجاءه عمير بن وهب فقال :
— يا بى الله صفوان سيد قومي قد هرب ليقذف نفسه في البحر فأمنه ،
فإنك أمنت الأحمر والأسود .

— دونك ابن عمك فهو آمن .

— أعطني آية يعرف بها أمانك .

فأعطى — ﷺ — لعمير عمامته التي دخل بها مكة ، فأنطلق عمير على ظهر راحلته يقد السير إلى مرفأ مكة فلحقه وهو يريد أن يركب البحر ، فلما رآه صفوان بن أمية قال له :

— اغرب عني ، لا تكلمني .

— أي صفوان فداك أي وأمي ، جئتك من بعد أفصل الناس وأبر الناس وأحلم الناس وخير الناس وابن عمك ، عره عزك وشرفه شرفك ومكه ملكك .

— إني أخاف على نفسي .

— هو أحلم من ذلك وأكرم .

فرجع معه حتى وقف على رسول الله — ﷺ — وقال :

— إن هذا يزعم أنك أمتني .

— صدق .

— يا رسول الله أمهلني بالخيار شهرين .

إن الله يقول : لا إكراه في الدين ^(١) . وإن رسول الله — ﷺ —

لأحق الناس باتباع أوامر ربه فقال :

— أنت بالخيار أربعة أشهر .

وكانت الصحابة أحرص شيء على قتل وحشى ، فإنهم ليذكرون قول رسول الله — ﷺ — يوم أحد لما وقف على جثة حمزة : ما وقفت موقفا أغيظ لى من هذا . فراحوا يقتفون أثر وحشى ولكنه تمكن من الفرار إلى الطائف .

وحلس رسول الله — ﷺ — على الصفا يبايع الناس . فجاء الكبار والصغار والرجال والنساء يبايعهم على الإسلام ، ودكرات أيام الإسلام الأولى تطوف بالأذهان . كان بيت الأرقم قائما على الصفا وكان الذين يربعون في الإسلام ينسلون إلى ذلك البيت ليقابلوا رسول الله — ﷺ — مستخفين من أعين الناس خشية بطش سادات قريش ، فأين الأمس من اليوم ؟ مع بقي حيا من أشرف قريش أعلن إسلامه أو جاء يلتمس الأمان . وتحركت الأكس بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ودخل الناس في دين الله أفواجا . وجاء — ﷺ — رجل فأحدثه الرعدة ، فقال له — ﷺ :

— هون عليك فإنى لست مملك . إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل

القديد .

وتقدم معاوية بن أبى سفيان ليبايع نبي الإسلام عليه السلام ، فقد وقع الإسلام في قلبه لما كان عام الحديبية فذكر ذلك لأمه هذنت عتبة ، فقلت له :

— إياك أن تحالف أناك فيقطع عنك القوت .

لم يكن أول من تفتح قلبه للإسلام في بيت أبى سفيان ، فأما حية قد سفته

وأعلنت إسلامها وأكرمها الله فصارت أما للمؤمنين ، فأسلم وأحفى إسلامه فقال له يوماً أبو سفيان وكأنه شعر بإسلامه : أخوك حير منك ، هو على ديني .

ولما كان يوم الفتح أظهر إسلامه ولقى رسول الله — ﷺ — فرحب به ، وجاء عبد الله بن الزبير وكان ممن يؤدي رسول الله — ﷺ — أشد الأذى ، فأسلم واعتذر إلى رسول الله — ﷺ — فقبل عذره ، وكان شاعراً محمداً فقال يمدح رسول الله — ﷺ — :

منع الرقاد بلابل وهموم	والليل معتلج الرواق هيم ^(١)
مما أنساني أن أحمداً لأمسي	فيه فبت كأتسى محموم
يا خير من حملت على أوصالها	عيرانه سرح اليمين غشوم ^(٢)
إني لمعتذر إليك من الذي	أسديت إذ أنا في الضلال أهيم
أيام تأمرى بأغوى خطية	سهم وتأمرنى بها مخزوم
وأمد أسباب الردى ويقودنى	أمر الغواية . وأمرهم مشوم
فاليوم آمن بالئنسى محمد	قبيى ومخطيء هذه محروم
مضت العداوة وانقضت أسبابها	ودعت أواصر ^(٣) يسنا وحلوم ^(٤)
فاغفر قدى لك والداى كلاهما	وارحم فإنك راحم مرحوم
وعليك من ممة المليك علامة	نور أغر وخاتم محتوم
أعطاك بعد محبة برهانه	شرفاً وبرهان إلاله عظيم

(١) معتلج الرواق هيم : شديد الظلام أسود .

(٢) العيرانة من الإبل : الشديدة الشيعة . سرح اليمين : سوتها عشوه لا يشيها عن مرادها شيء .

(٣) الأواصر : الصلوات .

(٤) الحلوم : العقول .

فرغ رسول الله ﷺ — من بيعه الرجال فراح يبايع النساء ، وفيهن
هديت عنة متقبة متكررة خوفا من رسول الله ﷺ . فلما دئبن من
رسول الله ﷺ — قال هن :

— يا يعسى على أن لا تشركن بالله شيئا ولا تسرقن .

فقالته هند بنت عتبة :

— والله أن كنت أصيب من مال أئى سفيان الهمة^(١) بعد الهمة وما كنت
أدرى أكان ذلك حلالا أم لا .

فقال أبو سفيان وكان حاضرا :

— أما ما أصبت فيما مضى فأئت منه في حل ، عما الله عليك .

فضحك النبي وعرفها فقال لها :

— وإنك لهديت عنة .

— نعم دعف عما سيف ، عما الله عليك يا سى الله .

ثم كشفت عن بقائها فقال عليه السلام :

— مرحبا بك .

ثم راح عليه السلام يقول :

— ولا تترين .

(١) الهمة : الشيء اليسير .

فقلت هند :

— أوتزنى الحرة يا رسول الله ؟!

— ولا تقتلن أولادك .

قالت هند :

— ربناهم صابرا وفتنهم كبارا !

فضحك عمر وتبسم . — عليه السلام — ثم قال :

— ولا تأتين بهتان^(١) تنفريه .

قالت هند :

— والله إن إتيان الهتان لقيح ، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق .

— ولا تعصينى فى معروف .

فقلت هند :

— والله ما جلتا محسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى معروف .

وقالت بعض السوء :

— ما هذا المعروف الذى لا يبغى أن نعصيك فيه ؟

— لا تسخن ولا تحمسن وجهها ولا تشدد شعرا ولا تحلقن شعرا ولا تحرقن قرنا

ولا تشققن جيبا^(٢) ولا تدعين بالويل .

وفرغ رسول الله — عليه السلام — من بيعة النساء ولم يضافههن بل غمس يده فى إماء

وأمرهن فغمس أيديهن ، فكانت هذه البيعة .

وراح — عليه السلام — يطر إلى مكة وهو متفرح فى الله ثم قال :

— هذا ما وعدنى ربي .

(١) الهتان : الشيطان

(٢) الخيب : فتحة الصدر من الثميص

ثم قرأ : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخولون في دين الله أفواجا ﴾ مسح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴿ (١) .

وعاد رسول الله — ﷺ — إلى قنينة وجلس بين نسائه أم سلمة وميمونة ونساء من بني عبد المطلب ، فإذا بمولاة همد بنت عتبة تستأذن فأذن لها ، فدخلت عليه — ﷺ — بهدية هي جديان مشويان فقالت له :

— إن مولاتي تعتذر إليك وتقول إن غنمها اليوم لقليل الوالدة .

— اللهم بارك لكم في عمكم وأكثر والدتها .

وحاءت إليه همد بنت عتبة علوة الأمس القريب مشرحة الصدر تستغني ، قالت :

— يا رسول الله إن أبا سفيان رجل ممسك . فهل علي من حرج أن أطعم من الذي له عيالنا ؟

— لا عليك أن تطعمهم بالمعروف .

وسار الحارث بن هشام في مكة — بعد أن أحارته أم هانئ وأحاز رسول الله حوارها — يتلفت ، إنه يحشى بطش عمر بن الخطاب . وبلغ المسجد فحس به وإذا به يرى عمر مقلًا فيحقق قلبه ويرتحف من الرأس إلى القدم . ولكن عمر يمر عليه وهو حالس فلا يتعرض له فيستشعر راحة . ثم يهص ويسر بين المسلمين وهو آمن بأمان رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — .

وطافت بذهبه مواقفه في كل موطن مع المشركين فإذا بمحمل بغمره . إنه أدى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — أشد الأذى وقد صفح عنه الصبح الكريم وأحاره لأن أم هانئ قد أحارته . إنه لعلى خلق عظيم . وأثرت

في نفس الخارث مكارم أخلاق سبي الإسلام عليه السلام فإذا به يبرأ من أمراض قلبه ، وإذا بأنوار تشرق في وحدانه ، وإذا به ينطلق في الحرم كالمسحور .
ولقيه وهو داخل المسجد ، فلقيه صلوات الله وسلامه عليه باليشر ، فوقف عليه السلام حتى جاءه مسلم عليه فأحس الخارث روحه فهو إلى الرسول ﷺ — وقفه يمثل بأنوار اليقين ، فيطلق لسانه بشهادة الحق وفي الصدر بشرح وفي عييه دموع ، فقال له عليه السلام :

— الحمد لله الذي هدانا لهذا . ما كنا مثلك يحفل الإسلام .

والنقى حسام بن ثابت بالخارث بن هشام فإذا بالذكريات تنظف برأسيهما . إن الخارث بن هشام قد هرب يوم بدر عن أخيه أبي جهل فعيره حسام بفراشه ، فاعتذر الخارث بن هشام عن ذلك بقوله :

الله يعلم ما تركت قتالهم حتى رموا مهري بأشقر مزبد^(١)

وعصمت أبي إن أقتل واحدا أقتل ولا يصبر عدوي مشهدي

فصدفت عنهم والأحبة فيهم طمعا ثم بعقاب يوم مرصد

حس الخارث الفرار يوم بدر ورغم أنه أعرض عنهم لطمعه في أن يعقب الله له يوما يرصد الشرهم ويمكهم بهم ، وما دار بخده أن الله أنقاه ليخرج دات يوم في رمى عمر إلى الشام من مكة بأهله وماله محمدا ، وأن أهل مكة سيتعونه ليكون فريق ويكي ويقول :

— أما لو كنا بسندل دارا بدرا نأو حارا بخارنا ما رأينا بكم بدلا ، وإياها

القلعة إلى الله .

(١) يريد بأشقر مزبد : نرمد لندى علاه الزبد

وما خطر له على قلب أنه سيموت شهيدا يوم الترموك ليحيى عذره في عليين .

وحاء النبي — ﷺ — عبد الله بن السائب بن أبي السائب ، وكان شريكا له في الجاهلية ، فقال له :
— مرحبا بأخي وشريكي .

فأخذ عثمان وغيره يشور عليه ، فقال لهم — صلوات الله وسلامه عليه — :

— لا تعلموني به كان صاحبي ، كان لا يدارى ولا يمارى .
وانتفت إليه — صلوات الله وسلامه عليه — وقال :
— قد كنت تعمل أعمالا في الجاهلية لا تنقل منك ، وهي اليوم تنقل منك .

وكان سهيل بن عمرو قد احتسأ مع المختش فراسل وليده عبد الله ليأخذ منه — ﷺ — فقل :

— يا رسول الله أتى بزمه .
— نعم ، فهو من الله فبصبر .
ثم قال رسول الله — ﷺ — من حوائه :
— من أتى سهيل بن عمرو فلا يحد إليه السطر . فلعمري إن سهيلا له عقل وشرف وما مثل سهيل يجهل الإسلام .

فخرج به عبد الله إليه فأخبره بمقالة رسول الله — ﷺ — فقال سهيل :
— كان والله بر صغيرا كبيرا كبير .

فرح سهيل بن عمرو بقتل ويسر دون أن يتعرض له أحد أن لم يدخل الإسلام . فمذبه — ﷺ — الخميس حبت فيه أعداء الأمس حتى الدين

لم يؤمنوا بدينه ، وشرحت بهاشته صدور الدين في قلوبهم مرض للإسلام ،
فقد حدث فضالة بن عمير بن الملوح نفسه بقتل النبي — ﷺ — وهو
يطوف بالبيت ، فلما دأب ما رسول الله ﷺ — قال :
— يا فضالة .

— نعم يا رسول الله .

— ماذا كنت تحدث به نفسك ؟

— لا شيء . كنت أذكر الله .

فضحك النبي ثم استغفر له ، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه . فوالله
ما رفع يده عن صدره حتى ما خلق الله شيئا أحب إليه منه .
وقد هم حويطب بن عبد العري العامري بالإسلام أكثر من مرة ، كل
ذلك يعوقه الحكم وينهاه ويقول له :

— تضع شرفك وتدع دين آبائك لدين محدث وتصير تابعاً ؟

وما بقي من قريش أحد من كبرائها الذين بقوا على دين قومهم كان أكره
لما هو عليه منه ، فأقام بمكة وقريش تسلم رجلاً رجلاً . فمما كان يوم أحدية
حضر وشهد الصلح ومشى فيه حتى تم وكل ذلك يريد الإسلام وبأنى الله عز
وجل إلا ما يريد .

فلما كتب الصلح كان أحد شهوده وقال :

— لا ترى قريش من محمد — ﷺ — إلا ما يسوؤها .

ودخل رسول الله — ﷺ — مكة ، فحاف حويطب على نفسه خوفاً
شديداً فخرج من بيته وفرق عياله في مواضع يأمنون فيها ، ثم انتهى إلى بستان
عوف وكان فيه فاداً به يحد أباً در العماري وجهاً لوجه وكانت بيته وبه
حبة ، والحبة أبداً نافعة . فمما رآه هرب منه فقال أبو در :

— أبا محمد .

— ليك .

— مالك ؟

— الخوف .

— لا خوف عليك . تعال أنت آمن بأمان الله جل وعز .

فرجع إليه وسلم عليه ، فقال أبو ذر :

— اذهب إلى منزلك .

— هل لي سبيل إلى منزلي ؟ والله ما أراي أصل إلى بيتي حيا حتى ألقى

فأقتل أو يدخل علي منزلي فأقتل وإن عبالى لى موضع شئ .

— فاجمع عيالك في موضع وأنا أبلغ معك منزلك .

فبلغ معه وجعل يبادى على بابه :

— إن حويطب آمن فلا يبيع .

واصرف أبو ذر إلى رسول الله — ﷺ — فأخبره ، فقال عليه السلام :

— أوليس قد أما الناس كلهم إلا من أمرت بقتله ؟

فاطمأن حويطب ورد عياله إلى مواضعهم ، وعاد إليه أبو ذر فقال :

— يا أبا محمد ، حتى متى وإلى متى ؟ قد سبقت في المواضع كلها وفانك

حير كثير وبقى خير كثير . فأنت رسول الله فأسلم تسلم . رسول الله أبر

الناس وأحلم الناس وأوصل الناس ، شرفه شرفك وعزه عزك .

— فأننا أخرج معك فآتيه .

فخرج مع أبي ذر حتى أتى رسول الله — ﷺ — بالضحاء وعده أبو

بكر وعمر ، فوقف على رأسه وسأل أبا ذر :

— كيف يقال إذا سلم عليه ؟

— قل . السلام عليك أيها السى ورحمة الله .

فقالها ، فقال عليه السلام :

— وعليك السلام . أحريطب ؟

— أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— الحمد لله الذى هدانا لهذا .

وسر رسول الله — ﷺ — بإسلامه

وبامت مكة أول ليلة فى أحضان الإسلام ، فلما كان العد من يوم الفتح عدت حراة على رجل من هذيل قتلوه وهو مشرك ، فقام رسول الله — ﷺ — خطيباً بعد الظهر مسداً ظهره إلى الكعبة ، فحمد الله وأثنى عليه وقال :

— أيها الناس إن الله تعالى قد حرّم مكة يوم خلق السماوات والأرض ويوم خلق الشمس والقمر ووضع هذين الحيين ، فهى حرام إن يوم القيامة ، فلا يحل لأمرىء يؤمن بالله واليوم الآخر يسلط فيها دماً ولا يعصد فيها شجرة . ولم تحل لأحد كان قبلى ولن تحل لأحد يكون بعدى . ولم تحل لي إلا هذه الساعة عصا على أهنها . ألا قدرحت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد منكم العائب ، فمن قال لكم : إن رسول الله قد قاتل فيها فقولوا له : إن الله قد أحلها لرسوله ولم يحلها لكم .

يا معشر حراة رفعوا أيديكم عن لقتل فقد كثر الفتن ، فمن قتل بعد مقامى هذا فأهله تخير الطريق : إن شاءوا قدم قاتله ، وإن شاءوا فعقنه

ثم ودى رسول الله — ﷺ — ذلك الرجل الذى قتلته حراة وهو س الأقرع الهدنى من سى بكر ، فإنه دخل مكة وهو على شركه فعرفته حراة

فأحاطوا به فطعمه منهم خراش بمصال في بطنه حتى قتلوه ، فلامه — ﷺ — وقال :

— لو كنت قاتلا مسدما بكافر لقتلت خراشا .

ونادى منادى رسول الله — ﷺ — بمكة :

— من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنفا إلا كسره .

فقام الناس إلى الأصنام التي كانت في الدور فراعوا عليها باليمين فتركوها جثثا^(١) . وعمدت همد بنت عتبة إلى صمم كان في بيتها وجعلت تضربه بالقدوم وتقول :

— كنا ملك في غرور

(١) جثثا : الحث : النقص ، وتركوها جثثا : تركوها محطمة

كان — ﷺ — متكئا على حصيرة في القبة التي ضربت له بالحجون بعد أن جاء نصر الله والفتح وتطهر أول بيت وضع للناس ليكون مآرة التوحيد من أوثان الشرك وأصنام الضلال ، وتحمرت مكة من الخوف والقلق والفراع ، وغمرها نور إلهي ملأ صدور الناس اشراحا وأفئدتهم هدوئا وفتح أمام أعينهم آمالا ، فقد باتت سعادة الدارين حقيقة ملموسة ، ففى الأرض عزة وفى السماء خلود .

وكان — ﷺ — فى قمة انتصاراته ، فقد فتحت مكة أبواب طوعا أو كرها لاستقباله ، وهرع إليه أعداء الأمس يعسول شهادة الحق ، وصنوا حنقه لله وحده بعد أن حطموا آلهتهم بأيديهم . إن كفاح السنين قد توح بالنصر المبين ، فلم يعبر ذلك النصر من طباع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عليه — بل راده تواضعا لله رب العالمين .

إنه مع الله يعيش بالله وفى الله ، يرجو رحمة الله ويتقى الله ويتبع رضوان الله ويتوكل على الله ولا يتبع أهواء الناس ، حسبه الله يتعنى فيما آتاه الله الدار الآخرة ، فوقع أجره على الله ففتح له فتحا مبين وعمر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وأتم نعمته عليه وهذا صراطا مستقيما وبصره الله نصرا عزيزا .

وراح عليه السلام يستنشق عير مكة والذكريات تحبش فى رأسه وقد امتلأ حينا إلى أيام رسالته الأولى . إنه ليدكر حديجة أم المؤمنين حاضرة الإسلام من صدقته لما كذبه الناس وواسته لما عرت المواساة وكانت له وزير صدق على

الدوام فهو ي فؤاده إليها . إنها ترقد خلفه في المعلاة وإنه ليستشعر رغبة في زيارة قبرها لتشاركه مرحلة الانتصار كما شاركته آلام الاضطهاد وقسوة التعذيب . ليثا كانت في هذه الدحلة الحاسمة إلى جواره تشرف على مكة وقد رقدت هاتكة قريرة العين في أحضان الإسلام .

وانتابته رقة ففرت من عينه دمعاً ، فما فارقت دهنه صورة حديجة سيدة نساء قريش في أيام الشدة وفي أيام الرحاء ، فقد كان يحس إلى مواساتها إذا ما دهنه الأحداث ، ويتمنى أن تكون معه لتقاسمه أفراحه إذا ما جاء نصر الله . إنها في ضميره على الدوام وإن غضبته لما أرادت عائشة أن تنفس عن غيرها من طول ذكره لحاضرة الإسلام بالخير لمي سر قلبه الذي لم يحب حبه أبداً : « والله ما أبدلى حيراً ما ، آمت بي حين كفر الناس ، وصدقني إذ كدبني الناس ، وواستى بماها إذ حرمي الناس . وررقتي منها الولد دون غيرها من النساء » . وخرج عليه السلام من القبة التي ضربت له بالخجوج وسار إلى المعلاة حيث ترقد حديجة منذ ذلك اليوم الذي لا ينساه . إنه عاد إلى الدار بعد أن خلعت من كانت له ورير صدق على الدوام وقد نال منه الكفار وثروا على رأسه التراب فلم يجد من يشكو إليها ، فسح الدموع على العالية التي كانت تمسح بحاتها الآلام ، كل الآلام .

وبلع المعلاة ووقف على قبرها يقرئها السلام ، وإذا بأحداث الأيام الأولى تطوف بذهبه فيرى نفسه وهو يعدو مفروعا من عار حراء بعد أن انصرف عنه جبريل الأمين حتى أتاه مجلس إلى محذاه ملتصقا ، وسرى في وجداه حديثه الذي حدثها به فإذا بصوتها الرقيق الذي كان يلسم وكان العراء وكان التصديق والتأييد يبعث لكأما كان نص الحياة : « أشير يا بن عم وائست ، فو لدى نص حديجة بيده إلى لأرجو أن تكون سي هذه الأمة » .

إنه يراها وهى تجمع عليها ثيابها ثم تطلق إلى ورقة بن نوفل ، وإنه ليسمع رويتها عن ورقة : قدوس قدوس ! والذى نفس ورقة بيده لئن كست صدقتنى يا حديجة لقد جاءه الباموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وإنه لى هذه الأمة ، فقولى له فليثبت . ورأى نفسه وهو يطوف بالكعبة وقد لقيه ورقة بن نوفل ، وسمع من وراء السنين قول ورقة : والذى نفسى بيده إنك لى هذه الأمة ، ولقد جاءك الباموس الأكبر الذى جاء موسى ، ولتكذبه وتؤديه وتخرجه وتقاتله ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأبصرن الله بصرا يعلمه .

ومن ذاكرته قول جريرل : « أقرىء حديجة السلام من رها » . فأتى أُمّ القريء إجلال ، وراد وجهه لما تذكر جوابها : « الله السلام ومنه السلام وعلى جريرل السلام » ، واثالت على رأسه الذكريات فرأى حديجة فى أيام الحصار فى شعب أبى طالب ، فلولاها هلك الناس ، فحكيم بن حرام كان يبعث إلى المحصورين بقمح إكراما لعمته حديجة . إنها صلت إلى حوارته تحفى آلام الجوع حتى رفع الحصار وقد أوشكت على الوار دون أن تغفل من بين شفتيها كلمة تذر أو استياء . أنفقت أموالها فى سبيل الله ورسوله عن طيب خاطر ، وهجرت الترف راضية النفس ، ولم تسأله يوما العقبة كما فعلت سائرهن من بعدها ، إنها وحدها الحية وما استنطاعت أخرى أن ترححها عن قلبه وإن طال عهد الفراق .

وتحايست له فلادتها هارت فى نفسه مشاعر رفيقة ، إنها أهدتها إلى استهما ريب ليلة زفافها ، وقد بعثت بها ريب إلى المدينة عقب هزيمة المشركين فى بدر لتفدى بها روحها الأسير . فما إن رأى الفلادة حتى امتلأ فؤاده شحوا وشحوا وحييا وقال وقد رق لها رقة شديدة إن رأيتم أن تطبقوها أسيرها

وتردوا عليها ما لها فافعلوا .

إنها كانت تعد العاص بن الربيع عملة ولدها فكان عليه السلام يكرمه
إكراما ها ، وقد فرح بإسلامه وتمنى لو أن الظاهرة أم المؤمنين قد شهدت
إسلام ابن أختها الحبيب . وإن نفسه لتفتتح لكل ما تفتحت له نفس حديجة ،
وإنه ليحب كل من أحت . وإنه ليذكر ذلك اليوم الذي أقبلت فيه أختها هالة
إلى المدينة ، إنه سمع صوتها في ماء داره وكان يشبه صوت حديجة فانتفض
وقال في وجد : « اللهم هالة ! » .

وهب سيم الشتاء باردا على وجهه — صلوات الله وسلامه عليه ، فأفاق
من الذكريات الحطات ثم دار على عقيقه وانطلق إلى مكة . ومالئ أن احتلت
صورة اسلمة الأولى أقطار رأسه فإذا به يسير إلى مكان مولده يسوق الليل ،
ورح يربو إلى دار أبيه عبد الله في حب وأسى ، فأب عمه عقيل بن أبي طالب
أحد بيت عبد الله ما هاجر عليه السلام إلى المدينة ، فلم يعد له دار في أم القرى
أحب أرض الله إليه .

ومد يصره بن در أبي طالب فتذكر يوم مات جده عبد المطلب ويوم
احتضنه فيه أعمامه ، ويوم انتقل وهو كبير لنواد من بيت جده إلى بيت
سبه . وترقرقت في عيبه دموع لما طفت بدهه فاضمة ست أسد امرأة عمه
وهي نحو عنه تمسح برفها آلام ينمه : إنه لا يسى عصف اساع لدى
عمرته . وقد برل معها في قهرها وأنسها قميصه وقد أحس أنه فقد الأمومة
ربوومة مرتين . مرة في الأنواء لما ماتت أمه آمنة ست وهب بين يديه . ومرة
أخرى لما فاضت روح فاضمة ست أسد أم ربه على وحيه .

وسر إلى رفق العطارين ووقف ساهما إلى دار حديجة أم المؤمنين ، إنه في
عده دار في الظاهرة سده ساء فريش أم مؤمن حصة الإسلام وأهل من

نحركات شفتيها بشهادة الحق . إنه في هذه الدار شهد مولد أولاده ، وقد ظل ساكنا فيها حتى هاجر إلى المدينة فأحدها عقيل بن أبي طالب .

شهدت هذه الدار آماله وآلامه وفخر شبابه ومبدأ رسالته ، هبط عليه فيها الوحي واحتبأ عبد الحجر الذي كان في دهليزها من حجارة جيرانه أبي لهب وعقبة بن أبي معيط وأبي الحكم ، إسم كانوا لا يفتشون بنقود عليه الحجارة كلما رأوه يخرج من داره فكان يختبئ من قدامهم ، حتى إذا ما انصرفوا حرح إلى الطريق فيلتقاه الصبيان بأناشيد الهجاء التي نظمها في ذمه عمرو بن العاص ، إنه قاسى كثيرا وصبر كما صبر من قبل أولو العرم من الرسل ، وقد حصى ثمره الصبر الحلوة فتحا مينا ونصرا مؤزرا .

وعاد عليه السلام إلى الحرم فطاف به سعا ثم راح يفكر ، إن أصحابه من أهل الضعف في حاجة إلى مال وقد قال لأهل مكة : ادهوا فأتم الطلقاء . إنه أطلقهم من الأسر والاسترقاق ولم يعصم منهم شيئا . فرأى أن يقتصر ما يحتاج إليه أهل الضعف من أصحابه فاستقرض — عليه السلام — من ثلاثة نفر من قريش : أحد من صفوان بن أمية خمسين ألف درهم فرّقها ، ومن عبد الله بن أبي ربيعة أربعين ألف درهم ، ومن حويطب بن عبد العزى أربعين ألف درهم فرّقها في أصحابه أهل الضعف .

وحاء إليه عليه السلام — سعد بن أبي وقاص وقد أخذ بيد ابن وليدة زمعة ، ومعه عبد بن زمعة ، فقال سعد :

— يا رسول الله هذا ابن أخي عتبة بن أبي وقاص عهد إليّ أنه انه ، قال : إذا قدمت مكة انظر ابن وليدة ابن زمعة ولدتته على فراشه .

فطر — عليه السلام — إلى ذلك الولد فإذا هو أشبهه بالناس بعتبة بن أبي وقاص ، فقال لعبد بن زمعة :

— هو أخوك يا عبد بن زمعة من أحل أنه ولد على فراش أبيك زمعة ، الولد للفراش وللعاهر^(١) الحجر .

وقال لزوجته سودة بنت زمعة ، لما رأى على بن وليدة ابن زمعة من شبه عتبة :

— احتجى به يا سودة فليس لك بأح .

وسرقت امرأة فأراد — عليه السلام — قطعها ، ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعون به ، فدما كنمه أسامة فيها تلون وجهه — عليه السلام — وقال :

— أتكلمنى فى حد من حدود الله ؟

فقال أسامة وهو يضطرب رهبة :

— استعفر لى يا رسول الله .

ثم قام — عليه السلام — خطيباً فأثنى على الله عما هو أهله ثم قال :

— أما بعد ، فإن ما أهلك الناس قتلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف

تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

(١) للعاهر : عاهر المرأة أنها ليلاً للفحور .

بعث رسول الله ﷺ — فيما حول مكة السرايا يدعو الله عز وجل ،
 وكان ممن بعث خالد بن الوليد ، فحرح خالد ومعه من قاتل العرب سليم بن
 منصور ومدلج بن مرة ، فوطئوا سى حديمة بن عامر بن عبد ماة بن كنانة ،
 فلما رآه القوم أخذوا السلاح فقال خالد :
 — صعدوا السلاح فإن الناس قد أسلموا .

فدما أمرهم خالد أن يضعوا السلاح قال رجل منهم يقال له جحدم .
 — وبكم يا سى حديمة ! إيه خالد ، والله ما بعد وضع السلاح إلا
 الإِسار ، وما بعد الإِسار إلا صرب الأعناق . والله لا أصع سلاحى أبدا .
 فأخذ به رجال من قومه فقالوا :

— يا جحدم أتريد أن تسفك دماءنا ؟ إن الناس قد أسلموا ووضعوا
 السلاح ، ووضعنا الحرب وأمين الناس فلم يرأؤا به حتى برعوا سلاحه ،
 ووضع القوم السلاح لقول خالد .

وتذكر حينما كان في الحاهية بين سى حديمة وقريش ، إن عمه العاكه
 بن امعيرة بن عبد الله بن عمر بن محروم قد حرح وعوف بن عوف بن عبد
 الحارث بن رهرة وععان بن أقي العاص بن أمية بن عبد شمس تحاروا إلى أبيهم ،
 ومع ععان ابنه عثمان ومع عوف بن عبد الرحمن ، فعد أقبلوا نحوهم ما ل رجل
 من بني حديمة بن عامر كان هفت باليمن إلى وراثته ، فادعاه رجل منهم يقال له
 خالد بن هشام ولقبهم بأرض سى حديمة قل أن حصوا إلى أهل الميت فأبوا

عليه ، فقاتلهم من معه من قومه على المال ليأخذوه وقانونه فقتل عوف بن عبد عوف والفاكه بن المعيرة ، وخاعف بن أبي العاص وابنه عثمان ، وأصابوا مال الماكة بن المعيرة ومال عوف بن عبد عوف فاضلقوا به .
وتذكر خالد أن عبد الرحمن بن عوف قتل خالد بن هشام قاتل أبيه ، وأن قريش قد همت بعرو بنى حديمة فقالت بنو حديمة :

— ما كان مصاب أصحابكم عن بلادنا ، إنما عدا عليهم قوم بحالة فأصابوهم ولم يعلم ، فحن بعقل لكم ما كان لكم قسما من دم أو مال .
فقبلت قريش ذلك ووضعوا الحرب .

ووجد خالد أن عمه الماكة بن المعيرة لم يثار له وأن بنى حديمة كلها قد أصبحت في قصة يده ، فراودته فكرة الانتقام . إنهم لم يعلموا إسلامهم ، وبينا كانت المعركة تداعب رأسه جاءه عبد الله بن حذافة السهمي وقال :
— إن رسول الله — ﷺ — قد أمرك أن تقاتلهم لامتاعهم من الإسلام .

فأمرهم خالد أن يكتفوا ثم عرضهم على سيف ، فقام إليه عبد الله بن عمر يكر عليه فعله ، فعبد الله بعزم أن لا إكراه في الدين ، فأعرض عنه خالد ، فقام إليه سالم مولى أبي حديمة يهاه ويراجعه ، ولكن خالد أمر بصرب الرقاب ، فقتل منهم وانعت رحل من القوم ليأتي رسول الله — ﷺ — .

وقال حذافة لقومه حين وضعوا السلاح ورأى ما يصنع خالد بنى حديمة :

— يا بنى حديمة صاع لضررب . قد كست حذركم ما وقعت فيه .
وكان بنى حذافة سلمى يومئذ في حين حذر بن الوليد . فقال له قتي

من بنى جذية وهو في سه وقد جمع يده إلى عنقه برمة (حل بال) ونسوة
مجمعات غير بعيد منه :

— يا فتى .

— ما تشاء ؟

— هل أنت آخذ بهذه الرمة فقائدى إلى هؤلاء النسوة حتى أفضى إليهن
حاجة ، ثم تردنى بعد فتصنع لى ما بدا لكم ؟
— والله يسير ما طلبت .

فأخذه برمته فقاد به حتى وقف عليهن . فقال لفتاة^(١) فى وجد :

— أسلمى حيش على نقد من العيش .

وراح ينشد شعرا يثنها فيه لواعج نفسه ، ثم انصرف به ابن أبى حذر
فصرت عنقه ، فقامت إليه حين صربت عنقه فأكت عليه فما رالت تقبله
حتى ماتت عنده .

وكان رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — دائما فرأى كأنه لقسم
لقمة حيس^(٢) فالتذ طعمها ، فاعترض فى حلقه منها شيء حين ابتلعها ،
فأدخل على يده فزعه ، فلما استيقظ قص رؤياه على أصحابه فقال أبو بكر
الصديق :

يا رسول الله هذه سرية من سراياك تبعثها فيأتيك منها بعض ما يحب .
ويكون فى بعضها اعتراض فتبعث عليها فيسهله .

(١) قصة عبد الله بن علقمة وذكر حبه مع حبيشة ذكرها الأصمغانى فى الجزء ٧
٢٨٠ (طبعة دار الكتب المصرية) .

(٢) الحيس : أن يحفظ لسان والتمر والأقط : شيء يعقد مع اللسان ويحفظ .

وجاء الرجل الذي اعلنت من القوم إلى رسول الله ﷺ — فأخبره ما فعل خالد ، فقال رسول الله ﷺ — :

— هل أنكر عليه أحد ؟

— نعم قد أنكر عليه رجل أبيض ربعة فزجره خالد فسكت عنه ، وأنكر عليه رجل أحر طويل مضطرب فراجعته فاشتدت مراجعتيها .

فقال عمر بن الخطاب :

— أما الأول يا رسول الله فأنى عبد الله ، وأما الآخر فسلم مولى

حذيفة :

ثم دعا رسول الله ﷺ — على بن أبى طالب كرم الله وجهه فقال :

— يا على احرص إلى هؤلاء القوم فانظروا أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية

تحت قدميك .

فحرص على حتى حاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله ﷺ —

فودى لهم الدماء وما أصيب هم من الأموال حتى إنه ليدى لهم ميلة^(١)

الكلب ، حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلا وداه بقيت معه بقيه من

المال ، فقال لهم على كرم الله وجهه حين فرغ منهم :

— هل بقى لكم بقية من دم أو مال لم يؤد لكم ؟

— لا .

— فإني أعطيتكم هذه البقية من هذا المال احتياطا لرسول الله ﷺ —

فما لا يعلم ولا تعلمون .

(١) الميلة : شيء يحمر من الخشب ويجعل يبيع فيه الكلب

فمعل ثم رجع إلى رسول الله ﷺ — فأحبره الخبر ، فقال :
— أصبت وأحسن .

ثم قام رسول الله ﷺ — فاستقبل القلة قائما شاهرا يديه ، حتى
ليرى ما تحت منكميه يقول :

— اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد .

وأقل عبد الله بن عمر على أبيه يقص عليه ما كان من أمر خالد ، فسأ ابن
الخطاب ما كان من ابن الوليد وبذرت في قلب عمر بن الخطاب بذرة كراهية
ما يفعل خالد من أمر الجاهلية ، وسممو هذه البذرة على مر الأيام حتى يعزل
عمر خالد بن الوليد وهو في قمة مجده .

وكان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام في ذلك ، فقال
له عبد الرحمن بن عوف :

— عملت بأمر الجاهلية في الإسلام .

فقال له خالد :

— إنما تأرت بأبيك .

فقال عبد الرحمن .

— كذبت ، قد قتلت قاتل أبي ولكك تأرت بعمك العاكه بن المعيرة .

واشتد الجدل بينهما ، وانضم عمر بن الخطاب إلى عبد الرحمن بن عوف

فلعن رسول الله ﷺ — فقال :

— مهلا يا خالد دع عنك أصحابي ، هو الله لو كان لك أحد ذهبا ثم أنفقت

في سبيل الله ما أدركت غدوة رحل من أصحابي ولا روحته

وحسب عمر أن رسول الله ﷺ — لن يستعمل حالدا بعدما عمل

بأمر الجاهلية في الإسلام ، ولكن رسول الله ﷺ — عيه السلام كان يعزم أن

حالدًا قريب عهد بالخاهدية ولكنه سيف من سيوف الله المسولة ، فعنه إلى
 العزى وكانت بحلة ، وكانت إلهة ترمز إلى كوكب الصباح وكان لها بيت
 يعظمه هذا الحى من قریش وكتابة ومصر كلها ، وكانت سدنتها وحجابها
 بنى شيان من بنى سليم حلفاء بنى هاشم ، فلما سمع صاحبها السمنى عسير
 خالد إليها عنق عليها السيف ورتفع فى الخيل الذى هى فيه وهو يقول :
 أيا عر شدى لا شوئى^(١) لها على خالد ألقى القناع وشمرى
 يا عر إن لم تقتلى المرء حالىدا هوئى يا ثم عاحل أو تسبرى
 فانقص عديها خالد والدين معه فهدموها وحالد يقول :
 يا عر كهرانك لا سحرانك إن رأيت الله فسد أهانك
 وقصت لمدح عبادة إيريس المصرية من بلاد العرب وإن بقيت بصورة
 أو بأحرى فى روم مسجبة ، كما قصت من قبل عبادة أولو به لشعرا
 تحظمه هل . وتظهرت الكعبة من آفة مصريين وسوريين ويونان والرومان
 التى حبها التحار العرب من تلك البلاد لما حل على الناس الأمد وقست
 قلوبهم .

(١) لا شوئى لها : لا تنق على شئ .

كان سواع على صورة امرأة . إنه تمثال حلب من أرض ما بين النهرين وكان قوم نوح يعبدونه معندته هذيل وحجت إليه وجعلت له حرارة توضع فيها كل ما يهدى إلى آلهة القوم . وكانت هذيل ككل العرب يؤمنون بالله ولكنهم كانوا يعتقدون أن آلهة الأرض تقرهم إلى إله السماء رلفى ، وكانت الأصنام والأوثان ترمز إلى الكواكب والحيوم فكان العرب يقولون إنها بنات الله !
 جاء نوح ليدعو إلى عبادة الله وحده ، ثم طأ على الناس الأمد وقست قلوبهم وعادوا إلى اتحاد الأصنام آلهة تشفع لهم عند الله ، فأطلقوا على تمثال امرأة اسم سواع بن نوح كأنما يأبى الشر إلا أن يحبل أئمة لتوحيدى رموز الشرك والفسوق .

وخاتم لرسول الله ﷺ — فتح مكة أرسل عليه السلام عمرو بن العاص في جماعة من أصحابه إلى سواع ليكسره ويهدم محله ، فأتته إلى ذلك النصب وعنده سادته ، فلما رأى عمرو بن العاص والذين معه أو حس منهم خيفة ، وقال لعمرو :

— ما تريد ؟

فقال عمرو :

— أمرنى رسول الله ﷺ — أن أهدمه .

فراح الساد يتنصت في رعب . أين عباد سواع الذين كانوا يهرعون إليه حاشعين ؟! أين الذين كانوا يأتون إليها مهضعين مسبي ؟! أين الذين كانوا

يسألونها حاشعين ؟ أين هذيل وأين صناديدها ؟
واستأثس السادن من القوم ، إنهم تحلوا عن آلهتهم فهل يتخلى عنها أبوها
الذى فى السموات ، فراح يرنو إلى الصنم فى رجاء ثم يرفع بصره إلى السماء .
وأحس عمرو بن العاص يتقدم إلى الصنم وفى يده المعول فقال السادن وهو
مرعوب : ما تريد ؟

— أن أهدمه .

— لا تقدر .

— لم ؟

— تُسمع .

فرماه عمرو بنظرة اردراء وقال :

— حتى الآن أنت على الباطل ؟ وهل يسمع أو يبصر ؟!

فدعا عمرو منه فكسره وأمر أصحابه فهدموا بيت حزائنه فدم يحدوا شيئاً ،
فطر عمرو إلى السادن نظرة اتهام فأطرق الرجل حياء ، ثم رفع رأسه ودار
حوار به وبين عمرو ، وعمرو يشرح مبادئ الإسلام وصدر الرجل يشرح
للإسلام ، حتى إذا ما رأى عمرو أنوار اليقين تتلألأ فى وجه الرجل قال له :
— كيف رأيت ؟

قال السادن فى إيمان :

— أسلمت لله .

وأرسل رسول الله — ﷺ — سعد بن زيد الأشهلى فى عشرين فارساً إلى
صمم مائة ليهدم محله ، فلما وصلوا إلى الصنم قال السادن لسعد :

— ما تريد ؟

فقال سعد بن زيد فى ثبات :

— هدم مناة .

وأحسن السادن كان الأرض قد زلزلت تحت قدميه ، أبقي مكنوف
البدن وهو يرى هدم رمز الآلهة ؟ إن سادات الأوس والخزرج كانوا يحجون
إلى هذا الحرم وكانوا يذبحون عده وكانوا يمضون أياما في عبادة وحشوع
وانتهال لمساء بعد عودتهم من الحج . وما كانت مراسم الحج تتم إلا بالطواف
حول الصنم .

إنه ليذكر أول يوم سمع فيه ذكر مناة بسوء في قرآن محمد ، جاء أحد الذين
اعتنقوا الإسلام ورتل أمامه : « أفريتم اللات والعزى . ومناة الثالثة
الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذا قسمة صبرى . إن هي إلا أسماء
سميتموها أنتم وآباؤكم ما أوّل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى
الأبصار ولقد جاءهم من ربهم الهدى »^(١) . فانتفض غصبا وصاق بتسكت
السحرية اللادعة سات الله ، وانتظر أن تهوى قارعة من السماء تصيب
الصنم الذى سفه أحلام الآباء وسب الآلهة ولكن الأيام راحت تمر وذلك
الصنم يتنقل من نصر إلى نصر حتى أرسل أتباعه ليقوضوا الصنم المعبود :
أترك السماء هؤلاء العابثين دون عقاب ؟!

ووقف أمام الصنم وحده ليصد عنه كيد المسلمين ، ولكنه كان أهون من
أن يحول بينهم وبين مناة . إنه ضعيف قد حاول أن يدافع عن إلهة الخط واموت
قدر طاقته ، ولكن الرجال كانوا أقوى منه فحوه عن طريقهم ، فقال لسعد
ابن زيد وهو يتقدم لهدم مناة :

— أنت وذاك .

(١) الحج ١٩ — ٢٣ .

والتفت إلى الصنم وقال في إيمان :

— مناة دونك بعض صبيانك .

فهوى سعد بن زيد الأشهلي بالمعول على الصنم وراح أصحابه يعاونونه ،
والسادن يطر وهو يكاد أن يموت رعا . وتناثرت الحجارة هنا وهناك
والسادن يتمرق من الحزن ويتلوى من الألم قد دهمت نفسه شعاعا ، ففي
لحظة اندك إيمانه وأصبح قلبه هواء .

واصرف سعد بن زيد الأشهلي والذين معه من المرسان مستشربين يبا
وقف السادن تلفت في شروده وهو يستشعر فراغا ، قد ترك وحيدا في وادي
الضباع .

وقع الرعب في قلب رجال هوارن وثقيف لما فتح الله على رسوله مكة ،
وخشوا أن يسير بحيشه إليهم ، فمضى أشراف هوارن وثقيف بعضهم إلى
بعض وقالوا :

— قد فرغ لنا فلا ناهية .

فطخوا إلى أنه لم يعد هاك مانع له — عليه السلام — دوسهم ، فراحوا يحشدون
الجموع ويقولون :

— والله إن محمدا وصحبه لاقوا أقواما لا يحسون القتال .

وراحت القنائل تنأهب لقتال ، وخرجت قبيلة بني سعد بن بكر وهم
الذين كان رسول الله — صوات الله وسلامه عليه — مسترصعا فيهم لتضع
نفسها تحت إمرة مالك بن عوف النصري ، وكان إليه جماع أمر الناس .
وكان دريد بن الصمة فارس هوارن وسيد بني حشم لا يزال على دين
قومه . إنه كان حليف بني سليم وكان قد رأى الحساء فأعجبته فذهب إلى
أبيها فخطبها إليه . فقال له أبوها :

— مرحبا بك أبا قره ، إنك لكريم لا يطعن في حسبه والسيد لا يرد عن
حاجته والفحل لا يقرع أمه . ولكن هذه المرأة في نفسها ما ليس بغيرها وأنا
ذاكرتك لها وهي فاعلة .

ثم دخل إليها وقال :

— يا حسناء أناك فارس هوارن وسيد بني حشم دريد بن الصمة يحطبك

وهو من تعلمين .

فقلت :

— يا أبت أتراني تاركة بي عمي مثل عوالي الرماح . وناكحة شيخ بني
جشم هامة^(١) اليوم أو غد ؟!

فخرح إليه أبوها فقال :

— يا أبا قرة قد امتعت ، ولعلها أن تحب فيما بعد .

فقال :

— قد سمعت قولكما .

كان ذلك من سبي ، ولكن دريد بن الصمة لم يستطع أن يسي يوما أن
الخصاء قد رفضته رعبا عن علوشائه وكثرة ماله وعلو ذكره . وقد كان بين
هوازن وبني سليم حلف وقد دحيت سو سليم في الإسلام ، فخرح دريد
ليحضر حرب المسلمين لعله يثأر من الإهانة التي لحقته مذر فضت الخساء أن
تقبله روجا ، وراحت الأبيات التي هجاها بها تطوف بدهه :

وقال الله يا ابنة آل عمرو من الفتيان أمثالي وسفسي

فلا تندی ولا يكحكك مثي إذا ما ليبة طرقت بسحس

كان دريد قد عمي وصار لا يتفح إلا برأيه ومعرفة بالخرب . فسار يقوده
مرض قبه ليلتقي بمالك بن عوف الذي أمر الناس بأحد أمواهم ونسائهم
وأبائهم معهم ، فاضلق حتى نزل بأوطاس ووفاه هالك دريد بن الصمة ،
فقال دريد لناس :

(١) الهامة : طائر يزعم العرب أنه يمثل روح مقتول . ولا يزال يصيح : استقوني .
حتى يؤخذ بثأره .

— بأى واد أنتم ؟

— بأوطاس .

— نعم محال الخيل ، لا حزن^(١) ضيرس ولا سهل ذهس ، مالى أسمع رغاء

البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير ونعار الشاء وحوار البقر ؟

— ساق مالك بن عوف مع الناس أمواهم ونساءهم وأبأهم .

— أين مالك ؟

كان مالك في الثلاثين من عمره وكان دريد قد جاور المائة . إن مالكا قد

توافق معه على أن لا يخالعه فإيه قال له : إنك تقايل رجلا كريما قد أوطأ العرب

وحاقته أحجم وأحل يهود الحجار بما قتلا أو حروجا عن دل وصغار . فقال

له لا تخافك في أمر تره . فما قل : أين مالك ؟ قبل له :

— هذا مالك .

— بامالك أما بنت فصحت رئيس قومك ، وإن هذ اليوم كائن ما بعده

من أيام . مالى أسمع رغاء البعير ونهاق خمير وبكاء الصغير ونعار لشاء

وحوار البقر ؟

— سقت مع الناس أبأهم ونساءهم وأمواهم .

— ولم ؟

— أردت أن أحص حصف كل رجل أهله وماله ليقايل عنهم

فقال دريد في ضيق :

— راعى ضأن والله ، ماله ولمحرب !

(١) الحرب العظيمة من أرض ، وأخبرس شعبي . ذهس مكان سهل

ثم أشار عليه برد الدرية والأموال وقال.

— هل يرد المهرم شيء ؟! إن كانت لك لم يفعلك إلا رجل بسيفه ورمحه ،
وإن كانت عليك فصحت في أهلك ومالك . ويحك ! إنك لم تصنع بتقديم
البيضة بيضة هوارن إلى نحور الخيل شيئا . ارفعهم إلى متمتع بلادهم وعليها
فوقهم ، ثم انق الصباء (جمع صائى) على متون الخيل . فإن كانت لك لحق
بك من وراءك . وإن كانت عليك كنت قد أحررت أهلك ومالك

وساد الصمت برهة ثم قال دريد :

— ما فعلت كعب و كلب ؟

قال الناس :

— لم يشهدا منهم أحد .

فقال دريد في بأس :

— عاب الحد والجند . لو كان يوم علا ورفعة ما عابا .

و أشار عليه بأمرهم ولم يقمها مالك منه وقال :

— والله لا أضيعة ، إنك قد كثرت وصعب رأيك .

فقال دريد لهوارن :

— قد شرط مالك ألا يخالسى ، فقد خالسى فأنا أرحع إلى أهلى .

فسمعوه ، وقال مالك :

— والله لتطبعنى يا معشر هوارن أو لأتكنن على هذا السيف حتى يخرج

من صهرى .

وكره أن يكون لدريد فيها رأى أو ذكر ، قالوا :

— أضعك .

وصفت الخيل ثم الرحالة امقانة ثم صفت نساء على الإبل ثم صفت

الضم ثم صفت العم ثم قال للناس :

— إذا رأيتموني شدوا عني شدة رجل واحد .

وراح دريد ينظر إلى هوارن في حزن ثم قال :

— هذا يوم لم أشهده ولم يفتي .

ثم أنشأ يقول :

يا ليتني فيها خذع^(١) أحب فيها وأضع^(٢)

أقود وطفاء الرمع^(٣) كأنها شاة صدع^(٤)

ولما سمع رسول الله — ﷺ — بحرهم بعث إليهم عبد الله بن أبي حذرد

السلمي وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ثم يأتيه

بحرهم . فعزل ثم أقبل على رسول الله — ﷺ — فأخبره الخبر ، فدعا

رسول الله — ﷺ — عمر بن الخطاب فأخبره الخبر فقال عمر :

— كذب ابن أبي حذرد .

فقال ابن أبي حذرد :

— إن كذبتني فرجما كذبت بالحق يا عمر ، فقد كذبت من هو خير

مني .

فقال عمر في غضب :

— يا رسول الله ألا تسمع ما يقول ابن أبي حذرد ؟

— قد كنت ضالاً فهذا لك الله يا عمر .

وخرج المسلمون من مكة قد قصروا الأعداء وشحنوا الأسنة وأشعروا

(١) الخذع : الشاب .

(٢) الحب والوضع : ضربان من السير .

(٣) الوطء : طويلة الشعر . والرمع : الشعر الذي فوق مبط قيد الدابة والاشاة

(ها) . الوعل ، والصدع : من الأوعول والطاء والحمر

قلوبهم الحرة ولرموا الطاعة ، ولكن كان فيهم أناس من المؤلفة قلوبهم وأناس خرجوا للحرب ولم يدخل الإسلام قلوبهم منهم سهيل بن عمرو وصفوان بن أمية وقد خرج للقتال وما خلق الله حقاً أبغض إليه من رسول الله ﷺ . وكان قد ذكر لرسول الله ﷺ — أن عد صفوان بن أمية أدرعاً له وسلاحاً ، فأرسل إليه فقال :

— يا أمية أعزنا سلاحك هذا نلق فيه عدوياً غداً .

فقال صفوان :

— أغصبا يا محمد ؟

— بل عارية ومضمونة حتى يؤديها إليك .

— ليس بهذا بأس .

فأعطاه مائة درع مما يكسها من السلاح .

فطلب منه رسول الله ﷺ أن يكسهم جميعها ففعل .

واستعار — ﷺ — من ابن عمه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة

آلاف ربح فقال له :

— كأنى أنظر إلى رماحك هذه تقصف ظهر المشركين وكان في جيش

المسلمين عبد الله بن أفي . ربيعة وكان له عبيد من الحبشة يتصرفون في جميع

انهم وكان عددهم كثيراً ، فقبل لرسول الله ﷺ — حين خرج إلى

حين :

— هل لك في جيش بني المعرة تستعين به ؟

فقال عليه السلام :

— لا خير في الجيش . إن جاعوا سرقوا وإن شعوا رابوا ، وإن فيهم لحنتين

حسنتين : إطعام الطعام . والبأس يوم البأس .

واطلق رسول الله ﷺ — ومعه ألفان من أهل مكة مع عشرة آلاف

من أصحابه الذين خرجوا معه ففتح الله بهم مكة ، فكاوا اثني عشر ألفاً

واستعمل رسول الله ﷺ — عتاب بن أسيد بن أفي العاص بن أمية بن عبد شمس على مكة أميرا على من تحلف من الناس .

ونظر رسول الله ﷺ — إلى الجيش فإذا بالرماح رفعت حتى كادت تسد الأفق ، فقال :

— لن نغلب اليوم عن قلة .

وسار الجيش وفيه أناس حديثو عهد بالجاهلية . وكان لكفار قريش ومن سواهم من العرب سدر (شجرة البق) عاصمة حصراء يقاس لها « ذات أنواط » يأتونها كل سنة يعلقون أسلحتهم عليها ويدحجون عدها ويعكفون عليها يوما ، فرأوا وهم يسرون مع رسول الله ﷺ — سدره حصراء عظيمة فتنادوا من حنات الطريق :

— يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط .
فقال :

— الله أكبر ، قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى : « اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قل إنكم قوم تجهلون »^(١) إنها السُّس ، إنركس سنن من كان قبلكم .

وانطلق الجيش في طريق الطائف ، إن رسول الله ﷺ — قد انطلق ذات يوم هو وريده بن حارثة في نفس الطريق بعد أن ماتت حديجة وعمه أبو طالب وطرده المكيون من البلد الحرام ، إنه جاء إلى الطائف وهو يرحو أن يستحبوا بدعوته ، ويخدعهم المععة والسلام ولكهم سحر وامة ، وجلس معها وهم على حاسي الطريق يصرون قدميه بالحجارة حتى سالت مهبما

(١) آل عمران ١٣٨ .

الدعاء . إنه ناء من الألم ولكم لم يتركوه ليسترخ بل أقاموه ليرضحوا قدميه بالحجارة وصحكاتهم تتصاعد من حبات الطريق طريق الآلام وقسوة الجاهليين .

وانتهى رسول الله ﷺ — إلى مصيق حين مساء ليلة الثلاثاء لعشر حلون من شوال ، وكان على المسلمين أن يجتازوا ذلك المضيق ليصلوا إلى الوديان الخصيبة حلف حبال أوطاس حيث صف مالث بن عوف الرحال والمرسان والنساء والإبل والأعنام والمعم .

إنه مكان موحش جوايه شديدة الاحذار ، والمضيق صيق لا يسمح بتقدم جيش إلا إذا تقدم في جماعات صغيرة ، وما كان هناك مكان للفرسان ليصلوا ويحولوا في المعركة فمن جاء السحر عا رسول الله ﷺ — أصحابه وضعهم صفوفاً ووضع الأتوية والرايات في أهلها مع المهاجرين ، لواء عمله على س أنى طالت ، وراية يحميها سعد بن أبي وقاص ، وراية يحميها عمر بن حصص ، وراية يحميها حباب بن المندر ، ولواء الأوس مع أسيد بن حصير ، وفي كل فخذ من بطون الأوس والخررج لواء وراية يحميها رجل منهم مسمى ، كذلك قبائل العرب فيها الأتوية والرايات يحميها قوم منهم مسمون ، وكان رسول الله ﷺ — قد قدمه سليمان من يوم حرج من مكة واستعمل عليهم خالد بن الوليد ، فم يرل على انقدمة حتى قدم الحجرة ، واحذر رسول الله ﷺ — في وادي حين على تعنته وركب بعنه البيضاء « دُاس » وليس درعين وانقر والبيضة ، واتعه المسلمون إلى مصيق حين وهم على ثقة من أنهم لن يعلموا اليوم عن قنة .

استقبل المسلمون وادى حنين وانحدروا في واد من أودية تهامة متسع
 منحدر إنما يحذرون فيه انحدارا ، فما راعهم وهم محطون إلا الكتائب قد
 شدوا عليهم شدة رجل واحد في عماية الصبح . فإن مالک بن عوف والذين
 معه كانوا قد سبقوهم إلى الوادى وكموا لهم في شعبه وأحائه ومضايقه
 وراحوا يلقون على المسلمين الصخور من عل وأصلوهم وإبلا من يبالغ كأهم
 جراد منتشر لا يكاد يسقط لهم سهم ، ثم هجموا عليهم بغتة فأسيبهم وشمروا
 الناس راجعين لا يلوى أحد على أحد .

وقال أبو قتادة لعمر بن الخطاب في دهش :

— ما شأن الناس ؟

— أمر الله .

كان الطلقاء أهل مكة أول من هزم ، قال بعضهم لبعض :

— اخذلوه ، هذا وقته .

فانهزموا وتبعهم الناس .

واكتشفت الخيل خيل بني سليم مؤنية وتبعهم الناس منهزمين ، وانحاز

رسول الله — ﷺ — ذات اليمين وجعل يقول :

— يا أنصار الله وأنصار رسوله ، أنا عند الله ورسوله أين أيها الناس ؟ هلموا

إليّ ، أنا رسول الله . أنا محمد بن عبد الله .

وكان العاص بن عبد المطل أحد برماة بعثة رسول الله — ﷺ —

وكان امرأً جسيماً شديد الصوت ، فقال عليه السلام لما رأى الناس لا يلوون على شيء :

— يا عباس اصرخ ، يا معشر الأنصار ، يا معشر أصحاب الشجرة^(١) .

فراح صوت العباس يدوى فى حبات وادى حنين :

— يا معشر الأنصار .. يا معشر أصحاب الشجرة .

وصك صوت العباس أذنى أبى سفيان بن حرب ، فقال أبو سفيان معبراً عما فى قلبه من الصغى :

— لا تنهى هزيمتهم دون البحر .

وكانت الأزالام لا تزال معه فى كساته ، وصاح كُلدَة بن الحِجْل وهو مع أخيه صفوان بن أمية :

— ألا بطل السحر اليوم .

فقال له صفوان وهو لا يزال مشركاً فى المدة التى جعل له رسول الله — ﷺ :

— اسكت فص الله فاك فوالله لأن يرئسى (يملكنى) رجل من قريش أحب إلى من أن يرئسى رجل من هوازن .

وثبت مع رسول الله — ﷺ — من المهاجرين أبو بكر وعمر ، ومن أهل بيته على بن أبى طالب وأبو سفيان بن الحارث وابنه والفصل بن العباس وربيعه ابن الحارث وأسامة بن زيد وأيمن بن أم أيمن بن عبد .
وبلع صوت العباس مسامع الأنصار فأجابوا :

(١) شجرة الصبح وهى شجرة نى كعب عند بعة برصون (فتح مكة)

— لبيك .. ليك .

فراح الرجال يشون أعرعهم فلا يقدرّون على ذلك لكثرة الأعراب المهزّمين ، فيأخذون دروعهم فيقدّمونها في أعاقهم ويأخذون سيوفهم وتروّسهم ويقحمون عن رواحلهم وينحون سبلها ، وانصقوا إلى حيث كان رسول الله — ﷺ — كأهم الأهل قد حثت على أولادها .

وكان رحل من هوارن على حمل أحمر بيده راية سوداء في رأس رمح له ضوئل أمام هوارن وهوارن خلفه ، إذا أدرك طعن برمح ، وإذا فاته الناس رفع رمح لمن وراءه فاتبعوه .

وراحت سيوف هوارن تلعب في رقاب المنسحقين دون أن يشت ثم أحد ، فلما حتمع إلى رسول الله — ﷺ — مائة من الصابرين استنقوا الناس فاقصوا وارتح المكان بشعار المقاتلين :
— يا للأصبار .

ونصفحت سيوف واهترت الرماح وقطعت رقاب وضعت الصدور وسقطت الأجساد ، واشتد القتال وصاح المقاتلون :
— يا لنخزرج .

وكانوا صبرا عند الحرب فأشرف رسول الله — ﷺ — في ركابه ، فطر إلى محتلد لقوم وهم يحتدون فقال .
— لآ حمى الوضيس^(١) .

أب اسبي لا كبد أباس عند المضيب .

(١) وضيس معركة وصلاحه

وراح شعبة بن عثمان بن أبي طلحة يدنو من رسول الله ﷺ — وهو يقول :

— اليوم أدركت نأري من محمد ، اليوم أقتل محمداً .
وكان أبوه قتل يوم أحد ، فاستدبر رسول الله ﷺ — وهو يريد أن يقتله بعثمان بن طلحة . فأطلع الله رسوله على ما في نفسه فانتعت عليه السلام إليه وضرب في صدره وقال :
— أعيذك بالله يا شعبة .

فأرعدت فرائصه ، فظفر إليه شعبة وهو أحب إليه من سمعه وبصره فقال :
— أشهد أنك رسول الله ، وأن الله أطلعك على ما في نفسي .
و سمر دنت الرجل من هوازن صاحب نربة عن حمه لأحمد أدرك
ضعن برحمه وردا فاته الناس رفع رجمه لمن ورأيه فاتبعوه ، فقال إليه على س أنت
صائب ورجل من لأصير يريدانه ، فأتاه على من حمه فصر عرقوني حمل
موقع على عجزه ، ووثب الأبنصاري على رجل فصر به صريرة أضّ قدمه
بصف ساقه فسقط عن رجمه صريحا ، واشتد بقل في هوازن وتنت رسول
الله ﷺ — إلى أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وهو أحد
شعر^(١) أبعثه فقال .

— من هذا ؟

— أبا ابن عمك يا رسول الله .

و بشرح صدر رسول الله ﷺ ، والحدث كان لا يعرفه أحد قبل
رسالة . وقد شئت عداوته لأن عمه بعد الرسالة ، فلما أسلم كان رسول
الله ﷺ — برحوا أن يكون عوضا عن عمه حمزة . وقد صرح الحارث

(١) الشعر السمر في مؤخر شرح

في ذلك اليوم وصال وصال لإعلاء كلمة الإسلام ، كما صال وصال أسد الله وأسد رسوله من قبل .

وراح أبو سفيان بن الحارث يلعب بسببه يخثر وعوس الكافرين ، إنه يريد الموت دون ابن عمه رسول الله ورسول الله عليه السلام يطر إليه . فقال العباس :

— يا رسول الله أحوك وابن عمك أبو سفيان فارص عنه .

— غفر الله له كل عداوة عادتها .

ثم التفت عليه السلام إلى أبي سفيان بن الحارث وقال في حب :
— يا أحمى .

فقبل أبو سفيان بن الحارث رجله عليه السلام في الركاب والتفت رسول الله — ﷺ — فرأى أم سليم امرأة مسحان وكانت مع زوجها أبي طلحة وهي حارمة وسطها برد لها وإياها الحامل بعد الله من أبي طلحة ومعها حمل أبي طلحة ، وقد خشيت أن يعلبها حمل فأدبت رأسه معها فأدخلت يدها في حزامه مع الحضام ، فقال لها رسول الله — ﷺ —
— أم سليم ؟

— نعم يا أمي يا رسول الله . قل هؤلاء الذين يهرمون عث كما تقتل الذين يقاتلونك فإنهم لذلك أهل .
— أو يكفى الله يا أم سليم .

ومع أم سليم ححر فقال لها أبو طلحة :

— ما هذا الححر معك يا أم سليم ؟

— ححر أحده ، إذا دأبني أحد من المشركين بعخته .

فقال أبو طلحة وهو يتسم :

— أسمعتم يا رسول الله ؟

ومشى أبو طلحة إلى الأعداء مشى الوعول يضرب بسيفه وقد أطل منه المنون ، يقتل ويسلب حتى استلب وحده عشرين رجلا ، ورأى أبو قتادة الأنصاري رجلين يقتلان مسلما ومشركا ، وإذا رجل من المشركين يريد أن يعين صاحبه المشرك على المسم ، فأتاه أبو قتادة فضرب يده فقطعها ، واعتقه الرجل بيده الأخرى وكاد يقتله لولا أن الدم راح يزف من يده فسقط إعياء ، فضربه أبو قتادة فقتله وشغله عنه القتال ، ومر به رجل من أهل مكة فسله وأبو قتادة يحتلد بسيفه يقاتل عن دين الله .

وراح مالك بن عوف يستमित في القتال وكلمات دريد بن الصمة تدوى في عهه : « راعى صان والله ماله وللحرب » ، فثير حقه وتذعه إلى الإقدام ، وأقلت حيل الله إلى حيث كان رسول الله عليه السلام ، وأفاق المسلمون من امعا حاة فراحوا يقاتلون في سبيل الله بقبوب عامرة باليقين ، فكثرت القتل في المشركين وتصعدت صموفهم ودارت الدائرة على أهل حبي . فجعل المسلمون يقتنون هريقا وهريفا يأسرون ، وأمكن الله رسوله — ﷺ — من أعدائه ، فقالت امرأة من المسلمين :

قد علت حبل الله حبل اللات وخيبه أحق بالثبات

وانهزمت هوازن واشتد القتل من ثقيف في بني مالك ، فقتل منهم سبعون رجلا تحت رايتهم فيهم عثمان بن عبد الله بن ربيعة بن احارث بن حبيب ، وكانت رايتهم مع دى الحمار عوف بن الربيع ، فلما قتل أحدها عثمان بن عبد الله فقاتلها حتى قتل ، فلما بع رسول الله — ﷺ — قتله قال .

— أبعد الله ! فإنه كان يعرض قرشا !

وقتل مع عثمان بن عبد الله علام له نصراني أعزل^(١) فصاح بأعلى صوته :
— يا معشر العرب يعلم الله أن ثقيفا عرل .

وكان المعيرة بن شعبة وهو من ثقيف في صفوف المسلمين ، فحشى أن
تذهب عنهم في العرب فأخذ بيده وقال :

— لا تنقل ذلك فذاك أئى وأمى ، إنما هو علام لنا نصراني .

ثم حمل يكشف له عن القتل ويقول له :

— ألا تراهم محتنين كما ترى !

وكانت راية الأخلاف مع قارب بن الأسود ، فمما اهرم الناس أسد رايته
إلى الشجرة وهرب هو وبو عمه وقومه من الأخلاف ، فم يقتل من
الأخلاف غير رحلين . رجل من بني عرة يقال له وهب ، وآخر من بني كنة
يقال له الجلاح ، فقال رسول الله ﷺ — حين يبعه مقتل الجلاح :

— قتل اليوم سيد شباب ثقيف إلا ما كان من أس هيدة .

ولما اهرم امشركون أتوا الطائف ومعه مائة بن عوف وهو يكذب يموت
عما ، فقد أعرض عن نصيحة دريد بن الصمة وحبس قومه للموت وفضح
أهله . وعسكر بعضهم بأوطاس وتوجه بعضهم نحو نخلة ، ولم يكن فيمن
توجه نحو نخلة إلا سو عرة من ثقيف وتبعته حيل رسول الله ﷺ —
من سلك في نخلة من الناس ولم تتع من سلك الشايبا .

وكان دريد بن الصمة في هودج قادر ك ربيعة بن رفيع فأخذ خطام حمله
وهو يضرب أنه امرأة فاذا برجل ، فأناح به فاذا شيخ كبير وإذا هو دريد بن
الصمة فارس حشم الديق لم يبق منه إلا الرأس ولا يعرفه العلام ، فقال له

(١) الأعزل : غير المغتسل .

دريد :

— ماذا ترى في ؟

— أقتلك .

— ومن أنت ؟

— أنا ربيعة بن ربيع السلمى .

إنه من بنى سليم حلفاء الأُمس ، إنه من قبيلة الخُصاء التى قالت لأبيها يوم جاء يحطها : يا أبت أترانى تاركة بنى عمى مثل عوالى الرماح وماكحة شبيخ بى حشم هامة اليوم أو غد ؟! . وضربه العلام بسيفه فلم يفس شيئا فقال : — بس ما سلحتك به أملك ! خذ سيفى هذا من مؤخر الرجل ثم اضرب به وارفع عن العظام واحفض عن الدماغ ، فأبى كذلك كس أضرب الرجل ، ثم إذا أتيت أملك فأحرها أنك قتلت دريد بن الصمة ، فرب والله يوم معت فيه نساءك .

ودهب العلام إلى الرجل وكان فى الهودج وأتى بسيف دريد ثم صرعه فأرداه . فلما رجع ربيعة إلى أمه أحرها بقتله أباه فقالت : — أما والله لقد أعتق أمهات لك ثلاثا .

فقالت عمرة بنت دريد فى قتل ربيعة دريدا :

لعمرك ما حشيت على دريد	بطس سميرة جيش العاق
حرى عنه الإله بنى سليم	وعقنهم بما فعلوا عقاق
وأسقاها إذا قدسا إلههم	دماء حيارهم عد التسلاق
فرب عظيمة دامت عنهم	وقد بلغت موسهم التراق
ورب كريمة أعتقت منهم	وأحرى قد فككت من الوثاق
ورب موه بك من سليم	أحت وقد دعاك بلا رماق

فكان جزاؤنا منهم عقوقا وهما ماع منه غ ساق
 عفت آثار خيلك بعد أين بدى بقر إلى فيف النهاق^(١)
 وبعث رسول الله ﷺ — في آثار من توجه قبل أوطاس أبا عامر
 الأشقرى ، فأدرك من الناس بعض من اهزم فناوشوه القتال .
 ولقى أبو عامر عشرة أخوة من المشركين فحمل عليه أحدهم فحمل عليه
 أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول :
 — اللهم اشهد عليه .

فقتله أبو عامر .
 ثم حمل عليه آخر فحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول :
 — اللهم اشهد عليه .
 فقتله أبو عامر ، ثم جعلوا يحملون عليه رجلا رجلا ويحمل أبو عامر وهو
 يقول ذلك ، حتى قتل تسعة وبقي العاشر ، فحمل على أبا عامر وحمل عليه
 أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول :
 — اللهم اشهد عليه .

فقال الرجل :
 — اللهم اشهد عليه .
 فكف عنه أبو عامر فأفلت منه .
 ورمى سلعة بن دريد أبا عامر بسهم فقتله ، فأخذ الراية أبو موسى
 الأشقرى وهو ابن عمه فقاتلهم ففتح الله على يديه وهزمهم .
 واستحر القتل من بني نصر في بني رثاب ، ورأى عبد الله ابن قيس وهو
 أحد بني وهب بن رثاب ما نزل بقومه فقال :
 — يا رسول الله هلكت بنو رثاب .

(١) أين - اللعب والمشقة ، ودو بقر موصعان ، والفيق - القمر ، والهاق موصع .

فقال عليه السلام :

— اللهم اجبر مصيبتهم .

وخرج مالك بن عوف عبد الهزيمة فوقف في فوارس من قومه على ثنية من الطريق وقال لأصحابه :

— قفوا حتى تمضي ضعفاؤكم وتلحق أخراكم

فوقف هناك حتى مضى من كان لحق بهم من منهزمة الناس ، وطلعت خيل ومالك وأصحابه على الثنية فقال لأصحابه :

— ماذا ترون ؟

— نرى قوما واضعى رماحهم بين اذان خيلهم طويلة بواد هم (بطون

افحادهم) .

— هؤلاء بنو سليم ولا بأس عليكم منهم .

فلما أقبلوا سلكوا بطن الوادى ، ثم طلعت حيل أخرى تتبعها فقال لأصحابه :

— ماذا ترون ؟

— نرى قوما عارضى رماحهم أغفالا على حيولهم .

— هؤلاء الأوس والخررج ولا بأس عليكم منهم .

ثم طلع فارس فقال لأصحابه :

— ماذا ترون ؟

— نرى فارسا طويل الناد ، واصعا رموه على عاتقه . عاصبا رأسه بملاءة

حمراء .

— هذا الزبير بن العوام وأحلف باللات ليخالطكم فاثبتوا له .

فلما انتهى الزبير إلى أصل الثنية أبصر القوم فاطلق إليهم وراح يطاعنهم حتى أراحهم عنها ، وهر الناس ليلوون على شيء .

ومر رسول الله ﷺ — بامرأة والناس مردحون عليها فقال :
— ما هذا ؟

— امرأة قتلها خالد بن الوليد .

فقال رسول الله ﷺ — لبعض من معه :

— أدرك خالدًا فقل له : إن رسول الله ينهك أن تقتل وليدًا أو امرأة أو
عسيفًا (أجيرًا) .

وكان بجاد رجلا من بنى سعد بن بكر قد أحدث حدثا ، فقال —
ﷺ — لمن عنده :

— إن قدرتم على بجاد فلا يفلتكم .

فاضطبقوا في أثره حتى صغروا به فسقوه وأهله ، وساقوا معه الشيعة يست
الحارث بن عبد العزى أحت رسول الله ﷺ — من الرضاة فصفوا عليها
في السياق ، فقالت للمسلمين :

— تعلموا والله أني لأحت صاحبكم من الرضاة .

فلم يصدقوها حتى أتوا بها إلى رسول الله ﷺ — فقالت :

— يا رسول الله إني أحتت من الرضاة .

— وما علامة ذلك ؟

— عصة عصضتني في طهرى وأنا متوركتك .

فعرِف رسول الله ﷺ — العلامة فسط لها رداءه فأجلسها عليه
وخيرها وقال :

— إن أحتت معدى مُحنة مكُرمة ، وإن أحتت أن أمتعتك وترجعتي إلى

قومك فعلت .

فقال :

— بل تمتعني وتردني إلى قومي .

فاعطاها علما له يقال له مكحول وجارية وردها إلى بني سعد مكرمة معرزة ، ودكريات صفولته تطوف برأسه كالأضياف .

وهرم الله الكفار ورجع المسلمون إلى رحالهم فحمل النبي — ﷺ — يمشي في المسلمين ويقول :

— من يدئني على رحل خالد بن الوليد .

كان عليه السلام قد علم أن حالدا جرح .

ففرل عليه فوجده قد أسد إلى مؤخرة رحله لأنه قد أنقل بالحراحة ، فراح عليه السلام بصمد حرحه ، والتفت عليه السلام فرأى عائذ بن عمر وقد أصابته رمية في جهة فسال الدم على وجهه وصدره ، فسد النبي — ﷺ — الدم بيده عن وجهه إلى ترقوته . واستمر عليه لسلام يعود الخرحي ويواسيه فيعيد الشر إلى النوحه ويث الأمل في تقنوب .

وأنزل الله عز وجل في يوم حنين : « لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثيرا فسم نعم عنكم شيئا وصاقت عنكم الأرض مما رحمت ثم وليتم مدبري . ثم أنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزم حدودهم ترؤها وعدب الذين كفروا وذلك حره الكافرين . ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله عفو رحيم » (١) .

علم رسول الله ﷺ — أن مالك بن عوف وقوما من أشراف قومه
 لحقوا بالطائف عند إسماعيل بن عوف ، وأن أولئك القوم تحصوا في حصن به وأدخلوا
 فيه ما يصلحهم ، فتوجه إليهم بعد أن بعث بالسبي والعتاق إلى الحيرة مع
 بديل بن ورقاء الخزاعي ، وكان سبي حينئذ ستة آلاف رأس غير من أسر من
 الرجال والنساء والولدان .

وكان في جيش المسلمين الطفيل بن عمرو الدوسي وقد ملأت أقطار رأسه
 صورة صنم قومه فاستشعر رعة جامحة في أن يحرقه ليحلو لدوس وجه الله ،
 فدا من رسول الله ﷺ — وهو في طريقه إلى الطائف وقال في انفعال :
 — يا رسول الله ابعثني إلى ذي الكففين صنم عمرو بن حُصمة حتى أحرقه .
 فعنه رسول الله ﷺ — في شوال سنة ثمان ليهدم ذي الكففين وأمره أن
 يستمد قومه ويأتيه بالطائف . فانطلق الطفيل بن عمرو والدماء تتدفق في
 عروقه حارة والأفكار تتألم على رأسه . به يرى نفسه يوم أن قدم مكة
 ورسول الله ﷺ — بها ، ويرى أشراف قريش وهم يحشون إليه ويقولون
 له :

— يا طفيل ، بك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعصم
 بنا وقد فرق جماعتنا وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالمسحر يفرق بين الرجل وبين
 أبيه وبين الرجل وبين أخيه وبين الرجل وبين زوجته ، وإنا نحشى عليك وعلى
 قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمه ولا تسمع منه شيئا

وارتفعت على شفثيه سمة هائلة . إنه يسخر من نفسه ويتساءل في عجب : كيف أجمع في ذلك اليوم ألا يسمع منه شيئا ولا يكلمه وهو الشاعر اليبس الذي يستطيع أن يميز سحر البيان من قبيح الحديث ، وكيف اصباح هم حتى حشا في أذنيه حين غدا إلى المسجد قطعا فرقا من أن يلمعه شيء من قوله ؟ ترى كيف كان حاله لو لم يسمعه الله بعض قوله ؟ أكان حارب رسول الله — ﷺ — مع الذين حاربوه ؟ ولو أنه حاربه أكان يموت كافرا كما مات كثير من الذين قاتلوه وقتلوا قبل أن يفتح مكة ويسود السلام ربوعها ؟ وسرت في بده رعدة ، وسرعان ما أحس فضل الله عليه أن هداه إلى الإسلام فسجد لله شكرا على طهر راحته .

ورأى نفسه وهو يتبع رسول الله — ﷺ — في رفاق العطارين وهو يستشعر أنه بسلك سبل السلام ، إن قلبه ليحقق بين حسيه كما حقق في ذلك اليوم ، وإنه ليرى نفسه في وصوح وهو يرل في دار حديجة درحات ثم يستأد في الدحول على رسول الله . وإنه لم يفعل وهو على صهر راحته مثل ذلك الانفعال الذي اعتراه وهو يتقدم إلى حيث كان عليه السلام . إنها لحظات لا تنسى ، إنه أحس كأنما غير طيب صميح روحه وأن أنوارا سماوية شاعت بين جوانحه وأن فرحا فياضا عمر نفسه وأن أما انتشر في وجدانه وأن سلاما يرل بردا على فؤاده . وسار وهو مأخوذ بسحر ما سمع من آيات بيات حتى إذا دخل عليه قال وقد تهبل بالمرح :

— يا محمد إن قومك قد قالوا لي إنا نحشى عليك وعلى قومك ما قد دخل عبا ، فلا تكلمه ولا نسمع من شيئا ، هو الله ما رحو ، يخو موسى أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك . ثم أتى من لا أن يسمعي قولك فسمعت قوله لا حسنا فاعرض عليّ أمرك .

وراح الطفيل بن عمرو ينظر إلى الأفق البعيد وهو شارد تتون قسما
وجهه بأفعالات نفسه ، فصوت رسول الله ﷺ — يأتي من أعماق
الماضي كأنه البشرى يعرض عليه الإسلام ويتلو عليه القرآن في صوت جهورى
أحاد يمس أوتار القلب ويحرك مابع الحنن ، فحرت دموعه تببل لحبته وقال
في إيمان عميق :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . إنه لا يستطيع
أن يحبس عبراته كلما تذكر ذلك اليوم فهو يوم أغر حمرت أحداثه في سويداء
قواده ، فهو يذكر كل ما كان فيه من أفعالات وحوار ، إنه قال لرسول الله
ﷺ — بعد أن شهد شهادة الحق :

— يا نبي الله إلى امرؤ مطاع في قومي . وأنا راحع إليهم وداعيمه إلى
الإسلام .

إنه اطلق إلى قومه في ذلك الوقت كما هو مطلق إليهم الساعة بتأجع
بالحماس يستشعر كأن راحته لا تنضوي الأرض ، وراى في حوفه الحوار الذى
كان بينه وبين أبيه :

— إليث يا بنى ؟

— أسمت وتابعت دين محمد — ﷺ —

— أى بنى فدينى ديك .

— فذهب فاعتسل وظهر ثيابه ثم تعال أعلمك ما علمت

وسرعان ما لاحت لعين حياله صورة سادن دى الكعبين تملأ الأفق ، إنه
عاصب ثائر يحاول أن يتحول بيه وبين أن يحرق إنسه . ودارت في ذهنه معركة
رهبة بيه وبين ذلك السادن إنه بهجم عليه بالنار انى يخمسها في يمينه
و سادن يدفعه في صراوة كأنه لؤة تدفع في استهانة عن أشغالها ، وهو يتهلل

إلى ذى الكافرين في صوت مفزوع أن يمدد بعونه . وجلجل في صمير الطفيل
صوته بالتكبير فحيل إليه أن الوديان والحبال تؤذن في إيمان : الله أكبر .. الله
أكبر .

وانثالت على رأسه الذكريات ، إنه دعا دوسا إلى الإسلام فأبطئوا عليه وما
استجاب له إلا أبو هريرة ، إنه استشر في ذلك الوقت عما وود لو أن عذاب
الله ينزل بقومه الديس أبوا أن يخرجوا من الظلمات إلى نور الله . إنه كان يتمزق
غيظا كلما رأى الناس ينطبقون إلى حمى ذى الشرى خاشعين يسألونه الرق
وإطالة الأعمار ، ويا طالما قال لهم : إنكم تعبدون من دون الله أو ثانا وتحلقون
إمكا . فكانوا يجعلون أصابعهم في آذانهم ويستغشون ثيابهم ويصرون
ويستكبرون استكبارا .

وضاق بقومه فحاء رسول الله — ﷺ — بمكة فقال له .
— يا نبي الله ، إنه قد على على دوس الرنا ، فادع الله عليهم .
وتفاصرت نفس الطفيل لما مس أذنيه صدى صوت رسول الله
— صوات الله وسلامه عليه — إنه لم يدع الله عليهم بل دعا لهم فقال :
— اللهم اهد دوسا . ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم .
وقال الطفيل في نفسه :

— صدق الله العظيم : إنك لعل خلق كريم يا رسول الله
واعلنرت الشمس ثم راح قرص الذهب الأحمر يعوص في الأفق العرف
والطفيل بن عمرو بطوى القفار وانفكر بهم فيما كان . إنه يحس وقد حلا
بفسه أن فاته بعض المشاهد مع رسول الله عليه السلام : فقد مضى بدر
وأحد وأخذق وهو في قومه يدعوهم إلى الإسلام . ثم قدم على رسول الله
— ﷺ — عن أسلم معه من قومه ورسول الله — ﷺ — — خير ، حتى

نزل المدينة بسبعين أو ثمانين بيتاً من دوس ، ثم لحق برسول الله ﷺ — بحير فأسهم لهم مع المسلمين .

وراح يطيب نفسه ويقمعها بأنه إن كان قد فاته جهاد فقد كان في جهاد . وجعل يشكر الله أن قبض له المحرة وكان فضل الله عليه عظيماً .

ولاح له جبل دوس والماء يسط منه فاشتد وحب قلبه . فعند محنة الوادي صنم ذى الكفين . ترى أيستطيع سادته أن يقف في وجه جموع المسلمين المرجرة المتدفقة لذلك الإفك والشرك بعد أن فاضت أهدتهم بأنوار اليقين ؟ ولوى الطفيل شفته السفلى استهزاء ثم اندفع على راحلته حتى إذا جاء قومه دعاهم إلى الخروح لحرق الصنم الذى لا يملك لنفسه نفعا أو ضرا .

واطلقت الحموع كالسيل إلى صنم عمرو بن حممة الدوسى موقف السادن مشدوها لا يحرك ساكناً ، وتقدم الطعيل والذين معه فهدموا ذا الكفين وجعل الطفيل يحش النار في وجهه ويقول :

يا ذا الكفين لست من عبادك ميلاداً أقدم من ميلادك
إني حششت^(١) النار في قوادك

وانحدر معه من قومه أربعمائة سراعا وقد حملوا معهم دبابه^(٢) ومحيقا^(٣) ليواجهوا رسول الله ﷺ — بالطائف .

(١) حش النار : أوقدها .

(٢) الدبابه : آلة تتحد في الخروب يدخل في جوفها الرجال ثم تدفع في أصل الحصن فيقبضونه وهم في جوفها .

(٣) والمحيق : آلة ترمى بالحجارة لتهدم الحصون .

انهزم مالك بن عوف فانسحب بفلول جيشه إلى الطائف وأغلق أبواب المدينة ، ثم دخل هو والذين معه حصنا حصينا بعد أن أدخل فيه ما يصلحهم لسة وأعلقوه عليهم وعييثوا للقتال ، فقد كانوا واثقين أن رسول الله ﷺ — سيسر إليهم ليقاتلهم ، فما كان عليه السلام يشاركهم وقد بدعوه بالعداوة قبل أن يقضى على فتنهم أو يدخلوا في السلم كافة .

وسار رسول الله ﷺ — من حين يريد الطائف ، وقدم خالد بن الوليد على مقدمته . ومر جيش المسلمين بقبر فقال رسول الله ﷺ — :
— هذا قبر أبي رغال .

كان أبرهة قد خرح بأمر نحاشي الحبشة في جيش عظيم ليفضي على ديانات العرب ويهدم بيوت عبادتهم ، ويتقدم حتى يتصل نصارى الحبشة بصارى الشام فيرفع بذلك الصليب على الجزيرة العربية كلها . وانطلق أصحاب الفيل حتى إذا ما بلغوا الطائف وأرادوا هدم بيت اللات المقدس تلقى أهل الطائف القائد العظيم بالحصوع وأظهروا له الولاء والطاعة وزينوا له هدم البيت العتيق ، فهو البيت الذى عموى إليه كل قلوب العرب وهو الرباط الوحيد بينهم وإن احتلفوا في الملل والحلل . وقدموا إليه أبا رغال ليكون دليلا له ليوصله إلى مكة .

ونظر المسلمون إلى قبر أبي رغال في غضب واحتقار . وتحرك الحقد فيهم على الرجل الذى قاد جيش الأعداء لهدم أول بيت وضع للناس ، ولولا أن (فتح مكة)

حمى الله بيته وأرسل على أصحاب العيل طيرا أبابيل^(١) ترميهم بحجارة من
سجيل لكان بيت أبيهم إبراهيم قد درس ولما عاد مرة أخرى ليكون مارة
للتوحيد ، فهجموا نائرين على قمر الخائن وبشوه .

واطلق جيش المسلمين فسلط رسول الله — ﷺ — على نخلة اليمانية ،
ثم على قرن ثم على المليح ، ثم على بحرة الرعاء من لية فابتنى بها مسجدا فصلى
فيه ونزل المسموم ببخرة الرعاء فعلا رجل من بنى ليث على رجل من
هديل فقتله ، فقتله — ﷺ — به وهو أول دم أقيده في الإسلام .

وكان حصن مالك بن عوف على مرمى البصر من عسكر المسلمين ،
فأمر — ﷺ — به بهدم . ثم سار عليه السلام بطريق يقال لها الصيقة ، فلما
توجه فيها رسول الله — ﷺ — سأل عن اسمها فقال :

— ما اسم هذه الطريق ؟

— الضيقة .

— بل هي اليسرى .

ثم خرج منها على نحو حتى رل سدرة يقال لها الصادرة قريبا من مال
رجل من ثقيف ، فأرسل إليه رسول الله — ﷺ : إما أن تخرج وإما أن
نخرج عليك حائطك (بستلك) . فأتى أن يخرج فأمر رسول الله —
ﷺ — بإخراجه .

ثم مضى رسول الله — ﷺ — حتى رل قريبا من الطائف فصر به
عسكره قريبا من الحصن الذي تحصن فيه مالك بن عوف والدين معه ،
فسرعان ما تراموا بالنبل ، واهالت القذائف على المسلمين فأصيب ناس منهم

(١) أبابيل : جماعات متتابعة .

بجراحات وكان أبو سفيان بن حرب يتقدم لیسدد سهامه فإذا بهم يصيب عينه ، فألقى السي — ﷺ — وعينه في يده فقال :

— يا رسول الله هذه عيني أصيبت في سبيل الله .

ورمى عبد الله بن أبي بكر الصديق بسهم فحمل إلى حيث كان أبوه والدم يرف منه عزيرا ، وأصيب سعيد بن سعيد بن العاص بن أمية إصابة أردته قتلا ، ورُمى ثابت بن الخدع من الأنصار رمية قاتلة ، وحاول المسلمون أن يدخلوا الحصن فلم يقدروا عليه . فلما أصيب أولئك نفر من أصحاب رسول الله — ﷺ — بالنبل وضع عسكره بعيدا عن مرمى البال .

وكان مع رسول الله — ﷺ — امرأتان من نسائه إحداهما أم سلمة بنت أبي أمية فصر بها قتي ، ثم صلى بين القتين وراح يحاصر ثقيفا ويقاتلهم قتالا شديدا والبل يتطاير من الحصن إلى الأرض ومن الأرض إلى الحصن وأبوات تسعث من الحصن وأحساد ترتطم بالأرض ، واستشهد السائب بن أخارث بن قيس وأخوه عبد الله بن أخارث .

ودخل — ﷺ — خيمة أم سلمة وعندها أخوها عبد الله بن أبي أمية ، وهيت المحيى وكان لعبد الله ، وكان هيت يقول :

— إن فتح الله عليكم الطائف فسل السي — ﷺ — بادية بنت عيلان بن سلمة بن معتب فأبها هيماء شموع^(١) بحلاء^(٢) . إن تكلمت تعت وبن قامت ثنت ، تقبل بأربع وتدبر بثمان ، مع ثغر كأنه الأفحوان^(٣) . وبين رجليها كالإباء المكفوء ، كما قال قيس بن الخطيم :

(١) شموع : مصيبة

(٢) بحلاء : واسعة العين

(٣) الأفحوان : نبات الرسع له نور مبهر .

تغترق الطرف وهي لاهية كأنما شف وجهها تُزف
بين شكول الساء حلقها قصد^(١) فلاجلة ولافضف^(٢)

فقال السبي — عليه السلام :

— لقد غلغلت النظر يا عدو الله .

ثم جللاه عن المدينة إلى الحمى وقال :

— لا يدخل على أحد من نسائك .

واستأنف القتال فأقبل خالد بن الوليد ونادى :

— من يبارز ؟

فلم يطلع إليه أحد . ثم كرر ذلك فلم يطلع إليه أحد . وناداه عبد ياليل :

— لا يرل إليث ما أحد ، ولكن بقيم في حصنا فإن به من الطعام ما يكفينا

سبير ، فإن أقممت حتى يذهب هذا الطعام حرجا إليث بأسيافا جميعا موت

عن آخرنا .

وتطاييرت السهام بين الحائنين فأصاب سهم عبد الله بن أبي أمية بن المعيرة

فقتله قل أن يعتج الله على المسلمين الطائف ، وقل أن يسأل رسول الله —

عليه السلام — بادية بنت عيلان ذلك الرجل الذي وفد على كسرى فقال له

كسرى :

— أي ولدك أحب إليك ؟

فقل :

(١) قصد : وسط .

(٢) الفصف : الحافة .

— انعائب حتى يقدم ، والمريض حتى يعافى ، والصغير حتى يكبر .
ولم يشهد حصار الطائف عروة بن مسعود عظيم ثقيف ولا عيلان بن سلمة ، كانا يخرش يتعلمان صعة الدبابات والمحاق والضور وهى آلات حربية حديثة ستعبر خطط القتال رأسا على عقب .
وأشرقت شمس اليوم الرابع فإذا بالطفيل بن عمرو الدوسى قد قدم ومعه من قومه أربعمائة ودبابة ومنحنيق واستشعر المسلمون بآلات الحرب الحديثة ، ودخل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ — تحت دبابة وكانت من جلود ، ثم رحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرفوه فأرست عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالسار ، فحرحوا من تحتها فرمهم ثقيف بالسبل فقتلوا منهم رجالا ، فأمر رسول الله ﷺ — بقصع أعماهم وتحريقها فوقع الناس فيها وقطعوا قطعا دريعا ، فسألوه أن يدعها لله ولرحم فقال رسول الله ﷺ — :

— إني أدعها لله وللرحم .

ونادى رسول الله ﷺ — :

— أيما عبد من من الحصن وخرج إليها فهو حر .

فخرج منهم ثلاثة وعشرون رجلا ومن منهم شخص في بكرة فقبل له أبو بكره وكان عدا للحارث بن كلدة طيب ثقيف ووالد النصر بن الحارث الذى كان يقول : والله ما محمد بأحسن حديث منى وما حديثه إلا أساطير الأولين ، فأعتقهم رسول الله ﷺ — ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين بموته ، فشق ذلك على أهل الصف مشقة شديدة وحشى أبو سفيان بن حرب على ابنه أمة بنت أبي سفيان وكانت عدا عروة بن مسعود ، وحاف على بساء من قريش وسى كاة فتقدم والمعيرة من

شعبة إلى الصائف فاديا ثقيما : أد أمونا حتى نكلمكم . فأموهما فدعوا نساء من نساء قريش وبنى كنانة ليخرجن إليهما فأبين . فعاد أبو سفيان بن حرب والمعيرة بن شعبة إلى صفوف المسلمين وقد أطرقا حرنأ يحافان على نساء قريش وبنى كنانة اللاتي تروجن في ثقيف النساء .

واستأذن رسول الله ﷺ — عيسى بن حصص الخليل المطاع الذي تبعه ألف امرأة في أن يأتي ثقيفا في حصصهم ليدعوهم إلى الإسلام فأذن له في ذلك ، فاتاهم فدخل في حصصهم فقال لهم :

— تمسكوا في حصصكم ، فوالله لحر أدل من العيد ولا تعطوا بأيديكم ولا تتأثروا بقطع هذا الشجر .

مرجع إلى رسول الله ﷺ — فقال له :

— ما قلت لهم يا عينة ؟

— أمرتهم بالإسلام ودعوتهم إليه وحذرهم النار وذللتهم على الحق .

— كذبت . إنما قلت لهم : تمسكوا في حصصكم .

— صدقت يا رسول الله . أتوب إلى الله وإليك من ذلك .

وبان القوم ، ولما استبقي رسول الله ﷺ عليه السلام قال لأبي بكر الصديق :

— يا أبا بكر إني رأيت أني أهديت لي قعة (قدح) مملوءة رندا فقرها ديك

فهراق ما فيها .

فقال أبو بكر الصديق :

— ما أظن أن تدرك منهم يومئذ هذا ما تريد .

فقال رسول الله ﷺ — :

— وأنا لا أرى ذلك .

واستشار رسول الله ﷺ — نوفل بن معاوية الديلي في الذهاب

أو المقام ، فقال له :

— يا رسول الله ثعلب في حجر إن أقمت أحدثه وإن تركه لم يصرك .
فأمر رسول الله ﷺ — عمر بن الخطاب فأذن في الناس بالرحيل ،
فقمح الناس ذلك وقالوا .

— نرحل ولم يفتح علينا ؟!

فقال رسول الله ﷺ :

— فاغدوا على القتال :

فعدوا فاهالت السهام عليهم من الحصن كوابل من المطر فأصاب الناس
حراحات ، فقال رسول الله ﷺ :
— إنا قافنون إن شاء الله .

فسروا بذلك وأدعوا وجعلوا يرحلون ورسول الله ﷺ — يضحك
تعبها من سرعة تغير رأيهم ، وودى سعيد بن عيسى — أسيد وهو يطرأ إلى أهل
الضائف وهم في حصصه :

— ألا إن الحى مقيم .

فقال عبيد بن حصص :

— أحل والله محدة كراما .

فقال رجل من المسلمين :

— قاتنت الله يا عبيدة ، أتمدح المشركين بالامتناع من رسول الله —
ﷺ — وقد حثت تنصر رسول الله ﷺ !

— إن والله ما جئت لأقارن ثقيفا معكم ولكي أردت أن يفتح محمد
صائغ فأصيب من ثقيف حارية أنقضها لعبيد بن راحلا ، فإن ثقيفا قوم

مناكير^(١) .

ورجعوا إلى رسول الله ﷺ — وقال لهم عليه السلام :
— قولوا لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم
الأحزاب وحده .

فلما ارتحلوا واستقبلوا قال :
— قولوا آيئون تائبون عابدون ، لربنا حامدون .
وقالوا :

— يا رسول الله ادع على ثقيف أهل الطائف .
فقال :

— اللهم اهد ثقيفا وأت بهم مسلمين .
واخدر المسلمون إلى الحمرنة ، فلقى سراقه رسول الله ﷺ — وهو
واضع الكتاب الذي كتبه له — ﷺ — عند الهجرة بين أصبعيه ويأدي :
— أنا سراقه وهذا كتابي .

وتذكر أبو بكر يوم أن هاجر مع رسول الله ﷺ — إلى المدينة وراح
سراقه يتبعهما ليال جائرة قريش . إن أبا بكر ليدكر ذلك الكتاب الذي يضعه
سراقه بين إصبعيه فقد كتبه بخط يده . ونظر — ﷺ — إلى سراقه وقال :
— هذا يوم وفاء ومودة . أدنوه .

فأدنوه منه وساق إليه الصدقة وسأله عن الضالة من الإبل ترد حوصه
الذي ملأه لإبله هل له في ذلك من أجر ، فقال رسول الله ﷺ — :
— نعم ، في كل ذات كبد حراء أجر .

(١) مناكير : دوى دهاء وفطنة .

وانصرف رسول الله عن الطائف فرجع إلى الجعرانة فأنهى إليها ليلة الخميس لثلاث حلون من ذى القعدة . وأحصى السبي فكان ستة آلاف رأس ، والإبل أربعة وعشرين ألفاً ، والعم أكثر من أربعين ألفاً ، وأربعة آلاف أوقية فضة ، فاستأفى رسول الله ﷺ — بالسبي أن يقدم عليه وفدهم وبدأ بالأموال فقسمها . وأعطى المتولفة قلوبهم أول الناس فأعطى أما سميان بن حرب أربعين أوقية ومائة من الإبل ، قال :

— وابسى يريد ؟

— أعطوه أربعين أوقية ومائة من الإبل

— وابسى معاوية ؟

فأعصاه أربعين أوقية ومائة من الإبل . فقال :

— بأنى أنت وأمى يا رسول الله لأنت كريم في الحرب وفي السلم . لقد

حاربتك فعم احارب كنت ، وقد سألنت فعم المسالم أنت . هذا عاية الكرم جزاك الله خيراً .

وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل ، ثم سأله مائة أخرى فأعطاه إياها ، ثم سأله مائة فأعطاه وقال له :

— يا حكيم هذا المال حصر حلوه من أحده بسحاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى .

فأخذ حكيم المائة الأولى وترك ما عداها وقال :
— يا رسول الله والذي بعثك بالحق نبيا لأررأ أحدا بعدك شيئا حتى أمارق الدنيا .

فكان أبو بكر يدعو حكيمًا ليعطيه لعضاء فيأني أن يقل منه شيئا ، ثم إن عمر دعاه ليعطيه فأني أن يقبله .

وأعطى النضير بن الحارث بن علقمة بن كلدة مائة من الإبل ، وأعطى أسيد بن جارية الثقفي مائة من الإبل ، وأعطى العلاء بن حارية الثقفي خمسين بعيرا . وأعطى مخزومة بن نوفل خمسين بعيرا ، وأعطى الحارث بن هشام مائة من الإبل ، وأعطى سعيد بن يربوع خمسين من الإبل ، وأعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل ، وأعطى قيس بن عدي مائة من الإبل ، وأعطى عثمان بن وهب خمسين من الإبل ، وأعطى سهيل بن عمرو مائة من الإبل ، وأعطى حويطب بن عبد العزى مائة من الإبل ، وأعطى هشام بن عمرو العامري خمسين من الإبل ، وأعطى الأقرع بن حابس ثبجي مائة من الإبل ، وأعطى عيسى بن حصص مائة من الإبل ، وأعطى العباس بن مرداس أربعين من الإبل ، فقال العباس بن مرداس :

كانت مهابا تلافيتها	بكرى على المهرى الأجرع ^(١)
وإيقاطى القوم أن يرقدوا	دا هجع الساسم أهجع
فاصبح نهسى ونهب العبيد	عد ^(٢) بين عيه والأقرع
وقد كنت في الحرب دا تدرأ ^(٣)	فلم أعط شيئا ولم أمتع

(١) الأجرع : السهل .

(٢) العبيد : اسم فرس عباس بن مرداس .

(٣) دا تدرأ : دفع عن قومي

إلا أمائل^(١) أعطيتها عديد قوائمها الأوسع
وما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس في اجمع
وما كنت دون امرئ منهما ومن تضع اليوم لا يرفع
فقال رسول الله ﷺ :
— اقطعوا عنى لسانه .

فأتى به أبو بكر الصديق إلى العاصم وقال له :
— خذ منها ما شئت .

— إنما أراد رسول الله ﷺ — أن يقطع لسانى بالعطاء .
فكره أن يأخذ منها شيئا ، فعت رسول الله ﷺ — إليه نخة ،
وقيل :

— يا رسول الله ، أعطيت عييه بن حصص والأقرع بن حابس مائة
وتركت جعيل بن سراقه .

— أما والذي نفسى بيده جعيل بن سراقه خير من ضلاع الأرض كلهم
مثل عييه والأقرع ، ولكنى تألفتهم ووكت جعيل بن سراقه إلى إسلامه .
وكان جعيل بن سراقه من فقراء المسمين وكان رجلا صالحا دميما
قيما ، وكان رسول الله ﷺ — يحبه وإن رسول الله عليه السلام ليعطى
الرجل وغيره أحب منه خشية أن يكف في السار على وجهه . وقد قال عليه
السلام :

— إن من الناس ناسا يكتفهم إلى إيمانهم منهم فرات بن حيان .
أعطى رسول الله عليه السلام المؤلفة قلوبهم من الخمس واجتمع إليه الناس

(١) أمائل : الصغار من الإبل .

وصاروا يقولون :

— يا رسول الله اقسم علينا .

وتدفعوا نحوه حتى ألجئوه إلى شجرة فاختلطت رداءه فقال :

— ردوا رداي أيها الناس ، فوالله إن كان لي شجر تهامة نعما لقسمته عليكم ، ثم ما أليتموني بخيلا ولا جبانا ولا كدودا .

ثم قام — ﷺ — إلى جنب بعيره فأخذ وبرة من ستامه ثم رفعها ثم قال :
— أيها الناس ، والله ما لي من فيثكم ولا هذه البرة إلا الخمس والخمس
مردود عليكم ، فأدوا الخياط والمخيط فإن العلول يكون على أهله عارا وشارا
ونارا يوم القيامة .

فجاء شخص من الأنصار بكبة من خيوط شعر وقال :

— يا رسول الله أحدث هذه الكبة أعمل بها بردة بعير لي دير .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— أما نصيب منها فلك .

ففهم الأنصاري أنه عليه السلام قد طابت نفسه في الخمس وأما حق
المسلمين فليس له أن يحود به ، فقال الرجل :

— أما إذ بلغت هذا فلا حاجة لي بها .

وألقاها . وقالت امرأة عقيل بن أبي طالب لعقيل :

— إني قد علمت أنك قد قاتلت فعادا أصبت من الغنيمة ؟

وكان عقيل قد أخذ وبرة من الغنيمة قبل أن تقسم بين المسلمين ، فدفعها
إلى امرأته وهو يقول :

— دونك هذه البرة تحيطين بها ثيابك .

فسمع مادي رسول الله — ﷺ — يقول :

— من أخذ شيئا فليرده حتى الخياط .

فرجع وأخذها منها وألقاها في الغنائم .

وكان أبو جهم بن حديفة العدوي على الأنفال فحاه خالد بن البرصاء

وأخذ من الأنفال رمام شعر فمات به أبو جهم . فلما تمايعا ضربه أبو جهم

بالقوس فشجه شجة مقلنة ، فاستعدى عليه حاند بن البرصاء رسول الله —

عليه السلام :

— خذ خمسين شاة ودعه .

فقال خالد في إصرار :

— أقدني مه .

— خذ مائة ودعه .

— أقدني منه .

— حد خمسين ومائة ودعه وليس بك إلا ذلك ، ولا أقيدك من وال

عليك

ثم أمر يزيد بن ثابت بإحصاء الناس وهدم ثم فرقها وقسمها على الناس ،

فكانت سهامهم لكل رجل أربع من الإبل وأربعون شاة ، فإن كان فارسا

أخذ أربع عشرة من الإبل أو عشرين ومائة شاة ، وإن كان معه أكثر من فرس

لم يسهم لفرس بئر ، فلم يعط البئر إلا لفرس واحد وكان معه أفراس وقال

بعض المأفقين :

— هذه القسمة ما عدل فيها ولا أريد بها وجه الله .

فأحمر بذلك السبي فعصب — عليه السلام — عصبا شديدا واحمر وجهه

وقال :

— من يعدل داء لم يعدل لله ورسوله ؟ رحمة الله على أحيى موسى عليه

السلام لقد أودى بأكثر من هذا فصر .

فقام إليه عمر بن الخطاب فقال :

— يا رسول الله ألا أضرب عنقه ؟

— لا .

ثم أدبر فقام إليه خالد بن الوليد فقال :

— يا رسول الله ألا أضرب عنقه ؟

— لا . لعله أن يكون يصل .

فقال خالد :

— وكم من مصل يقو نسانه ما ليس في قلبه .

— إن لم أؤمر أن أنقب عن قنوب الناس ولا أشق بصوهم

وأعصى رسول الله — ﷺ — ما أعطى من تلك العصايا في قريش بعد أن

تابعه من بني أمية . أبو سفيان بن حرب وطريق بن سفيان بن حرب وخالد

ابن أسيد بن أبي العيص بن أمية ، ومن بني عبد الدار بن قصي : شيبة بن عثمان

ابن أبي طهحة وأبو الساهل بن يعكث وعكرمة بن عامر بن هاشم ، ومن بني

محزوم : زهير بن أمية بن المعيرة وهشام بن الوليد بن المعيرة وسفيان بن عبد

الأسد بن عبد الله بن عمرو بن محزوم ولسائب بن أبي السائب ، ومن بني

عدي : مطيع بن الأسود وأبو جهم بن حديفة ، ومن بني حمص صفوان بن

أمية وأحبيحة بن أمية بن حنظل وعمير بن وهب بن حنظل . ومن بني سهم :

عدي بن قيس ، ومن بني عامر ، حويطب بن عبد العري وهشام بن عمرو .

ومن أضاء القبائل : من بني بكر بن عبد ماعة بن كدرة . يوهي بن معاوية .

ومن بني سليم : عباس بن مردس . ومن بني عصفار . عبيد بن حصي ،

ومن بني غنم الأقرع بن حابس . فما أعصى رسول الله — ﷺ — ما أعطى

من تلك العطايا في قريش وقبائل العرب ولم يكن في الأنصار منها شيء وحدوا
 في أنفسهم وغضبوا حتى كثرت منهم القاتلة ، فقال بعضهم :
 — إن هذا هو العجب . يعطى قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم ؟
 — إن سيوفنا تقطر من دماء قريش وإن عاثما ترد عليهم .
 — إذا كانت شديدة ندعى إليها ويعطى العيمة غيرها .
 — سيوفنا تقطر من دمائهم وهم يذهبون بالنعيم ، فإن كان من أمر الله
 صبرنا وإن كان من أمر رسول الله استعصاه .
 وقال حسان بن ثابت يعاتبه في ذلك :

رادت هموم فماء العين محلدر	سحبا إذا حفتله عبرة درر
وحدا بشماء إذ شماء هكة ^(١)	هيفاء لا دس فيها ولا حور
دع عدك شماء إذ كانت مودتها	بررا وشر وصال الوصل الزر
وأنت الرسول فقل يا حير مؤمن	للمؤمنين إذا ما عتد البشر
علام تدعى سليم وهي نارحة	قدام قوه هم آووا وهم بصروا
سماهم الله أنصارا بصرههم	دين الهدى وعوان الحرب تستعر
وسارعوا في سبيل الله واعترفوا	للائات وماحاموا ^(٢) وماصحروا
ولاس إلأ علينا فيك ليس لنا	

إلا السيوف وأطراف القسا وزر^(٣)

محالذ الناس لا تنقى على أحد ولا نصيغ ما نوحى به السور

(١) شماء : امرأة وهكة : كثيرة المحم

(٢) حامو : حبر .

(٣) اورر : السح

ولا تهر^(١) جاة الحرب ناديا ونحن حين تلتظي نارها سعر
كما رددنا بيدرون ما طلبوا أهل الفاق وفيما ينزل الظفر
ونحن جددك يوم المعف^(٢) من أحد
إذا حزبت بطرا^(٣) أحزأها مضر

وقال بعضهم :

— لقي الله رسول الله — ﷺ — قومه .

فدخل عليه سعد بن عبادة فقال :

— يا رسول الله إن هذا الحى من الأنصار قد وحدوا عليك في أنفسهم لما

صعت في هذا الفىء الذى أصبت ؛ قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاما
ولم يكن من الأنصار بها شىء .

— فأين أنت من ذلك يا سعد ؟

— يا رسول الله ما أنا إلا من قومي .

— فاجمع لى قومك في هذه الحظيرة .

فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة ، فجاء رجال من المهاجرين

هزركهم فدخلوا وجاء آخرون مردهم . فلما اجتمعوا له أتاه سعد فقال :

— قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار .

فأتاهم رسول الله — ﷺ — فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

(١) تهر : تكرر .

(٢) المعف : أسفل الجبل : وحريت : جمعت

(٣) الطر : كمران البعة .

— يا معشر الأنصار ما قالة بلغتنى عنكم وجدة^(١) وجدتموها على في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضللا فهداكم الله ؟ وعالة فأغاثكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟

— بلى ، الله ورسوله أمن وأفضل .

— ألا تحبوني يا معشر الأنصار ؟

— بماذا تحبني يا رسول الله ؟ لله ورسوله المن والفضل .

— أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم : أتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فصرناك ، وحريدا فأوبناك ، وعائلا فأمسناك . أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة (بقلة خضرء) من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والعبير وترجعوا برسول الله إلى رجالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا اھجرة لكت امرأ من الأنصار ، ولو سلكت الناس شيعا وسلكت الأنصار شيعا لسلكت شيع الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار .

فبكى القوم حتى أحصلوا لحاهم وقالوا :

— رضينا برسول الله قسما وحظا .

(١) وجد : عصب وجرى .

استأفى رسول الله ﷺ — بسى هوازن فقد كان يرحو أن يأتى أهلهم
 مسعين ، ولكنه مكث عليه السلام بالحجرات ثلاثين عشر يوما دون أن يقدم
 وفد هوازن فراح يقسم السبى بين المسلمين بعد أن كساهم قبطية قبطية ،
 وهى ثياب بيض تتحد من كتان مصر . فأعطى على بن أبى طالب جارية يقال
 لها ربيعة بنت هلال بن حيان بن عميرة بن هلال بن ناصرة بن قصية بن نصر
 بن سعد بن بكر ، وأعطى عثمان بن عفان جارية يقال لها رينب بنت حيان بن
 عمرو بن حيان ، وأعطى عمر بن الخطاب جارية فوهها لعبد الله بن عمر ابنه
 فبعث بها إلى أخواته من بنى محم ليصلحوا له منها ويبيثوها حتى يظوف
 بالبيت ثم يأتهم .

وظرف عيه بن حصن إلى عجور كثيرة فقال :

— هذه أم الحلى لعلمهم أن يعلوا بفدائها ، وعسى أن يكون لها فى الحلى

سب

فأحدها وهو يطمع فى أن يعظم فداؤها وأمر رسول الله ﷺ —
 نحس أهل مالك بن عوف النضرى بمكة عند عمتهم أم عبد الله بن أبى أمية ،
 وم يجر أن تحرى السهمان فى مال مالك بن عوف الذى جمع القاتل خربه ثم
 لما مرم نحس فى حصن الطائف وأرسل السهم وقتل رجلا :

وعد وفد هوازن على رسول الله ﷺ — وهم أربعة عشر رجلا
 ورأسهم رهبر بن صرد وفيهم أبو برقان عم رسول الله ﷺ — من

الرضاعة وقد أسلموا ، فقالوا :

— يا رسول الله إنا أهل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك ، فامن علينا .

وقام أبو صرد فقال :

— يا رسول الله إنا أهل وعشيرة ، فامن علينا وعلى النسوة اللاتي كن معك يكفلنك ، ولو أنا ملحنا (أرضعنا) للحارث بن شمر أو للعمان بن المدر ثم نزل منا يمثل الذي نزلت به لرجونا عطفه وعائدته عليا ، وأنت خير المكفولين ، ثم أنشد :

امن علينا رسول الله في كرم	فإبك المرء نرجوه وننظر
امن على بيضة قد عاقها قدر	ممزق شملها في دهرها غير
يا خير طفل ومولود ومتجب	في العالمين إذا ما حصل البشر
إن لم تداركهم نعماء تشرها	يا أرجح الناس حلما حين يختبر
ومن على نسوة قد كت ترضعها	إذ فوك يملؤه من محضها درر
إذ كت طفلا صغيرا كت ترضعها	واد يزيث ما تأقي وما تثر
لا تجعلنا كمن شالت نعمته ^(١)	واستبق منا فإننا معشر زهر

يا خير من مرحت^(٢) كمت الحياء به

عند افياح إذا ما استوقد الشرر

إنا لشكر آلاء وإن كفرت	وعدنا بعد هذا اليوم مدخر
إنا نؤمل عفوا ملك تلبسه	هذي البرية إذ تعفو وتستصر

(١) شالت بدمتهم : ماتوا وتفرقوا . والعمامة : الجماعة .

(٢) مرحت الخلل : نشطت وتحترت .

فاعفر عفا الله عما أنت واهبه يوم القيامة إذ يهدي لك الطفر
فقال رسول الله — ﷺ :

— أبناؤكم وساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟
— يا رسول الله حيرتا بين أموالنا وأحسابنا . فرد إلينا أباؤنا وساءنا فهو
أحب إلينا .

فأرشدتهم عليه السلام إلى ما يفعلون ، فلما صلى الظهر قاموا وقالوا ما
لنقيم إياه عليه السلام :
— إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا
ونسائنا .

فقال عليه السلام :
— أما ما كان لي ونسي عبد المطلب فهو لكم .
وقال المهاجرون :

— وما كان لنا فهو لرسول الله — ﷺ .
وقالت الأنصار :
— وما كان لنا فهو لرسول الله — ﷺ .

وقال الأقرع بن حابس :
— أما أنا وبنو تميم فلا .
وقال عيينة بن حصن الخليل المطاع :
— أما أنا وبنو فزارة فلا .
وقال عباس بن مرداس :
— أما أنا وبنو سليم فلا .

فقال بنو سليم :

— بلى . ما كان لنا فهو لرسول الله — ﷺ .

فقال عباس لبني سليم :

— وهتموني .

فقال رسول الله — ﷺ : أما من تمسك منكم بحقه من هذا المسمى فله بكل إسان ست مائة فرائض ، من أول مسمى أصيبه ، فردوا إلى الناس أبنائهم ونساءهم .

أخذ رسول الله على نفسه في سبيل تحرير الرقاب أن يدفع لكل من لم تطب نفسه أن يرد ما في يده ستة أبعرة من أول ما بهىء الله عليه ، فرد الناس ما في أيديهم إلا عينة بن حصص فقد أتى أن يرد العجوز وقد طمع في أن يعظم فداؤها .

وجاء ابنها إلى عينة فقال :

— هل لك في مائة من الإبل ؟

— لا .

مرجع عنه فتركه ساعة ، وجعلت المحور تقول لابنها :

— ما إربك في بعد مائة ناقة ؟ اتركه فما أسرع ما يتركى بعير فداء .

فلما سمعها عينة قال :

— ما رأيت كالיום جدعة . والله ما أنا من هذه إلا في عرور ، ولا حرم

والله لأبعدن أثرك مني .

ثم مر بها ابنها فقال له عينة :

— هل لك فيما دعوتني إليه ؟

— لا أزيدك على خمسين .

— لا أفعل .

ثم لبث ساعة فمر به وهو معرض عنه ، فقال له عينة :

— هل لك في الذي بذلت لي ؟

قال له الفتى :

— لا أزيدك على خمس وعشرين فريضة .

— والله لا أفعل .

فلما تخوف عينة أن يتعرق الناس ويرتحلوا قال :

— هل لك فيما دعوتني إليه إن شئت ؟

— هل لك إلى عشر فرائض ؟

— لا أفعل .

وتأهب الناس للرحيل فاداه عينة :

— هل لك إلى ما دعوتني إليه إن شئت ؟

— أرسلها وأحمدك .

— لا والله ما لي حاجة بحمدك .

فأقبل عينة على نفسه لاثما لها بقول :

— ما رأيت كاليوم أمرا أنكد .

— أنت صنعت هذا نفسك . عمدت إلى عمود كبيرة . والله ما أديها

ساهد ولا بضها بوالد ولا فوها سارد ولا صاحبها بواحد ، فأحدثت من بين ما

ترى .

— خذها لا بارك الله لك فيها .

— يا عينة إن رسول الله — ﷺ — قد كسا السي فأحضاها من بينهم

الكسوة ، فهل أنت كاسحها ثوبا ؟

— لا والله ما لها ذاك عدى .

— لا تفعل .

فما فارقه حتى أحد منه سئل ثوب . ولقى عينة بن حصص الأقرع بن حابس فشكا إليه ما كان من أمره وأمر العجوز ، فقال له الأقرع :
— إنك والله ما أخذتها بيضاء عريرة^(١) ، ولا نصعا وثيرة^(٢) .

وقال السي — عليه السلام — لو قد هوازن :

— ما فعل مالك بن عوف ؟

— يا رسول الله هرب فلحق عحصن انطائف مع ثقيب .
— أخرجه أنه إن أتى مسما رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل .

واصلق رحل بنى حيث كان مالك بن عوف فأسر له ما قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، فحاف مالك ثقيفا على نفسه أن يعلموا أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال له ما قال فيحسوه ، فأمر براحلة فهبئت له وأمر بفرس له فأتى به إلى انطائف ، فخرج بيلا فجلس على فرسه وركبه حتى أتى الدهاء فدا براحلته حيث أمر بها أن تحبس هركها ، فلحق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأدركه بحمرانة قبل أن ينطلق إلى مكة .

واستنقه عليه السلام بالترحاب ورد عليه أهله وماله ، ورأى مالك بن عوف حود السي وحلمه وعموه ورهده في الدنيا ومكارم أخلاقه ، فأشد :
ما إن رأيت ولا سمعت مثله في الناس كنهم بمثل محمد

(١) عريرة شوصة من لساء في لس .

(٢) وثيرة من لساء — تسميه اللينة

أوفى وأعطى للحريث إذا احتدى^(١)

ومتى تشأ يحرك عما في غد

وإذا الكتيبة عرّدت^(٢) أباها بالسهمري وضرب كل مهمد

فكانه ليث على أشباله وسط الهبابة حادر في مرصد^(٣)

فاستعمله رسول الله — ﷺ — على من أسلم من قومه وتلك القبائل من ثمانية وسلمة وفهم ، فخرج ليقاتلهم ثقيفا حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

وتزوج عبد الرحمن بن عوف بادية بنت غيلان بن مسلمة ، وحرص عبد الله بن عمر ليطوف بالبيت ثم يأتي أخواله من بني جمح ليصيب تلك المرأة التي وهبا له أبوه عمر بن الخطاب من سبي هوازن ، فلما انتهى من طوافه وحرص من الحرم فإذا الناس يشتدون فقال :
— ما شأنكم ؟

— رد عينا رسول الله — ﷺ — ساءا وأباها

— تلکم صاحبکم فی بی جمح فاذهبوا وحدوها .

ورد رسول الله — ﷺ — إلى صفوان بن أمية السلاح الذي كان قد أحده عارية مضمونة . ورد الأموال التي كان قد اقترضها ليبلغها على فقراء المسلمين بعد أن فتح الله عليه مكة ، فراح صفوان بن أمية يقلب النظر في الإبل والأعنام التي ملأت الوادي وقد قسمها عليه السلام بنفس راضية على أعداء

(١) اجتدى : ظالبوه بالعطاء .

(٢) عرّدت أباها : عدت واشتدت . والسهمري : انسيب .

(٣) الهبابة : العبار يثور عند اشتداد الحرب ، والحدر : الأسد في عريته ،

والمرصد : المكان يرقب منه . يصعه باليقظة .

الأمس فامتلاً إعجاباً بالرجل الذى خرج من مكة ولم يكن هناك رجل أبغض إلى قلبه منه ، فإذا بحلقه العظيم يستولى على قواده وإذا بالكراهية تنبهر ليحل مكانها حب عظيم للنبى الكريم الذى أسر القلوب ، كل القلوب .
وقال قائل فى هوازن يذكر مسيرهم إلى رسول الله — ﷺ — مع مالك بن عوف بعد إسلامه :

اذكر مسيرهم للناس إذ جمعوا ومالك فوقه الرايات تختفق
ومالك مالك ما فوقه أحد يوم حين عليه التاج يأتلق
حتى لقوا الباس حين الباس يقدمهم
عليهم البيض^(١) والأبدان والدرق^(٢)

فضاربوا الناس حتى لم يروا أحدا حول النبى وحتى جه السفق
ثم نزل جريمل بصيرهم من السماء فمهروم ومعتق
منا ولو غير جريمل يقاتلنا لمعنا إدد أسيافا العلق
وفانا عمر الفاروق إذ هزموا بطعة بل منها سرجه العلق^(٣)
وحسن إسلام مالك بن عوف فراح يقاتل بمن أسلم من قومه ويقبائل ثمانية
وسلمة وفهم ثقيفا ، لا يخرج لهم سرح إلا أعار عليه وأحده ، وأرسل بالخمسة
مما بعهم إلى رسول الله — ﷺ . فلما ضيق على ثقيف قال أبو محجن الثقفى :
هابت الأعداء جانبنا ثم تعروسا بسو سلمة
وأتاننا مالك بهم ساقضا للعهد والمحرمة
وأتوسنا فى منازلنا ولقد كسا أولى نعمة

(١) البيض : الخوذات توضع على الرؤوس .

(٢) الدرق : الصلب من كل شيء .

(٣) العلق : ندم .

حرح رسول الله ﷺ — من الجعرانة معتمرا وذلك ليلة الأربعاء لثنتي عشرة ليلة مضت من ذى الحجة ، فأحرم بعمره وأمر ببقايا الفياء فحبس عجمة بناحية مر الظهران .

وانطلق المسممون إلى البيت الحرام وقد أثر في نفوسهم ذلك الكرم الفياض الذي عمر به رسول الله ﷺ — المؤلفة قلوبهم وأعداء الأئمة ووعد هوارن الذين جاءوا مسلمين فرد إليهم سبائهم وأبائهم بعد أن وقعت انقسام مواقعها .

وكانت أم سمية بنت راد الركب بن المعيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم في هودجها تنظر في انفعال إلى الوادى الذى عص بالعامم التي قسمها رسول الله ﷺ — بين المسلمين ، وإلى سادات المدينة وسادات قريش وسادات القبائل وقد لبسوا ملابس الإحرام وقد ارتفعت أصواتهم بالتلبية لرب العالمين ، فترقرقت في مآقيها الدموع وعادت بها ذكرياتها إلى أيام الاصطهاد والتعذيب ، فرأت نفسها وهى تهاجر إلى الحبشة مع زوجها عبد الله بن عبد الأسد بن هلال فرار ابديها . إنها ولدت له هناك زيب وسلمة وعمر ودرة ، وقد عادت إلى مكة ما بلغ المسلمين في الحبشة أن قريشا قد آمنت بأسور الذى أئرب مع رسول الله عليه السلام . ولكنها لما بلغت مرفأ مكة علمت أن قريشا قد حسنت المسلمين وسى هاشم وسى المطلب في شعب أى طالب فعادت وروحها نحو سلمة إلى الحبشة لتكون في حوار ملث لا يظلم عبده أحد

ورأت نفسها يوم أن هاجرت إلى المدينة ويوم أن خرج أبو سلمة إلى أحد فرماه أبو أسامة الخشمي في عصده بسهم فمكث شهرا يداوى جراحه ، ثم برأ الجرح وبعث رسول الله — ﷺ — أبا سلمة إلى قطف في الحرم على رأس خمسة وثلاثين شهرا فعاب تسعا وعشرين ليلة ، ثم رجع فدخل المدينة لثلاث حلون من صفر سنة أربع والجرح مستعص . إنها لتذكر ذلك التاريخ وتذكر ما كان بعده فقد مات أبو سلمة متأثرا من جراحه لثلاث حلون من جمادى الآخرة من نفس السنة .

وحضره النبي وهو يحود بأنفاسه فلما فاضت روحه كبر — ﷺ — تسع تكبيرات ، فقيل له :

— يا رسول الله أسهوت أم نسيت ؟

— ه أسه ولم أنس ، ولو كبرت على أفي سمة أنما كان أهلا لذلك .
وظف بعدها يوم أن بعث إليها رسول الله — ﷺ — يحضرها وفد حاورت من الشباب معها عيال صغير وفي بيت أنسى عليه السلام عائشة وحفصة ، فأرسلت إلى أنسى — ﷺ — تعذر بأنها غير مسنة ذات عيال

وبما طالما تذكرت رده الكريم الذي من أوتد قلبها وكان لها أمور الذي أصاء حياتها مع الرسول عليه السلام ، « أميت مسنة فأنما أكرمتك ، وأما الأخيرة فيدها الله عنت ، وأما العال فإن الله ورسوله » .

ودحت ثم العرب على سيد المرسلين أول العشاء عروضا ، وقامت من حجر البيل تطحن . ومذتت ليلة دافقت عصمة الساطعة أنى بجها كل من برل دور أنسى — صورت لله وسلامه عليه ، واستمرأت ست راد المركب حدة بقتب مع مرم رهنين

ورفت على شعثها بسمة رضا فقد قال رسول الله ﷺ — قل أن يتزوجها : إن لعائشة منى شعبة ما نزلها أحد . فلما تزوجها سئل رسول الله ﷺ — فقيل :

— يا رسول الله ما فعلت الشعبة ؟

فسكت رسول الله ﷺ ، فعلم الناس أنها قد نزلت عنده .
ورأت يحياها رسول الله عليه السلام وهو يحبو على أولادها ، إنه كان يأتيها فيقول : « أين زنا ب ؟ » وقد احتار — صلوات الله وسلامه عليه — ابنها سلمة الذي شب في حجره عليه السلام روجا لآية عمه حمزة أسد الله وأسد رسوله وسيد الشهداء .

وقفر إلى دهنها حادث م تستطع أن تساه : إنه عليه السلام كان عندها وابنتا زيب في حجرها فحاءته الزهراء مع ولديها الحسن والحسين فقصمهما إليه ثم قال :

— رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد .

إنها بكت في ذلك اليوم فطر إليها رسول الله ﷺ — وسأها :

— ما يبكيك ؟

— يا رسول الله حصصته وتركى واستى .

— إنك وابنتك من أهل البيت .

وقالت وهي في هودجها في صوت حافت وإن كان نابضا بالتأثر والانفعال :

— صدق الله تعالى إنك لعل خلق عظيم يا رسول الله

ولاحت أرباض مكة وارتفعت أصوات مسميين بالنسبة لله وحده لا شريك له .

وقد تهللت الوجوه بالبشر وامتألت الأفئدة راحة والصدور انشراحا ،
فقد كانت أول مرة يتدفق فيها المهاجرون والأنصار وسادات قريش إلى مكة
وقد اتحدت قبتهم وارتفعت تبييتهم وشهدوا جميعا باللسان والقلب إن لا إله
إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله .

ووقعت الأعين على أول بيت وضع للناس وقد ظهر من الأوثان والأصنام
وعاد مرة ثانية منارة للتوحيد كما كان يوم أن رفع القواعد من البيت إبراهيم
وإسماعيل ، فخفقت القلوب وحدا في الصدور وهوت الأنفس إلى البيت
العتيق ، وارتفعت الأصوات بالابتهاال إلى رب العالمين : ربنا تقبل منا إنك
أنت السميع العليم .

وراح رسول الله ﷺ — يطوف بالبيت وحال مكة ووديعها
تسترجع دعوة خليل الرحمن إبراهيم : « ربنا وبعث فيهم رسولا منهم يتلوا
عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويركبههم إنك أنت العزيز
الحكيم » (١) .

وانتهى الطواف والدعاء فصلى عليه السلام ركعتين عند مقام إبراهيم ثم
حرح المسلمون إلى الصفا للسمي تحليدا لذكرى هاجر امصربة أم العرب يوم
كاد بها إسماعيل يموت عطشا عند بيت الله المحرم ، فأحدث تهرول بين الصفا
والمروة لعبها تلمح قدما من بعيد يروى ضما إليها الذي أشرف على الهلاك من
شدة العطش .

وجعل الأنصار يسعون بين الصفا والمروة وقد اضطأنت قلوبهم فقد كانوا
يكرهون انصواف بين الصفا والمروة لأنها كانا من مشاعر قريش في الحاحلية

تركوه في الإسلام . فلما أرسل الله تعالى : « إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم » (١) . راحوا يسعون بينهما وقد أشرفت أهدتهم بأنوار اليقين .

وخرج رسول الله — ﷺ — من عمرته وتأهب للرجوع إلى المدينة . فجاء أبو سفيان بن حرب وصموان بن أمية وسهيل بن عمرو وشيبة بن عثمان ابن أبي طلحة وسادات بني المعيرة وحويطب بن عبد العزى ليودعوه وقد تعلقوا بأهدتهم به .

واستحلف عليه السلام عتاب بن أسيد على مكة وكان عمره عشرين سنة ، وحلف معه معد بن جبل يلقب بالناس ، ولما استعمل النبي — ﷺ — عتاب بن أسيد على مكة رزقه كل يوم درهما ، فقام فخطب الناس فقال : — أيها الناس ، أجمع الله كيد من جاع على درهمه ، فقد رزقني رسول الله — ﷺ — درهما كل يوم فبيست في حاجة إلى أحد .

وخرج عليه السلام من مكة ووقف أهدبها يودعوه وفي القلوب لوعة وفي المآقي عبرات ، وخرج معه عمه العباس بن عبد المطلب فلم يعد هناك ما يقعه في أم أقرى بعد أن هدى الله أهدبها إلى الإسلام . وكانت أم سلمة في هودج وميمونة أم المؤمنين في هودج وانطلقا لركب قاصدا المدينة فسلط عليه السلام في وادي الحجرة حتى خرج على مشرف فإذا بكريات حبيبة تتراحم في رأس ميمونة آخر ساء رسول الله — ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه .

إن أهدبها أم انفصل روح العباس عم النبي كانت أول امرأة آمنت برسول

الله — ﷺ — بعد خديجة ، ولطالما حدثها عن رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فهنا إليه فؤادها . ولم تكن أم الفصل وحدها هي التي ارتبطت بالإسلام من أهلها فأختها من أمها أسماء بنت عميس كانت روح جعفر بن أبي طالب وقد تزوجت من بعده أبا بكر الصديق ، وأختها سلمى بنت عميس كانت روح حمزة بن عبد المطلب ، وكانت أمهن جميعا هدى بنت عوف بن زهير : إنها أكرم عجوز في مكة ، ولو أن الأساس قد ارتبطت بين إحدى بناتها ورسول الله عليه السلام لأصبحت أكرم عجوز في الأرض أصهارا .

كان اسمها مرة وقد مات عنها زوجها أبو رهم بن عبد العزى العامري . إنها ما إن استمعت إلى حذاء عبد الله بن ربيعة يوم أن جاء أحدا بخطام باقة رسول الله عليه السلام بعد صلح الحديبية ليضوف المسلمون بالحرم ، وما إن ملأت عينها من السلى — صلوات الله وسلامه عليه — حتى استولت عنها فكرة أن تنال شرف الزواج من نبي الله وأن تصيح أما للمؤمنين — وما يمنعها أن تحقق حلمها الذي طالما راودها في يقظتها وهي أخت أم الفضل وأسماء بنت عميس وسلمى بنت عميس الأخوات المؤمنات ؟!

إنها همست بسر قلبها إلى أم الفضل وقصت أم الفضل على العباس سريرة ، فاطلق العباس إلى ابن أخيه عليه السلام يعرض عليه الزواج من مرة التي وهت نفسها للنبي . وعاد إليها العباس وقد تهلل باليشر فحقق قلبها سرورا امترح بخوف ، فقد قرأت في وجهه القبول ولكنها كانت متلهفة على أن تنتقط أودها الخبر السار الذي يخرج من بين شفتيه

وقال العباس إن رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — قد استجاب لعرض ، فإسابتها شدة وأحست أنها قد رنعت حتى كادت تلمس نجوم

السماء ، فإنه لشرف ما بعده شرف أن تصبح أم المؤمنين ولما تتجاوز السادسة والعشرين ، وإنه لشرف لأمرها المحور فستصبح بعد أن يتروح عليه السلام ابتها مرة أكرم عجوز في الأرض أصهارا .

وتذكرت ذلك اليوم الأعر الذي خرجت فيه من مكة في صحبة أنى رافع مولى رسول الله عليه السلام لتلحق بالمسلمين . إن قبها ضريت ها في سرف وقد بنى بها رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — في هذه البقعة الماركة وسماها هنا ميمونة ؟ فقد كان زواجه بها في الخامسة الميمونة التي دخل فيها مكة لأول مرة منذ أن حرح منها مهاجرا في سيل الله .

وراحت ميمونة تدير عينها في المكان وهي في قمة الشوة . إن روحها قد هفت إلى سرف وإن قدرها قد حدد ها في سرف وإن مكاتها التي نانتها كانت بفضل ما كان بينها وبين الرسول عليه السلام في سرف . فأصبحت سرف هي مهوى العواد وإها لثرحو أن تكون مثواها الأخير لما يحين الحين لتندس في التراب .

وأخذ المسلمون الطريق إلى مر الطهران وراحوا يقلون وجوههم في ملكوت الله ، ينعمون بمشاهدة جماله وجلاله ويقطعون إليه ويتوكلون عيه ويلجحون بالثناء عليه أن بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويركهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قلى نفى صلال مبين .

وسار رسول الله — ﷺ — على ناقته القصواء متواصعا لله قد سده الله لكل حمين ، ووهب له كل خنق كريم ، وجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة مقوله ، والصدق والوفاء طبيعته ، والغفو والمعروف حنقه ، والعدل سيرته ، وإحق شريعته ، وأهدى إمامه ، والإسلام ملته ، ونناه حكمة وعلما ، وفتح به أعيا عميا ، وقلوبنا عنما .

وآذانا صما ، وجعله رحيما بالمؤمنين ، رحمة للعالمين ، سمحا سهلا برا طلقا لطيفا ، ولو كان أمام الصادقين والصديقين فظا غليظ القلب لانفص الناس من حوله .

وانحدر المسلمون إلى مجنة فساق رسول الله ﷺ — ما بقى من الفىء — ليقسمه على فقراء المدينة ، فما خطر له على قلب أن يبقه لنفسه ولأهل بيته فقد احتار جوع الدنيا على شعها وفقر الدنيا على غناها وحزن الدنيا على فرحها ؛ فالدنيا لا تنفى لمحمد ولا لآل محمد ، إنه لم يشع هو ولا أهل بيته عدوة إلا جاعوا عشية ، ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة ، وإنه لم يشع من اتهم هو وأهله حتى فتح الله عليه خير .

شعبة وجوعتان ، كان هذا حاله وحال أهل بيته مذ حمل أمانه البينة ، وقد أفاء الله عليه الخير العميم فكان له الخمس من الغنائم وما أكثرها ، وكان الخمس مردودا على الناس ، وكان نصيبه في هوازن آلاف الرعوس قسمها على حديثي العهد بالإسلام ليؤلف قلوبهم ، وساق ما بقى من الفىء إلى المدينة ليقسمه بين المحتاجين ثم يعود سيرته الأولى : شعبة وجوعتان . فقد آثر أن يجوع يوما ويشبع يوما ، فأما اليوم الذى يجوع فيه فيتضرع إلى الله ويدعوه ، وأما اليوم الذى يشبع فيه فيحمد الله ويشى عليه .

واطلق رحل على ظهر جواده يهب الأرض حتى دخل المدينة فقال إن رسول الله ﷺ — قد أقبل بعد أن فتح الله عليه مكة وهزم هوازن في حنين ، فانطلق الناس فرحين مستبشرين ليستقبلوا رسول الله ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه ، وصعدت السوة على أسطح الدور ليشاهدن نبي الله وقد عاد مكللا بالبصر . وتقدمت حيل الله تتير القمع ، ورأى المسلمون الرسول عليه السلام على ناقته القصواء وقد طأطأ رأسه تواصعا لله ، فحجب الرجال إلى

صاحب الجمل الأحمر يسمون عليه وفي القلوب أشواق وفي الوجوه إشراق ، وارتفعت صيحات الترحيب من على جانبي الطريق ومن فوق الأشجار ومن الدور ، وعادت الذكريات إلى ذلك اليوم الذي أقبل رسول الله — ﷺ — مهاجراً مع صديقه أبي بكر . أين هذا اليوم من ذلك اليوم ؟ فقد كانا وحيدين ولم يكن الناس يعرفون أيهما رسول الله ، أما اليوم فالأعين كلها قد تعلقت ببي الله الذي نصره الله وقد ملأت أنواره جوامع الصدور ، وأخرج أقوامه من الظلمات إلى النور .

وكان عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين بين المستقبلين قد اعتصب ابتسامة ترحيب بعد أن طوى نفسه على مرض قلبه ، إنه قد امتلأ حقداً على رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — وعلى المسلمين ، وقد راد في حقه ذلك النصر المين الذي توح هامات المؤمنين ، فمكة قد فتحت قلوبها قبل أبوابها للرجل الذي اغتصب منه المجد التليد ، فالأوس والخررج كادوا أن يضعوا على رأسه الناح لولا أن جاء ابن عبد الله إلى يثرب بالدين الحديد الذي بهر الناس وجعلهم عنه يعرضون .

إنه لا يستطيع أن ينسى أن محمداً هو الذي حرمة الناح مهما مصت السون ، وإنه يعيش على أمل واحد ، أن يرى هزيمة محمد قل أن يموت . فإن كان محمد قد فتح مكة فإن الروم قد أحسوا خطره وإهم ليجمعون الجموع ليقتضوا على ذلك الذي وحد العرب قل أن يصبحوا بفصل تعاليم محمد أمة تهدد مصالح الروم في المنطقة .

وعانق عبد الله بن أبي بن سلول رسول الله — ﷺ — وهناك بالفتح وإن كان يترصد به الدوائر وبالمسلمين . وانتهى الاستقبال الحار وانصرف الرجال إلى أهلهم ، وانطلق رسول الله — ﷺ — إلى دار فاطمة ليروها ويقبل الحسن والحسين قل أن يدور على أزواجه ، فقد كان بيت الرهراء أول ما يبدأ به .

سار أبو العاص بن الربيع إلى داره وقد أمسك في يده ابنه علي ، وراح أبو العاص يتلفت بطرات رائعة لا تستقر عيناه على شيء ، فلما دنا من الباب انقبض صدره وخفق قلبه أسى وترقرقت الدموع في مقلتيه ، ولولا ابنه الصغير الذي أردفه خلفه جده العظيم رسول الله ﷺ — يوم فتح مكة لأجهش بالبكاء .

ودخل الدار فإذا بها ساكنة سكون القبور ، وإذا بها مظلمة وإن فاضت فيها أشعة شمس النهار ، وإذا بها موحشة بلا حياة فقد ذهبت الحبيبة التي كانت نبض بهجته وأنعاس سروره وروح أسه وفؤاد دنياه . واستشعر رغبة في أن يشم عبر ذكراها فانطلق إلى حيث كانت قلاذتها ، تلك القلاذة التي كانت لحالته حديحة والتي أدخلتها بها عليه حين بسى عليها فأخرجها وجعل ينظر إليها في وجد ورق هارقة شديدة ، وبلغ انفعاله متناه فلم يستطع أن يحبس عبراته فحررت على خديه حتى بليت لحيته . فدما رأى على بكاء أبيه استعر ، فضمه أبو العاص إليه في حنان وارتمى به على أول مقعد صادفه وهاجمته الذكريات . إنه يرى سادات قريش يمشون إليه فيقولون :

— فارق صاحبتك وحس بروحك أي امرأة من قريش شئت .

— لا والله إنى لا أفارق صاحبتى وما أحب أن لى بأمرانى امرأة من قريش .

ويرى نفسه وقد حرج صاديد قريش إلى بدر وهو فهم ؛ إنه أصيب في الأسارى فكان في المدينة عند رسول الله ﷺ ، وبعث أهل مكة في هداء

أسرائهم فبعثت زيب في فدائه بقلادتها . إنه يرى بخياله رسول الله — ﷺ — وقد رق رقة شديدة ، وإنه ليسمع في أغوار نفسه صوت رسول الله — ﷺ — الجمهورى العذب يقول :
— إن رأيتم أن تطلقوها أسيرها وتردوها عليها ما لها فافعلوا .

وراح يمسح رأس ابنه في حنان ويشمه في حب فهو بضعة منها ، وهو الدوحة المباركة من رسول الله — ﷺ — ، فإن كانت زيب قد مضت فقد بقى له منها على وإنه ليرجو أن يشب بطلا مثل على فارس الإسلام زوج خاتنه الزهراء .

وعادت إلى رأسه الذكريات ؛ إنه يرى نفسه وقد قفل راجعا إلى مكة فإذا بالحسية تهرع إليه لتضمه إلى صدرها في حب وفي عينها دمعتان حائرتان ومن بين شفتيها تندفق عبارات الترحيب وشكر الله على أن أعاده إليها سالما . وإذا به يسي في غمرة اللقاء الحار ما وعد به رسول الله لحظات ، ولكن سرعان ما أفاق من نشوته وقص عليها في أسى ما كان بينه وبين رسول الله عليه السلام ، فقد أخذ عليه أبوها أن يحل سبل زيب إليه .

إنه كان يحبها من أعماق قلبه وقد كانت تحبه بكل حاسة من حواسها ، ولكنها ما كانت تستطيع أن تعصى رعات أبيها — صلوات الله وسلامه عليه ، فتجهزت وخرجت يصحبها أخوه كنانة بن الربيع في رائحة النهار . إنه أحس وهي تخرج نياط قلبه تنقطع وأن الأرض قد مادت تحت قدميه وأن الدنيا قد أصبحت ظلاما في ظلام .

وخرج رجال من قريش في طلبها حتى أدركوها بدى طوى ، فروعها هبار بن الأسود بن المطلب روح أم هانيء بنت أبي طالب عم أبيها بالرحم . فلما ريعت طرحت ذا بطنها وعاد بها أخوه وهي تهريق الدماء . إنها لم تنزل تهريق

الدماء حتى ماتت ها في هذه الدار بين دراعيه .

وهب أبو العاص نائرا وراح يصصر على أنياه و غيظ ، فرسول الله —
عليه السلام — قد أهدر دم هبار لما فتح مكة وقد انطلق هو حلفه يبحث عنه ليشفى
غليل نفسه . ولكن هبارا قد فر ونجح إلى حبر في أن يفلت من عضيه . فإن
كان هبار قد فر مرعوبا في ذلك اليوم فلن يتركه طويلا يمشى على الأرض ، فلا
بد أن يطمر به فيقتله لعل النار التي تنلظى في أحشائه تهدأ .

إنه ذهب إلى همد أم هانيء بنت أبي طالب بعد أن أسلمت يسألها عن
زوجها فأخبرته أنه فر إلى نجران .

وقال حين بلغه إسلامها :

أشأقتك هند أم أتاك سؤلها	كذلك النوى أسبابها وانفتاها
وقد أرقى في رأس حصن ممنع	بنجران يسرى بعد ليل خياها
وعاذلة هست بليل تلومنى	وتعذلى بالليل ضل ضلاها
وتزعم أنى إن أطعت عشيرى	سأردى وهل يردى إلا زياها
فإنى لمن قوم إذا جد جدّهم	على أى حال أصبح اليوم حاها
وإنى لحام من وراء عشيرى	إذا كان من تحت العوالى ^(١) مجاها
وصارت بأيديها السيوف كأنها	مخاريق ^(٢) ولدان ومنها ظلاها
وإنى لأقل الحاسدين وفعلهم	على الله رزق نفسها وعياها
وإن كلام المرء فى غير كنهه	لكأنبل تهوى ليس فيها نصاها
فإن كنت قد تابعت دين محمد	وعظفت الأرحام منك جباها

(١) العوالى : الرماح .

(٢) مخاريق : المناويل تلف ليلعب بها .

فكوثى على أعلى سحيق مهيبة ململمة^(١) عبراء يبس بلالها
إنه فكر فى ذلك الحين أن ينطلق خلفه إلى حوران . ولولا أنه لم يشأ أن يدع
أبيه عليا الصغير بين يدي جده رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه —
حتى لا يشغله به لخرح يطلبه ليشأ منه . وراح يدرع المكان صاعدا هابطا
كأشد حبس فى قفص وقد تأججت فى صدره نار حقه وثارت دماؤه حارة
فى عروقه وارتسمت على وجهه ضراوة لم يكن لأحد بها عهد .

وحانت منه التفاتة نحو أبيه فألفاه يد إليه عييه فى قلق ، فذهب إليه
واحتواه بين ذراعيه وراح يمسح رأسه بيده فى حنان . وسرعان ما شرد
وامتنسلم لندكريات فقد ملأت رأسه صورته وقد أقبل قافلا من الشام ؛ إنه
كان يحصى الأرباح فإذا بسرية لرسول الله — ﷺ — تمحاء فتصيب مامعه
فيطلق ساقيه للريخ حتى يدخل المدينة . ونعت حح الليل يدخل على ريب
بست رسول الله — ﷺ — يستحير بها ، إنه لا يبسى كيف استقلته الروحة
الكريمة بعد غياب طال ست سنوات . إنها غمرته بعظمها حتى سكن روعه
وكان الفجر وسرى صوت بلال بالأذان كأنه السحر . إنه قد استشعر كأن
قبه قد انفتح نداء السماء ولولا حشيشته من أن يقال أسلم رهة لخرح إلى
رسول الله — ﷺ — وأعلى إسلامه .

ومس أذنيه صوت رسول الله — ﷺ — وهو يكر والناس يكررون
معه ، وجاء صوت ريب من أعماق الماضى وهى تصرح من صفة النساء :
— أيها الناس إني قد أحررت أما العاص بن الربيع .
وهرته الذكري من الرأس إلى القدم وأحدثه رقة فلم يستطع أن يمسك

دموعه عن الحريان ، وأرهفت حواسه وأعار الفضاء أديه كأنما يحاول أن يلتقط ما قال رسول الله ﷺ :

— أيها الناس هل سمعتم ما سمعت ؟

— نعم .

— أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم ، إنه يجير على المسلمين أدياهم .

وملأت صورة رسول الله ﷺ — وهو يدخل عليهما الأفق ، ورن صوته الجمهورى العذب في أعماقه فهزه هذا :

— أى بية ، أكرمى مثواه ، ولا يخلص إليك فإبك لا تحلين له .

وسمع طرقا حقيقا على الباب فأفاق من شروده وذهب ليرى من الطارق ، فوجد ابنته أمامة قد فتحت له ذراعها وتهلل وجهها بالفرح فاحتواها في صدره ثم رفعها بين ذراعيه وراح يغمرها بقلاته فرق قلبه وشفت نفسه حتى كاد يرى الراحلة العزيزة التى حبت منها الدار .

واعلمت أمامة من بين ذراعيه لما رأت أخاها عليا فانطلقت إليه تروى له ما كانت تفعله في دار حالتها فاطمة وأم كلثوم وتسمع منه ما فعله جدها العظيم لما فتح مكة وسار إلى هوازن والطائف . ولما رأى أبو العاص أهما قد شغلاعه انسل إلى القيع ليدرف على قبر ربيب بنت محمد دمة .

وعاد أبو العاص إلى الدار مضطجع النفس كسير المؤاد لا يستطيع أن يهرب من الذكريات التى كانت تنح عليه ، إنه يرى زبيب مسحاة في فراشها وقد فارقت الحياة وفاطمة الزهراء وأم كلثوم ونساء النبی يكيبن حولها . ويرى نفسه وقد أكب عليها يكي وينحب وهو يستشعر أن قطعت الأسباب بيه وبين الدنيا فقد كانت ربيب كل دنياه ، ورأى رسول الله ﷺ —

يكي ولا يقول إلا خيرا ، ورأى ابن خاله الزبير بن العوام وهو يرفعه عن الحبيبة التي تشبث بها ثم يواسيه وهو يخرج به إلى حيث كان صحابة رسول الله ﷺ

ووقف رسول الله ﷺ — على فراشها يستودعها الله ثم قال للنساء : — اغسلنها وترا : ثلاثا أو خمسا واجعن في الآخرة كاهورا .

ورنت في جنات الدار ضحكة أمانة الصغيرة فالتفت إلى حيث كان على وأمانة وهما سعيدان بحديثهما ، فحاول أن يتزع من نفسه ابتسامة ولكن عز عليه الابتسام وسرى في جوفه قول أحبه كنانة :

عجبت همار وأوباش^(١) قومهم يريدون إخفاري^(٢) بينت محمد ولست أبالي ما حيت ، عديدهم وما استجمعت قبضا يدي بالمهد؟

فأحس كأن نارا تشوى كبده ولم يطق المكث في الدار ، فخرج كالعاصفة لا يلوى على شيء ، يرحو أن يسقط همار ذات يوم في يده ليقبله نائرا لزينب لعل ذلك يشقى غليل نفسه .

ومرت الأيام وتأهب رسول الله ﷺ — للخروج إلى المسجد وأأس ابن مالك يحمدمه ، فقال له رسول الله ﷺ — :

— يا بني إن قدرت أن تصبح ونمسي ليس في قلبك غش لأحد فافعل . وصمت عليه السلام قليلا ثم قال :

— يا بني وذلك من ستي ، ومن آخي ستي فقد أحنى ، ومن أجنبي كان معي في الجمة .

(١) الأوباش : الأخطا والسفلة .

(٢) الإخفار : نقض المهد .

وخرج عليه السلام إلى المسجد فجاء إليه الحسن والحسين فيش لهما وأجلسهما إلى جواره وقال :

— اللهم إني أحبهما فأحبهما .

وجاءت إليه أمامة بنت زينب فصمها إليه وأخذ يقبلها في حب ، إياها تذكره بزيب وبأيام يتمه أيام أن كان في كنف جده عبد المطلب ثم عمه أبي طالب . ونظر أبو العاص بن الربيع إليهما فاستشعر راحة سرعان ما عاضت لما تذكر قول رسول الله — ﷺ : « إن لقيتم هباراً فأحرقوه » . ثم قوله عليه السلام : « إنما يعذب بالار رب الار : إن طعرتهم به فاقطعوا يده ورجله ثم اقتلوه » .

ودخل هبار مسجداً رسول الله — ﷺ — فإذا بأعين الناس تتعلق به ، وإدا بأبي العاص بن الربيع بهم بأن يهجم عليه ليقته . فرفع هبار صوته وقال : — يا محمد أنا جئت مقراً بالإسلام ، وأما أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله .

وشت الناس في أماكنهم وساد المكان صمت وقلق وتقدم هبار حتى بلغ النبي عليه السلام فقال :

— السلام عليك يا نبي الله .

به أعلى إسلامه وألقى السلام ، فرد عليه الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — السلام ، فاطمأن هبار على حياته فقال .

— لقد هربت منك في البلاد فأردت اللقوق بالأعاجم ، ثم ذكرت عائدتك وفصلك في صفحتك عمن جهل عليك . وكنا يا نبي الله أهل شرك فهدانا الله بك ، وأنقذنا بك من اهلكة ، فاصمح عن جهلي وعما كان مني فأني مقر بسوء فعل ، معترف بذنبي .

فالتفت — ﷺ — إليه وقال في صوت جهورى عذب :
— يا هار عموت عك وقد أحسن الله إليك حيث هداك للإسلام .
الإسلام يجب ما قبله .
وصفح النبى الكريم عن قاتل زهب العالية ولكن الناس لم يصفحوا عنه
فجعلوا يسبونهُ . فذكر ذلك لنبى — ﷺ — فقال :
— سب من سبك .
فانتروا عنه وحسن إسلامه .
وأهديت إلى رسول الله — ﷺ — هدية فيها قلادة من حزع فقال :
— لأدفعها إلى أحب أهل بى .
فأطرقت النساء أسفا وقلن :
— ذهبت بها ابنة أبى قحافة .
واعتقدت عائشة أن القلادة من نصيبها فهى تعرف مكانتها فى قلبه . ولكن
رسول الله — ﷺ — دعا أمانة بنت ربيب فأعنتها فى عفتها .

كان رسول الله ﷺ — يعمل عمل البيت ما يرى فارعا قط في بيته .
وأكثر ما يعمل الخياطة إما يخصف نعلا لرجل مسكين أو يخطط ثوبا لأرملة
وحاءت فاطمة الزهراء بكسرة خبر إليه فقال :
— ما هذه الكسرة يا فاطمة ؟

— قرص حبرته فلم تطب نفسي حتى أتيتك هذه الكسرة .

— أما به أول طعام دخل قم أيلك منذ ثلاثة أيام .

وخرج رسول الله ﷺ — إلى العالية على بعد ثلاثة أميال من المدينة
حيث كانت مارية في مشربتها . إنه أثرها أول ما حاءت من وادي النيل عمل
لخارثة بن العمان قرب المسجد ، فكان يكثر التردد عليها ويمكث لديها طويلا
مما أثار عائشة بنت الصديق . فحوها إلى العالية وكان يختلف إليها هناك فكان
ذلك أشد على نسائه — ﷺ .

ودات بنة أفصت مارية إلى سيدها الحبيب أنها قد حملت فاستقبل النبي
عليه السلام النبأ بحمد الله . وذاع الخبر في المدينة فانتشت النفوس باليسرى
وقامت نساء السى بوحوم وحرث وألم ، فقد كانت كل منهن تعيش في دور
السى على أمل أن تأتيه بالولد وأن تكون صاحبة الخط الأولى . فماضت
بطونهن وحادثت بطن مارية الحعدة الحميمة نهشت العيرة أفقده أمهات المؤمنين
فتقاربت رموس يا طائنا تباعدت ، وسرى همس ولز يتهم مارية في طهارتها ،
بن قصبا قد حاء معها من مصر فيما أهدها المقوقس إلى رسول الله ﷺ —

وأنه يأوى إليها ويأتمها بالماء والخطب فما الذى يحول بينه وبينها ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يحزم أنه لم يخلص إليها ؟

همس مسموم راح يرتفع حتى صار صاحبا ، وحديث إلك جديد يروح له المسافقون ويقولون :

— عالج يدخل على عجلة .

وبغ الاتهام مسماع رسول الله — ﷺ — فحزون ، فالفائدة من مصر كانت تقبل عليه بنفس راضية تبذل كل شيء فى سبيل مرضاته ، وما كان فى تصرفاتها معه ما يريب . إنها كانت تعرف للرسالة وللرسول مكانتهما وكانت تتהלل بالفرح كلما ذكرت أنها أصبحت كسساء الأسياء اللاتى تفيض بأخبارهن التوراة ، وأنها ستهب للرسول عليه السلام قرعة عين له . فقد كانت تلمس حذبه على أحفاده الحسن والحسين وعلى وأمامة وحبه لأطفال المسلمين ، فكانت تفعم بالسرور كلما حدثت رسول الله — صدىات الله وسلامه عليه — عن ذلك الذى فى بطنها الذى سيكون له عزاء وسلوى عن أولاده وبناته الذين قبرهم .

أكان حديثها كدبا وفرحها رياء ؟ إنه يحس أنها كانت صادقة فى كل كلمة خرجت من بين شفتيها . ولكن أقوال السوء كانت تؤذيه فراح ياجى على ابن أبى طالب ويته شكوكه ، فأحد على سبعة وانطلق عاضبا إلى حيث كان ذلك الرجل القبطى الذى أساء إلى رسوله وقائده وحبيه .

ووجده على نخلة فاستل سيفه وهم بأن يتسلق ليطيح برأسه ، ونظر القبطى فرأى الشر فى عينى فارس الإسلام الذى كانت صرياته وترا فارنعت فرائضه . إن الحمس كان قد سرى إلى أذنيه وإن أصابع الاتهام قد رفعت فى وجهه فما شئت لحظة فى أن ابن أبى طالب قد جاء ليقتله .

وأخذ القبطي يتلفت مرعوباً لا يدري أين المفر ، وراح يتسلى ما بقى من
السخلة في فزع وألقى الرداء الذي كان يستره فعمرى فإذا به محبوب ، فأعاد
على كرم الله وجهه سيمه إلى غمده وانقلب إلى رسول الله — ﷺ — بحره
بما رأى .

ما أبشع مرحفى السوء حاصوا في حديث الإفك لما اتهموا عائشة بصموان وقد
نزلت براءتها من فوق سبع سموات ، واتهموا مارية بنت شمعون في رجل
محبوب ، وما أقسى ما قاسى عليه السلام من آلام نفسه الرقيقة الشفافة
الحساسة التى جرحتها أقاويل منافقين يعمون بالسرور لما تشيع الفاحشة بين
الناس .

وحاف عليه السلام على المصرية التى وعدت إلى أرض الحجار كما وفدت
من قل هاجر المصرية وليدة أبيه إبراهيم حبل الرحمن فقلها إلى العالية على
ثلاثة أميال من المدينة ، وراح عليه السلام يعنى بها حتى إذا عاد إلى دوره
تركها في رعاية أختها سيرين .

وبلع عليه السلام وادى القف واصطق إلى مشربة مارية ، فألقى مارية في
فراشها تنلوى من الألم وإلى حوارها سيرين ، فما إن سمعت صوته وهو يبنى
عليهما السلام حتى رقت على شفتيها ابتسامة وعاض من وجهها كل جهد ،
فهى تستشعر سعادة عامرة كلما أشرق عليها ، وكان الأوس به يلسم الروح
وأفاس الحياة .

وما أسرع الساعات التى مرت وهو إلى حوارها . إن المصرية البيضاء
الجمدة التى جمعت سحر مصر وجمال الرومان كانت تسمى بكل عواطفها أن
ينى معها حتى تصع ما في بطها ، ولكنها تعلمت مد سعدت به أنه وإن كان
يحدث على نسائه إلا أن واحدة منهن تستطيع أن تستأثر به وأن تغدعه عن

تأدية رسالته . كى جميعا يعلم أن هواء مع ربه وأن لو وضعت الشمس في يمينه والقمر في يساره على أن يترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو يهلك فيه ما تركه .

وقام عليه السلام وهو يدعو لمارية بالخير ، وركب حماره وسار ليعود إلى المدينة وهو يفكر في الخلع فقد كان الشهر ذا الحجة وكان الناس هناك في مكة يطوفون حول أول بيت وضع للناس وقد تظهر من الأصنام . إن حلم حياته قد تحقق فقد عادت منارة التوحيد كما كانت بيتا لله وحده لا شريك له ، فأطرق برأسه تواضعا لله رب الناس إله الناس .

ودخل داره ودعا سلمى مولاته امرأة أبي رافع . إنها كانت مولدة الحسن والحسين وابنه عليه السلام يريد أن تكون قابلة مارية ، وأمرها أن تخرج إلى حبة لتكون إلى حوار فتاته المصرية ، فانطلقت سسمى وأبو رافع معها وهي تدعو الله أن يمس على رسوله بعلام تقر به عينه ، فهي ترى حبه الشديد لأحفاده وأبناء المسلمين .

ووضعت مارية علما زكيا فراح أبو رافع يشهد حتى دخل مسجد الرسول فألقاه عليه السلام يتعبد في محرابه ، فانتظر وهو يتململ من الأفعال حتى إذا ما انتهى — صلوات الله وسلامه عليه — من صلاته هرع إليه أبو رافع وقال له وهو يتهلل بالفرح إن مارية قد وضعت علما . فاشرح صدره عليه السلام واستطعت أساريره ووهب لمن جاءه باليشرى عبدا ، ثم انطلق إلى العالية وهو مفعه بأسرور ، ودخل على مارية وقد رقت على شعبته أعذب استسامة . وبعد أن حمد الله على سلامتها مال على الوالدة والوليد وحمل الصغير في رفق وقد جاد الفؤاد بأرق المشاعر ، ورفع يديه حتى أداه من فيه وقبله قبلة أودعها حنان قلبه الكبير .

وعاد إلى مسجده ، فلما جاء إليه أصحابه قال :
 — ولد لي الليلة علام فسميته بأسم ابني إبراهيم .
 وعمر المذبة سرور ، ووجعت أمهات المسنين وأطلقت بعضهن لسانها
 في مارية من العيرة ، فساورت رسول الله ﷺ — بعض الريب ، فجاهه
 جبريل فقال :

— السلام عليك يا أبا إبراهيم .
 فاطمان رسول الله ﷺ — وفرح برحمة ربه .
 وتأهب رسول الله ﷺ — لنذهاب إلى أم إبراهيم . وقال قاتل إن
 رسول الله عليه السلام مطلق إلى مولاته ، فقال صلوات الله وسلامه عليه :
 — أعنتها ولدها .

وأطال عليه السلام المكث في مشربة أم إبراهيم ، فهو يحس سعادة عارمة
 كلما مد عييه إلى وده ، فلما كان يوم ساعه عق^(١) عه بكش وحق رأسه
 وتصدق بورن شعره قصة على المساكين ، وأحدوا شعره ودموه في الأرض .
 وتنافسست الأنصار فيمن يرصعه ، فحاجت أم برده بنت النضر بن زيد
 الأنصاري زوجة البراء بن أوس فكلمت رسول الله ﷺ — في أن ترضعه
 بلبن انها في بني مارن بن الحار و ترجع به إلى أمه .

وأخذته أم سيف لترصعه وكان روحها حدادا ، وفي ذات يوم انطلق
 رسول الله ﷺ — واطلق معه أس بن مالك فصادها أبا سيف يمح في
 كبره وقد امتلأ البيت دحانا ، فأمرع أس في المشي بين يدي رسول الله ﷺ —
 حتى انتهى إلى أبي سيف فقال :

(١) عق — دبح عقيقة وهي شاة تسمى تدبح يوم أسوخ الولد ، وقال عليه الصلاة
 والسلام قولوا سيكة ولا تقولوا عقيقة .

— يا أبا سيف أمسك ، جاء رسول الله ﷺ .

فأمسك فدعا رسول الله ﷺ — بالصبي فضمه إليه ، ثم انطلق به إلى دوره فدخل به على استه الرهراء فاستقيته بالقبلات وهرع الحسن والحسين يشاهدان الصغير ويناحياه . إنه قد ملأ الدار حورا وإن آل علي بن أبي طالب ليرون فيه قطعة حبيبة من حبيبهم السبي — صلوات الله وسلامه عليه ، وغمرت رسول الله ﷺ — سعادة بددت إلى حين ذلك الحزن الدفين الذي لازمه طوال حياته .

وحمل إبراهيم الغالي بين يديه وهو مسرور ودخل به على عائشة ، إنها ما غارت على امرأة إلا دون ما غارت على مارية وذلك أنها كانت جميلة جمعة فأعجب بها الرسول ﷺ ، فكان عامة الليل والنهار عندها فحزرت ، فلما حول مارية إلى العالية وكان يخنف إليها هناك كان ذلك أشد عليها ، وزادت غيرها ضراما لما ررق الله رسوله الولد وحرمها منه .

وقدم عليه السلام إبراهيم إلى عائشة لترى مقدار ما بينهما من شبه ، فقالت :

— ما أرى بينك وبينه شبا !

وتوجت شفتي رسول الله عليه السلام بسمه هادئة لا يعكرها شك ، فقد قال له أمي الوحى : السلام عليك يا أبا إبراهيم . فعرف مؤاده الطمأنينة مد ذلك اليوم . ولم يحقد على عائشة فإنه كان يعفر ضعف الإنسان فما بالك بعائشة التي كان يوسع لها العنبر ويقول كلما اشتطت بها العيرة : : ويحها لو استطاعت ما فعلت .

كان رسول الله ﷺ — يحها وكان ساء رسول الله ﷺ — حرين . فحزب فيه عائشة وحمصة وصفية وسودة ، والحرب الآخر أم

سلمة وسائر نساء السبي — ﷺ . وكان المسمومون قد عجموا حب رسول الله — ﷺ — عائشة ، فإذا كانت بعد أحدهم هدية يريد أن يهديها إلى رسول الله — ﷺ — أحرها حتى إذا كان رسول الله — ﷺ — في بيت عائشة بعث صاحب الهدية إلى رسول الله — ﷺ — في بيت عائشة ، فكلم حزب أم سلمة أم سلمة فقلن لها :

— كلمي رسول الله — ﷺ — يكلم الناس فيقول : من أراد أن يهدي إلى رسول الله — ﷺ — هدية فليهد إليه حيث كان من بيوت نسائه .
فكلمته أم سلمة بما قلن فلم يقل لها شيئا ، فسألها فقالت :

— ما قال لي شيئا .

فقنن لها :

— فكلميه .

فكلمته حين دار إليها أيضا فلم يقل لها شيئا ، فسألها فقالت :

— ما قال لي شيئا .

— كلميه حتى يكلمك .

فدار إليها فكلمته فقال لها :

— لا تؤذين في عائشة ، فإن الوحي لم يأتني وأنا في نوب امرأة إلا عائشة .

— أتوب إلى الله من ذاك يا رسول الله .

ثم إنهن دعون فاطمة بنت رسول الله — ﷺ — فأرسلت إلى رسول الله — ﷺ — تقول :

— إن نساءك يشددنك الله العدل في بيت أبي بكر

— أي بنية أنجبسي ؟

— نعم يا ألي .

— فأحبها .

كان يحب عائشة وكان يعلم أن الغيرة كثيرا ما تستبد بها ، فكان يقول لها :

— أعرتِ ؟

فتقول دون مداراة :

— وما لي .. ألا يغار مثلي على مثلك ؟

كانت تميم تدين بالخموسية وكانت تطلق على أبنائها أسماء فارسية ، وكانت على صلة طيبة بالمادرة فكان أهلها يعتقدون أنهم أكثر حصارة من سائر قبائل العرب ، وكانوا كثيرا ما يروون أقاصيص عن مجدهم فكانت أندية تفيض بأحاديث ما وقع لرحالهم في بلاط منوك لخم . إنهم يروون أن المنذر بن المنذر ابن ماء السماء قال ذات يوم وعده وفود العرب ، ودعا نردى أبيه محرق بن المنذر :

— نيلس هديس أعر العرب وأكرمهم حسا .

فأحجم الناس ، فقال أحيمر بن حلف التميمي :

— أنا لها .

قال الملك :

— بمادا ؟

— بأن مصر أكرم العرب وأعرها وأكثرها عديدا ، وإن تميما كاهنها

(أعلاها) وأكثرها ، وأن بيتها وعددها في بني سهدلة بن عوف وهو حدى .

— هذا أنت في أصلك وعشيرتك ، فكيف أنت لى في عترتك وأدانيك ؟

— أنا أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة .

فدفعها إليه .

وكانوا يفتخرون أن عتاب بن هرمى بن رياح منهم ، كانت له ردافة الملوك

ملوك آل المنذر ، وردافة الملك أن يشئ به في الشرب وإذا غاب الملك جمعه في

مجلسه ، وكانوا لا يطبقون أن يعتخر حتى آخر في أنديتهم ، قال بنو كلب بن وبرة :

— نحن لباب العرب وقلبها ، ونحن الدين لا نازع حسبا وكرما .
فقال لهم شيخ منهم :

— إن العرب غير مقرة لكم بذلك .. إن لها أحسابا وإن منها لبابا وإن لها فعلا ، ولكن ابعثوا مائة منكم في أحسن هيئة وبزة يُقَرُّون من مروا به من العرب ويسألوه عشر ديات ولا يتسول له ، فمن قراهم وبدل لهم الديات فهو الكريم الذي لا يارع فضلا .

فخرجوا حتى قدموا أرض تميم وأسد فقرأوا الأحياء حيا فحيا وماء فماء لا يجدون أحدا على ما يريدون ، حتى مروا على أكنم بن صيفى فسأله ذلك فقال :

— من هؤلاء القتل ؟ ومن أنتم ؟ وما قصتكم ؟ فإن لكم لسانا باختلافكم في كلامكم !

فعدلوا عنه ثم مروا بقتية بن الحارث بن شهاب اليربوعي فسأله عن ذلك فقال :

— من أنتم ؟

— من كلب بن وبرة .

— إني لأبغى كلنا بدم ، فإن أنسلح الأشهر الحرم وأنتم بهذه الأرض وأدر ككم الحيل نكلت بكم وأنكلكم أمهاتكم .

فخرجوا من عنده مرعوبين ، فمروا بعطاردين حاجب ابن ررارة فسأله ذلك فقال :

— قولوا بيانا وحدوها .

فقالوا :

— من هذا فقد سألكم قبل أن يعطيكم .

فتركوه ومروا بينى مجاشع بن دارم فأتوا على واد قد امتلأ إبلا فيها غالب
اس صبعصة يطل منها إبلا بالقطران ، فسألوه البقرى والديئات فقال :

— هاكم البزل قبل النزول فابتروها من البرك وحوروا دياتكم ثم انزلوا .
فنزّلوا وأخبروه بالحال وقالوا :

— أرشدك الله من سيد قوم ! لقد أرحتنا من طول النصب ، ولو علمنا
لقصدنا إليك .

فقال ابنه الفرزدق مفتخرا :

فله عيا من رأى مثل غالب	قرى مائة صيفا ولم يتكلم
وإذا نحت كلبا على الناس إهم	أحق بناح الماجد المتكرم
فلم يجل عن أحسامها غير غالب	حرى بعاني كل أبيع حضرم ^(١)

وكانوا يصحرون بأن نياش بن ررارة أبا هالة كان روحا خديجة بنت عويلد
قبل أن يتزوجها محمد بن عبد الله ، وأن منهم أحكم العرب في زمانه أكرم من
صيفى أكثر العرب حكما ومثلا وموعظة سائرة .

وكانوا يقولون إهم أوفى العرب لأن حاجب بن ررارة رهن قومه عن
العرب كدها عند كسرى وأوفى ، وإهم أحلم العرب لأن منهم الأحنف بن
قيس وكان يضرب به المثل حلما ، وأسود العرب لأن قيس بن عاصم كان
سيد أهل الوبر وكان قيس هو الذى شرع وأد البات حشية العار بعد أن كان
الوآد فيهم حشية الإملاق ، فقد أعار للحميون على بنى تميم وسواساء كانت

(١) الأبيع : الوصح والحصرم . الخوارج المنعطف .

فبين ابنة قيس بن عاصم ، فانطلق قيس وبعض رجال بني تميم إلى ملث
 اللخميين يطلبون نساءهم ، فخير الملك النسوة بين أسرهم وأهلهم فاختارت
 ابنة قيس أسرها على زوجها ، فعاد قيس بن عاصم وقد أسود وجهه من الغبط
 وراح يدس البسات في التراب حشية أن يحلن له العار كما جلبته له ابنته من قبل ،
 وأصبح وأد البسات حشية العار مألوفاً في بني تميم .

كان بنو تميم يعتقدون أنهم أعظم قبائل العرب حضارة .
 فلما طهر الإسلام في المدينة وانتشر في القبائل التي حولها أعرضوا عن ذلك
 الدين فهم يدينون بدين فارس إحدى الإمبراطوريتين العظيمتين اللتين
 تنافسان على سيادة العالم . فأثب ذلك الدين الشئ من دين تشرىوت ناره
 في المشارق والمغارب ١٩

واعتق سادات تميم الدين الحديد قبل فتح مكة ، وحرع الأقرع بن
 حابس التميمي مع رسول الله ﷺ — لما انطلق إلى أم القرى وحارب معه
 هوارل يوم حنين وحضر حصار الطائف ، وأعطاه عليه السلام مائة من الإبل
 لما قسم نصيبه من الفء على المؤلفة قلوبهم . وعلى الرغم من رول النور إلى
 أئدة بعض بني تميم فإن القبيلة كلها طلت تتيه بضلاها وتاصب المسلمين
 العداء ولم تكتم العداءة في القلوب بل بدت الغضاء من أفواههم واتسمت
 أفعالهم بالتحدى المكشوف .

كان رسول الله ﷺ — قد بعث بشر بن سعيان على صدقات بني
 كعب بن حراة ، فحاء وقد حل بنواحيهم بو عمرو بن حذب بن الصر بن
 عمرو بن تميم ، فجمعت حراة مواشيها للصدقة فاستكرت ذلك بو تميم
 وأبوا وانتدروا القسى وشهروا السيوف ، فقدم بشر على رسول الله ﷺ —
 فأحبره فقال :

— من هؤلاء القوم ؟

فاندب لهم عيبة بن حصص فعثه في الحرم ستة تسع من مهاجرة في خمسين فارسا من العرب ليس فيهم مهاجرة ولا أنصاري .

وانطلق عيبة يسير الليل ويكمن النهار حتى إذا ما بلغ صحراء بين السقيا وأرض بني تميم رأى رجلا قد حلوا أماشيتهم وسرحوها . إيهام من تميم . فبهجم عليهم فلما رأى الرجال فرسان المسلمين ولوا لا يلوون على شيء ، وحذ عيبة في أثرهم فأخذ أحد عشر رجلا . ووجد في إحدى عشرة امرأة وثماني صبا فحلهم إلى المدينة ، فأمرهم رسول الله — ﷺ — فحبسوا في دار رمة بست الحارث ، فقدم فيهم عدة من رؤسائهم : عطاردة بن حاحب والبرقان بن بدر وقيس بن عاصم ورياح بن الحارث بن محاشع والأقرع بن حابس وقيس بن الحارث وبعير بن سعد وعمر بن الأهم ورجل من ساداتهم .

ودخلوا المسجد وقد أدن بلال باظهر وأحس يتنظرون خروج رسول الله — ﷺ — فمحبوا واستنصوه فادوا رسول الله — ﷺ — من وراء حجرته .

— يا محمد ! أخرج إليا

فخرج رسول الله — ﷺ — وأقام ثلاث صلاة فقص رسول الله — ﷺ — الظهر . ثم أتوه وراحوا يتحدثونه وقيس بن عاصم يرقب رسول الله في هتفه ؛ كان عاقلا حليما وكان على دين قومه فأحس وقد أتى إلى رسول الله عليه السلام سمعه أن يورا يتسلل إلى قلبه ، وأن الله قد شرح للإسلام صدره فقال في أفعال .

— تشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

فقبله رسول الله — ﷺ — .

— هذا سيد الوبر .

وحاء الحسن بن علي فاستقبله رسول الله ﷺ — بالبشر وقله ، فقال الأقرع بن حابس :

— إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا .

فظر إليه رسول الله ﷺ — ثم قال :

— من لا يرحم لا يرحم .

ورد عليهم الأسرى والسبي ، وتذكر قيس بن عاصم ما كان منه من وأد البسات إنه كان شريفا في قومه وكان ذا مال فما كان يذهب خشية إملاق بل خشية العار ، وقد سن هو هذه السة فراح يسأل رسول الله ﷺ — عن حكم الإسلام فيما فعله فقال له — صلوات الله وسلامه عليه :

— الإسلام يجب ما قبله

فاستبشر قيس وأمر رسول الله ﷺ — لهم بالحوائر كما كان يحيز الوعد ، ثنتي عشرة أوقية ونشاً^(١) وهي خمسمائة درهم . وكان عمرو بن الأهم قد خلعه القوم في إبلهم وكان أصغرهم سنا ، فقال قيس بن عاصم وكان يكره عمرو بن الأهم :

— يا رسول الله إنه قد كان رجل ما في رجالنا وهو علام حدث وأررى

به .

فأعطاه رسول الله ﷺ — مثل ما أعطى القوم ، فلحق عمرو بن الأهم ما قاله قيس فيه فقال :

(١) الش : نصف أوقية .

ظلمت مفترش الهباء^(١) تشتتني عند النبی فلم تصدق ولم تصب
 إن نقصونا فإن الروم أصلکم والروم لا تملك البعضاء للعرب
 وإن سوددنا عود وسوددکم مؤخر عند أصل العجب^(٢) والذنب
 إنه نسه إلى الروم لأنه كان أحمر ، فنهاه النبي — ﷺ — وقال :
 — إن إسماعيل كان أحمر .

وقال الزبرقان يفتخر :
 — يا رسول الله . أنا سيد تميم والمطاع فيهم والمحاب مهم ، آخذ لهم
 بحقوقهم وأسمعهم من الظلم وهذا يعلم ذلك .
 وأشار إلى عمرو بن الأهتم فقال عمرو :
 — إنه شديد العارضة ، مانع لحايه ، مطاع في أدابه .
 فقال الزبرقان :

— والله لقد كذب يا رسول الله ، وما معه من أن يتكلم إلا الحسد
 — أنا أحسدك ؟! والله إنك ليح الخال ، حديث المال ، أحق تولد .
 مبعض في العشرة . والله ما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الثانية .
 فقال رسول الله — ﷺ :
 — إن من البيان لسحرا .

وعاد وقد تميم بالأسرى ، وانتشر الإسلام في الحى الذى كان يتيه بأن ديه
 المحوسية دين كسرى . وذات يوم قعد قيس بن عاصم بقاء داره محتيا بحماثل
 سبعة يحدث قومه ، فأتى برجل مكتوف وآحر مقتول فقبل له :

(١) الهباء : يعنى إسته .

(٢) العجب : أصل الذنب .

— هذا ابن أخيك قد قتل أبك .

فالتفت إلى ابن أخيه فقال :

— يا بن أخي بئس ما فعلت ! أئمت بربك وقطعت رحمك وقتلت ابن

عمك ورميت نفسك بسهمك .

ثم قال لابس له آخر :

— قم يا سي هوار أحاك وحل كتاف من عمك ، وسق إلى أمك مائة ناقة

دية ابنها .

مضى شهر ولم يستوقد آل محمد نارا ، إن هو إلا الحمر والماء . وما أكثر الليالي المتتابعة التي كان — ﷺ — يبيتها هو وأهله طائرين لا يحدون عشاء . ولم يمتلئ خوف السي — ﷺ — شيئا قط ولم يبت شكوى إلى أحد وكانت العاقبة أحب إليه من العسى وإن كان ليطل حائعا يلتوى طول ليلته من الجوع فلا يجمعه صيام يومه . ولو شاء لأبقى شيئا مما أفاء الله عليه من هوازن ولكنه لم يفعل بدنيا وكورها ، وكثيرا ما كان يقول :

— ما لي وللدنيا ؟ . حسب ابن آدم لقيمات يقمس صله .
وأرحى ليل أسناره وجمعت الكائنات فامتاك — ﷺ — ثم توصاً ثم قام يصلي حتى انتفحت قدماه ، فقيل له :
— أتكئف هذا وقد عمر لك ما تقدم من ذلك وما تأخر ؟
— أفلا أكون عبدا شكورا ؟

ودخل رسول الله عليه السلام داره فاستقبلته حفصة بالترحاب ، وهب ليلاه وكان فراشه مسحا تنبيه حفصة ثنتين فيام عليه فنته له تلك الليلة بأربع فلما أصبح قال :

— ما فرشموه لي الليلة ؟
فذكرت له حفصة أنها نمت أمسح بأربع . فقال عليه السلام :
— ردوه بحاله ، فإن وصاءه معنى الليلة صلاتي .
وخرج — ﷺ — إلى المسجد ، وجلس مضطربا في الأرض وهو متواصل

الأحزان دائم الفكرة ليست له راحة ، وجاءه على بن أبي طالب ليغترف من
كنور علمه فسأله عن سنته ، فقال عليه السلام :

— المعرفة رأس مالى ، والعقل أصل ديبى ، والحب أساسى ، والشوق
مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والثقة كسرى ، والحرر رفيقى ، والعلم
سلاحى ، والصبر رداى ، والرضا عيمنى ، والعجز فحرى ، والرهف
حرفتى ، واليقين قوى ، والصدق شفىعى ، والطاعة حسى ، والجهاد
مُخلقى ، وقرعة عينى فى الصلاة .

جزأ — صلوات الله وسلامه عليه — نهاره ثلاثة أجزاء : جزءا لله ،
وجزءا لأهله ، وجزءا لنفسه ، ثم جزأ جزءه بيه وبين الناس فكان يستعين
بالخاصة على العامة ويقول :

— أتعوا حاجة من لا يستطيع إبلاغى ، فإنه من أبلغ حاجة من لا يستطيع
إبلاعها أمه الله يوم الفرع الأكرم .

وكان رسول الله — ﷺ — أوفر الناس فى مجلسه ، كثير السكوت لا
يتكلم فى غير حاجة ، يعرض عن تكلم بغير حيل ، وكان صيحة تسما ،
وكلامه فصلا لا فضول ولا تقصير ، وكان صحت أصحابه عنده التيسر
توقيرا له واقتداء به ، وكان سكوته على أربع : على الجسم والجلد والتقدير
والتفكير .

وتأهب رسول الله — ﷺ — ليضيق إلى السوق فخرج أبو هريرة إليه ،
فقد انقطع لخدمة رسول الله — ﷺ — صلوات الله عليه ، وقد سأله رسول الله
دات يوم :

— لا تسأئنى من هذه لخدمتى بسأئنى أصحابك ؟

فقال أبو هريرة :

— أسألك أن تعلمنى مما علمك الله .
وعادر رسول الله عليه السلام المسجد وأبو هريرة متهلل الأسارير لأنه فى رفقة حبيبه رسول الله ، إنه يقول :
— ما رأيت شيئا قط أحسن من رسول الله — ﷺ — كأن الشمس تجري فى وجهه .
والتفت إلى النسي — ﷺ — وقال :
— يا رسول الله إني إذا رأيته طابت نفسى وقرت عيني ، فأنيئنى عن كل شيء .

— كل شيء خلق من ماء .
— يا رسول الله أبيئى عن أمر إذا أخذت به دخلت الجنة ؟
— أفش السلام ، وأطعم الطعام ، وصل الأرحام ، وقم بالليل والناس نيام ، ثم ادخل الجنة بسلام .
ومر — صلوات الله وسلامه عليه — على صبرة (كومة) طعام فأدخل يده فيها فالت أصابعه بدلا فقال :
— ما هذا يا صاحب الطعام ؟
— أصابته السماء يا رسول الله .
— أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ؟! من عشنا فليس ما .
وسار عليه السلام فى السوق وأبو هريرة معه ، فاشترى سراويل وقال للوزان :

— زن وأرجع .
ورأى الزران من رسول الله — ﷺ — كرم خلق ورحابة صدر ولبين .
حسب ، أصدق الناس لهجة وما أحد أحسن حلقا منه ، فوثب راحل إلى يد

البي — ﷺ — يقبها ، فجذب يده وقال :

— هذا تفعله الأعاحم بموكها ولست بمثلك . أنا رجل مكرم .

ثم أخذ السراويل فذهب أبو هريرة ليحمله ، فقال عليه السلام :

— صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله .

وعاد رسول الله — ﷺ — إلى مسجده ، فجاءت امرأة بردة فقالت :

— يا رسول الله إني نسجت هذه بيدي أكسوكها .

فأخذها البي — ﷺ — محتاجا إليها ، فخرج إلى الناس وإنها لزاره ،

فقال رجل بين القوم :

— يا رسول الله اكسبها .

— نعم .

فجلس النبي — ﷺ — في المجلس ، ثم رجع فطواها ثم أرسل بها إليه ،

فقال له القوم :

— ما أحسنت . سألتها بإياه لقد عمت أنه لا يرد سائلا .

— والله ما سأنته إلا لتكون كفى يوم أموت .

وكان ثعلبة بن حاطب الأنصاري قد أتى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا .

— ويحك يا ثعلبة ، قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه .

ثم قال مرة أخرى :

— أما ترعى أن تكون مثل سى الله ؟ هو الذى يمسى بيده نوسنت أن

تسيل معى الجبال فصاة وذهبا لسالت .

— والذى بعثت بالحق ش دعوت الله أن يرزقنى مالا لأوتين كل دى حق

حقه .

فقال رسول الله ﷺ :

— اللهم ارزق ثعلبة مالا .

فاتخذ عما فتمت كما يسمو الدود ، فضاقت عليه المدينة فطحى عنها .

ومرت الأيام وسأل رسول الله ﷺ :

— ما فعل ثعلبة ؟

— اتخذ غنا وضاقت عليه المدينة فطحى عنها فزل واديا من أوديتها حتى

جعل يصلى الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما ، ثم ثمت وكثرت حتى

ترك الصلاة إلى الجمعة وهي تنمو كما يسمو الدود حتى ترك الجمعة .

— يا ويح ثعلبة . يا ويح ثعلبة ، يا ويح ثعلبة .

وأُنزل الله تعالى : « حذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها وصل

عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم »^(١) . فبعث رسول الله —

ﷺ — رحلين على الصدقة : رجلا من حبيبة ورجلا من بني سليم وكتب

لهما كيف يأخذان الصدقة وقال لهما :

— مرا بثعلبة وبفلان رجلا من بني سليم ، فحذا صدقتهما .

فخرحا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرأه كتاب رسول الله عليه

الصلاة والسلام ، فقال :

— ما هذه إلا جربة . ما هذه إلا أخت الحزبة . ما أدري ما هذا ؟! انطلقا

حتى تفرعا ثم تعودا إلى .

فانطلقا وأحبرا السلمي فنظر إلى حبار أسان إبله فعرها للصدقة ثم

استقلهم بها ، فلما رأوها قالوا :

— ما يحب هذا عليك . وما يريد أن يأخذه مث .

— بلى أحوه فإن نسي بذلك طيبة ، وإنا هي إبل .

فأخذوها منه ، فلما فرغا من صدقتهما رجعا حتى مرا بثعلبة ، فقال :
— أروني كتابكما أنظر فيه .

فغظ فقال :

— ما هذه إلا أخت الجرية ، انطلقا حتى أرى رأيي .
فانطلقا حتى أتيا النبي عليه الصلاة والسلام ، فلما رأهما قال :
— يا ويح ثعلبة .

قبل أن يكلمهما ، ودعا للسلمي بالبركة ، وأخبروه بالذي صنع ثعلبة
والذي صنع السلمي ، فأنزل الله عز وجل في ثعلبة قرآنا وعد رسول الله ﷺ
رجل من أقاربه فسمع ذلك ، فخرج حتى أتى ثعلبة فقال :

— ويحك يا ثعلبة قد أرسل الله فيك : « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من
فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله تحموا به وتولوا
وهم معرضون . فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أحلفوا الله ما
وعدوه وما كانوا يكذبون » (١) .

فخرج ثعلبة حتى أتى النبي عليه الصلاة والسلام فسأله أن يقلل منه
صدقته ، فقال :

— إن الله قد منعني أن أقبل صدقتك .

فجعل يحمو التراب على رأسه ، فقال رسول الله ﷺ :

— هذا عملك ، قد أمرتك فلم تطعمي .

فما أتى أن يقلل منه شيئا رجع إلى مترله والدنيا في عينيه ظلمات بعضها
فوق بعض ، يلوم نفسه لأنه لم يطعم الرسول لما قال له : « ويحك يا ثعلبة ،
قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه » .

ارتفع صوت بلال يؤذن في عمارة الصبح ففتحت الدور في العالية
والسافلة وخرج الرجال والنساء والولدان في ثياب جديدة ، فقد كان اليوم
يوم عيد . وخرج رسول الله ﷺ إلى المصلى وخرج أهل بيته إلى
المسجد ، فلما قضيت الصلاة وانتهى عليه السلام من خطبة العيد وقد وعظ
الناس وأمرهم بالصدقة فقال :

— أيها الناس تصدقوا .

فمر على النساء فقال :

— تصدقن ولو من حليكن .

وكانت زيب امرأة عبد الله بن مسعود في المسجد ، وكانت زينب تنفق
على عبد الله وأيتام في حجرها ، فقالت لعبد الله :

— سل رسول الله ﷺ — أيجزى عني أن أفق عليك وعلى أيتام و
حجرى من الصدقة ؟

— سل أنت رسول الله ﷺ .

فانطلقت إلى السى — فوجدت امرأة من الأنصار على الباب
حاجتها مثل حاجتها ، فمر عليهما بلال فقالت كل منهما :

— سل السى — أيجزى عني أن أفق على زوجي وأيتام و
حجرى ؟

وقالنا لبلال :

— لا تخبر بنا .

كانتا تطلبان منه إلا يعين أسماءهما ولا يقل السائلة فلانة ، فدحل فسأله فقال عليه السلام :

— من هما ؟

— زينب .

— أى الزباب ؟

— امرأة عبد الله .

— نعم ولها أجران : أحر القرابة وأجر الصدقة .

وراح الناس يتصدقون فجاء هذا بتمره إلى رسول الله — ﷺ — وهذا من تمره حتى صار عنده كوما من تمر ، فجعل الحسن والحسين يلعبان بذلك التمر ، فأخذ الحسن ثمرة جعلها في فيه ، فقال النبي — ﷺ — :

— كخ كخ .

ليطرحها من فيه . ثم قال :

— أما شعرت أنا لا نأكل الصدقة ؟

وجاء ناس من الأنصار يسألون رسول الله — ﷺ — فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم حتى بعد ما عنده فقال :

— ما يكون عدى من خير فلن أدخره عنكم ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغفر يعفه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطى أحدا عطاء خيرا وأوسع من الصبر .

وجاء إليه عليه السلام أناس يشكون قالوا :

— مع ابن حميل وحالد بن الوليد وعباس بن عبد المطلب .

فقال النبي — ﷺ — :

— ما يقم ابن حميل إلا أنه كان فقيراً فأعماه الله ورسوله ، وأما خالد فإبكم
تظلمون حالداً قد احتبس أذراعه وأعتدّه في سبيل الله . وأما العباس بن عبد
المطلب فعم رسول الله — ﷺ — فهي عليه صدقة ومثلها معها .
كان أناس يسألون وأناس يسألون إلهافاً وأناس يستعففون حتى عن
العطاء ، فقد كان رسول الله — ﷺ — يعطي عمر العطاء فيقول :

— أعطه من هو أفقر إليه مني .

فيقول له رسول الله — ﷺ :

— حذّه ، إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل فخذّه
وما لا تُتبعه نفسك .

وراح الناس يمحسون العيد في يبرحاء وكانت بستاناً لأبي طلحة وكانت
أحب أمواله إليه ، وكانت يبرحاء مستقنة بالمسجد وكان رسول الله —
ﷺ — يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب ، فمما أُرثت آية ٥٠ لئن تالوا الر
حتى تنفقوا مما تحبون ^(١) . قام أبو طلحة إلى رسول الله — ﷺ —
فقال :

— يا رسول الله إن الله تبارك يقول : « لئن تالوا الر حتى تنفقوا مما
تحبون » . وإن أحب أموالي إلّتي يبرحاء وإياها صدقة لله أرجو برها ودخرها
عند الله ، فصعها يا رسول الله حيث أراك الله .
فقال رسول الله — ﷺ :

— يح ذلك مال رابع ، ذلك مال رابع ، وقد سمعت ما قلت ، وإن أرى
أن تجعلها في الأقربين .

(١) آل عمران ٩٢ .

فقال أبو طلحة :

— أفعل يا رسول الله .

فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبنى عمه .

وجاء الفقراء إلى النبي — ﷺ — فقالوا :

— ذهب أهل الدثور (الكثير) من الأموال بالدرجات العلا والبيع

المقيم ، يصلون كما صلى ويصومون كما نصوم ولهم فضل من أموال يحسون بها ويعتصرون ويجاهدون ويتصدقون .

— ألا أحدثكم بما إن أخذتم به أدركتم من سقمكم ولم يدرككم أحد بعدكم

وكنتم خير من أنتم بين ظهرايه إلا من عمل مثله ؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون حلف كل صلاة ثلاثا وثلاثين .

فاختلفوا بينهم فقال بعضهم :

— مسح ثلاثا وثلاثين وحمد ثلاثا وثلاثين وتكرأربعا وثلاثين .

مرجع إليه أبو هريرة فقال عليه السلام .

— تقول : سبحان الله والحمد لله وأكبر حتى يكون منهن ثلاثا

وثلاثين .

وكان رسول الله — ﷺ — قد استعمل عاملا ، فحاهه العامل حين فرغ

من عمله فقال :

— يا رسول الله هذا لكم وهذا أهدي لي .

فقال له :

— أهلا قعدت في بيت أهلك وأملك فطرت أيمدي لك أم لا ؟

ثم قام رسول الله — ﷺ — عشية بعد الصلاة فتشهد وأتى على الله بما

هو أهله ثم قال :

— أما بعد فما بال العامل يستعمله فإتيًا فيقول : هذا من عملكم وهذا أهدي لي ؟ أفلا فقد في بيت أبيه وأمه فطر هل يهدي له أم لا ؟ فوالذي نفسي محمد بيده لا يعمل أحدكم منها شيئًا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه إن كان بعيرًا جاء به له رغاء ، وإن كانت بقرة جاء بها لها خوار وإن كانت شاة جاء بها لها تيعر ، فقد بدعت .

وحاءت امرأة معها ابنتان عائشة تسأها فلم تحد عندها غير تمر واحدة فأعطتها . فقسمتها الأم بين ابنتيها ثم قامت فخرجت . فدخل النبي — صلى الله عليه وسلم — فحدثته فقال :

— من يلي من هذه السات شيئًا فأحسن إليهن كن له سترا من النار .
وتلقى عليه السلام هدية وهو في بيت عائشة ، فأرسل إلى كل روجة نصيب منها ، فردت ريس بنت ححش ما جاءها فقالت عائشة في شماتة ، فلم تكن واحدة من ساء السى — صلى الله عليه وسلم — تناصبها غير ريسب :
— لقد أقمأت^(١) وجهك حين ترد عنيت الهدية .

فقام عنها مغضبا وهو يقول :
— أنتن أهون على الله من أن تقمئنني .
كان عليه السلام يحبا وكان يعصب ويرضى وكانت تغضب وترضى ، وقد قال لها ذات يوم :

— إني لأعرف غضبك ورضاك .
— وكيف تعرف ذلك يا رسول الله ؟
— إنك إذا كنت راضية قلت : بلى ورب محمد ، وإذا كنت ساحطة

(١) أقمأت صمرت وأدست

قلت : لا ورب إبراهيم .

— أجل . لست أهاجر إلا اسمك .

وكان عليه السلام يزور كل يوم ابنته فاطمة الرهراء ويسعد بمداعبة الحسن والحسين وعحسن وربن وأم كلثوم ، وما كان يصرفه عنهم شاعل من شواغله الجسام . إنه كان سعيدا بآبائه إبراهيم وكان يصحه إلى صدره ويقبله ، ولكن حبه إبراهيم لم يطفئ على حبه الحسن والحسين ولم يؤثر في حبه لأمامة بنت رينب ، فقد كان يفرح على الناس وأمامة بنت أنى العاص على عاتقه فيصلى ، فإذا ركع وصعها وإذا رفع رفعها .

وحاءه أعراني وهو يقبل أحفاده فقال :

— أتقبلون الصبيان ؟ فما نقلهم .

فقال السى — عليه السلام :

— وأملت لئلا أرى برع الله من قسث الرحمة ؟

وراح — عليه السلام — يتحدث أصحابه في المسجد ويقول :

— مثل ومثل م. بعثى الله كمثلى رجل أنى قوما فقال : يا قوم إني رأيت

أحيش يعيسى وإى أنا النذير العريان فالسحاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأدخلوا فأطلقوا على مهلبهم فجوا ، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الحيش فأهلكهم واحتاحهم فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما حثت به ، ومثل من عصانى وكذب ما حثت به من الحق .

ورأى عمر على رجل حلة من إسترق فأنى بها السى — عليه السلام — فقال :

— يا رسول الله اشتري هذه فالبسها لو قد أساس إذا قدموا عليك

— إنما يلبس الحرير من لا خلاق له .

فمضى من ذلك ما مضى ثم إن السى — عليه السلام — بعث إلى عمر حلة .

فأتى بها السبي — ﷺ — فقال :

— بعثت إلى بهذه وقد قلت في مثلها ما قلت .

— إنما بعثت بها إليك لتصيب بها مالا .

ومرت الأيام وجلس رسول الله — ﷺ — في المسجد ومعه أسامة بن

زيد وسعد بن أبي وقاص وأبى ، فأرسلت إليه ابنة له :

— إن ابني قد احتصر فاشهدنا .

فأرسل يقرأ السلام ويقول :

— إن لله ما أخذ وما أعطى ، وكل شيء عنده مسمى فلتصبر وتحتسب .

فأرسلت إليه تقسم عليه فقام وقام معه أسامة وسعد وأبى ، فلما رفع إليه

فأقعده في حجرة ونفس الصبي تققع ، فاصت عيا رسول الله — ﷺ —

فقال سعد :

— ما هذا يا رسول الله ؟!

— هذا رحمة يصعبها الله في قلوب من يشاء من عباده .

ولما يرحم الله من عباده الرحماء .

كان زهير بن أبى سلمى يجالس أهل الكتاب ويسمع منهم أنه قد آن بعث خاتم الأنبياء ، ودخل زهير ذات ليلة وبام فرأى أنه قد مد بسبب من السماء وأنه مديده ليتناوله فقاته ، فأول رؤياه بالنبي عليه السلام الذى يبعث فى آخر الزمان وأنه لا يدركه .

وأحس زهير أن خيرا كثيرا قد فاته ، فرأى أن لا يفوت بيه فجمعهم وأخبرهم بحلمه وأوصاهم إن أدركوا النبي — ﷺ — أن يسلموا وأن يتبعوا النور الذى يأتى به ، فقد كان يريد لسيه هاء الدنيا وسعادة الأبد .

ودهب زهير بن أبى سلمى وقام رسول الله — ﷺ — يدعو الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له فآمن له من شرح الله قلوبهم للإسلام وناصبه العداء من عميت قلوبهم التى فى الصدور . وخرج يوما بجير بن زهير وكعب بن زهير فى عزم لهما ، وبلغهما أن رسول الله — ﷺ — يدعو الناس إلى ديه الحديد ، فقال بجير لأخيه كعب وقد تذكر وصية أبيه :

— اتت فى العزم حتى أتى هذا الرجل فأسمع كلامه وأعرف ما عنده . فأقام كعب ومضى بجير ، فأتى رسول الله — ﷺ — وسمع كلامه فأحس نشوة عارمة وكأل غشاوة قد رفعت عن عييه وأنه ارتفع حتى كاد يعاين ملكوت الله ، واستكبت أنوار اليقين فى قواده فإذا به يرى الوجود كله قد تألق بضياء ربانى يده بصيرته ، فقال وهو متعرج فى الله :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله :

وعاد إلى حيث كان أخوه كعب وهو يستشعر كأنما ولد من جديد . إنه ذهب ليلقي ممعه إلى النبي — ﷺ — وهو لا يدري سر وجوده ، فعاد من عنده وهو يحس أن حياته أصبحت لها معنى وأن له رسالة وسُعت أمامه آفاق دنياه ، فقد صار خليفة الله في الأرض .

وأخذ بجير يروى لأخيه كعب ما بهرهم من أمر رسول الله — ﷺ — وهو يطمع في إسلام أخيه ، ولكن كعباً أصم أذنيه عن النصح وأعرض في استنكار وسار في طريق الضلال .

وانتقل الإسلام من نصر إلى نصر وفتح رسول الله — ﷺ — مكة ودانت له قريش وانطلق لحرب هوازن وضرب الحصار على الطائف ، واستمر كعب يظلم المهجاء في نبي الإسلام — صلوات الله وسلامه عليه — وأخوه بجير في صفوت المسلمين يتألم لتردى كعب في الظلمات . فلما كان مصرفه عليه السلام من الطائف كتب بجير إلى أخيه كعب بن زهير يحمره بفتح مكة وأنه — ﷺ — قتل رجالاً بمكة ممن كان يهجوهم ويؤذيه ، وأن من بقي من شعراء قريش ابن الربعة وهيرة بن أبي وهب قد هربوا في كل وجه ، فإن كانت لك في نفسك حاجة فطر إلى رسول الله — ﷺ — فإنه لا يقتل أحداً حياءً ثائباً ، وإن أنت لم تفعل فأنح إلى بجائك من الأرض .

فلما بلغ كعباً الكتاب ضاقت به الأرض وأشفق على نفسه ، واهتل أعداؤه هذه الفرصة فحاضوا في أمره بما أمره فقالوا :

— هو مقتول .

فلما لم يجد من شيء بدا خرج حتى قدم المدينة فزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جهة ، فعذا به إلى رسول الله — ﷺ — حين صلى الصبح ، فصلى مع رسول الله — ﷺ — ثم أشار له إلى رسول الله —

صلوات الله وسلامه عليه — فقال :

— هذا رسول الله فقم إليه فاستأمنه .

فقام إلى رسول الله — ﷺ — حتى جلس إليه فوضع يده في يده ، وكان رسول الله — ﷺ — لا يعرفه فقال :

— يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟

— نعم .

— أنا يا رسول الله كعب بن زهير .

فوثب عليه رجل من الأنصار فقال :

— يا رسول الله دعني وعلو الله أضرب عنقه .

— دعه عدك فإنه قد جاء تائباً بارعاً عما كان عنه .

فعصب كعب على هذا حتى من الأنصار لما صعب به أصحابهم ، وحدث أنه لم يتكلم فيه رجل من المهاجرين إلا بخير ، فرح يشد :

بانت سعاد^(١) فقلبي اليوم مبول

مستم إثرها لم يُفد مكبول

وما سعاد غداة السين إذ رحلوا

إلا أغن^(٢) عضيض الطرف مكحول

(١) نالت - فارقت فراقاً بعيداً . وسعاد اسم امرأة ، وقبل هي امرأته وسعد عنه ، حصها بالذكر لوصول عيته عنها ، فزوجه من أبي ﷺ .

(٢) الأغصن ، الطلي الصغير الذي في صوته عنة . عضيض الطرف ، فترسه ، مكحول : من الكحل (بتحريك الحاء المهملة) وهو سواد يعلو حمول العين من غير الكحل .

هيفاء^(١) مقلبة عجزاء مدبرة
لا يُشْتَكى قصر منها ولا طول
تجلو^(٢) عوارض ذى ظلم إذا ابتست
كأنه مُهل بالراح معلول
شُجّت^(٣) بذي شبه من ماء عنية
صاف بأبطح أضحى وهو مشمول
نفى الرياح القذى^(٤) عنه وأفرسه
من صوب عادية بيض بالليل
فيها حلة^(٥) لو أنها صدقت
بوعدها أو لو أن الصبح مقبول
لكها حلة قد سيط^(٦) من دمها
فجع وولع وإحلاف وتديل

(١) هفاء . دقيقة الخاصرة مقبلة : حال عجزاء كبيرة العجز .
(٢) تجلو : تكشف العوارض : الأسان : الصلم : ماء الأسد ويريقها المنبل :
نسقى الراح : الحمر . معلول . من العلل (بالفتح) ، وهو الشرب الثاني
(٣) شجت : مرجت حتى انكسرت سورعها . وشم : ماء شديد البرد . المحية .
معطف الوادى . الأبطح : تسيل الواسع الذى فيه دقائق اخصى ، المشمول : الذى
صربته شمال حتى يرد .
(٤) القذى : ما يقع فى الماء من تين أو عود أو غيره . أفرسه : سقى إليه وملاؤه .
صوب : انظر عادية : سحابة تضر عبوة يتديل : حباب احدى يملو وحه
لده .

(٥) الحلة (بالصم) : الصديقة .

(٦) سيط : أى حبط بلحمها ودمها هذه الصفات المذكورة فى البيت الفجع :
الإصابة بكرويه : انوع : لكذب . الإحلاف : حلف الوعد .

فما تدوم على حال تكون بها
 كما تلوّن في أثوابها المول (١)
 وما تمسك بالعهد الذى زعمت
 إلا كما يمسك الماء العراييل
 فلا يفرّك ما منّت وما وعدت
 إن الأمان والأحلام تصليل
 كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً
 وما مواعيدها إلا الأباطيل
 أرجو وآمل أن تدنو مودتها
 وما لإخال لدينا منك تنويل (٢)
 أمست معاد بأرض لا يُلفها
 إلا العناق (٣) الجيات المراسيل
 ولن يلفها إلا عدافرة (٤)
 لها على الأيسن إرقال وبغليل
 من كل نضاحة (٥) الدفري إذا عرقت
 عُرضتها طامس الأعلام مجهول

(١) المول : ساحرة الخس .

(٢) التنويل : التوصل .

(٣) العناق : الكرام الجيات : جمع نجبة ، وهى القوة الحميفة . المراسيل : الإبل

الكرام الأصول ، القوة السريعة .

(٤) العدافرة : الناقة الصلبة العطيفة . الأيسن : الإغواء والنصب . الإرقال والتبجيل .

ضربان من السير السريع .

(٥) النضاحة : الكثيرة رشح العرق . الدفري : النقرة التى حجب أدن الناقة .

عرصتها ههنا . طامس الأعلام : الدارس المتعير من العلامات التى تكون فى الطريق ليبتدى بها .

ترمى الغيوب^(١) بعينى مفرد شق
 إذا تَوَقَّعت الحُران واليَـمـل
 صَحْم مُقَدَّها^(٢) فعم مُقَدَّها
 في حَلَفها عن بات الفحل تفضيل
 غَلَباء^(٣) وجناء عُدكوم مُدْكَرة
 في دَفها سعة قَدَّامها مِل
 وجلدها من أطوم^(٤) ما يؤيسه
 طَلح بضاحية المتين مهزول
 حرق^(٥) أخوها أبوها من مُهجة
 وعمها خالها قوداء شميل

(١) الغيوب . آثار الصريق التي عابت معجب عن غيوب . مفرد : ثور لوحشى
 الذى تمرد فى مكان . التوقعت : لأص الحُران . الأكمة لعبيطة لصفة تكثر فيه
 الحصباء . الميل : العقد الصخمة من رمل

(٢) مُقَدَّد موضع القلادة فى عنق . فعم . ممتنع . عقيد : بات الفحل : إشارات
 من الإبل المسوبة للفحل بعد للصراب .

(٣) غلباء : غليظة العنق وجناء : عصابة لوحشى عككوم : شديدة .
 مدكورة : عطيفة الخنقة تشبه الدكران من الأنعام فى دَفها سعة . أى هى وسعة
 الجبين قدامها ميل . كناية عن صول عقها ثور سعة حظوها

(٤) لأطوم : سمكة بحرية عطيفة الخند يؤيسه . يدسه ولا يؤثر فيه ضحك
 (بالكسر) . أفراد لصاحبة من كل شيء . ناحيته المارة بشمس . لمتن : ما يكتنف

صلبها عن يمين وشمس . من عصب وحده مهرون : صفة ضحك . أى قراد مهرون .
 (٥) الحرق : الناقة الصامرة . أخوها أبوها . ألح : لم يدخل فى نسبها غير تحريم

مهجة . الكريمة لأبوين من إبل قوداء . عيوبه صهر وعنى . شمس حليفة
 سريعة

يمشي القَرادُ عليها ثم يُزلقه^(١)
 منها لسان وأقرب زهاليل
 غير انه^(٢) قذفت بالنحس عن عُرْض
 مرفقها عن بنات الزور مفتول
 كأنما فات عينها ومَذْبَحُهَا
 من خطمها^(٣) ومن اللّحين برطيل
 تمر مثل عسيب^(٤) الحلّ ذا حُصل
 في غارر لم تحوّه الأحاليل
 قواء^(٥) في حُرَّتِها للمصير بها
 عتق مبي وفي الخديس تسهيل
 تحدى^(٦) على يسرات وهي لاحقة
 ذوابل مشهُن لأرض تحليل

(١) يزلقه : يسقطه . اللسان : الصدر . الأقرب : الزهاليل . نفس .
 (٢) تعبره : اساقفة لمشية غير الوحش في سرعته وبشاقته وصلاته . النحس
 للحم عرض حاب . الزور : الصدر . بنات الزور : ما يتصل به مما حوله من
 الأضلاع وغيرها .

(٣) الخطم : الأنف . اللحين : لعطمان اللذان ثبتت عليهما الأسباب السعى من
 الإنسان وغيره . البرطيل : حجر مستطيل .

(٤) عسيب الحل : جريدة الديدى مبيت عليه الخوص ، قد حصل . يريد دباله
 لدأف من شعر في غارر . أى على صرع لم تحوّه لم تقصه الأحاليل . عارح
 من

(٥) قواء : حدودية لأف . حرّتها : الأدور . عتق : كسره . مبي :
 الظاهر . تسهيل : سهولة ولين

(٦) تحدى : تسرع . اليسرات : القوائم الخعاف . الذوابل : جمع دباب . هو الريح
 نصب : يس . تحيل : قبل م يلع فيه .

سُمر العُجايات^(١) يتركن الحصى ربما
 لم يقههن رعوس الأكم تعميل
 كأن أوب^(٢) ذراعها وقد عسرت
 وقد تُلُفَّع بالقُصور العساقل
 يوما يظل به الجرباء^(٣) مصطخدا
 كأن صاحبةً بالشمس مملول
 وقال للقوم حاديه^(٤) وقد جعلت
 ورق الجنادب يركض الحصى قيلوا
 شد النهار^(٥) دراعا عبطل نصف
 قامت فجاوتها نُكد مئاكيل

-
- (١) العجايات : الأعصاب المتصلة بالخمار . زما : متفرقا . الأكم : الأراسى المنزعة . التعميل : شد العمل على طمر الذابة ليقبها الخجارة
 (٢) الأوب : سرعة التقلب والرجوع . تلمع : اشتمل والتحف . القور : جمع قارة ، وهى الجبل الصغير . العساقل : السراب .
 (٣) الجرباء : صرب من العطاء ، يستقل الشمس حيثما دارت ، ويتنوى بألوان الأمكة التى يحمل فيها ، مصطخدا : محترقا بحر الشمس . صاحبه : ما يرر للشمس منه . مملول : موضوع فى الملة ، وهى الرماد الحار .
 (٤) الحادى : السائق للإبل . الورق : الأحصر الذى يصرب إلى السواد . الجنادب : ضرب من الخراد . يركض الحصى : يحركه بأرجلهن لقصد الروول ، — الإعياء عن الطيران من شدة الحر . قبوا : استريحوا .
 (٥) شد النهار : وقت ارتفاعه العبطل : الطويلة . النصف : المتوسطة والنس ، السكد : التى لا يعيش لها ولد . المئاكيل : الكثيرة النكد .

نواحة رخوة الضمير^(١) ليس لها
لما نعى يكرها الناعون معقول
تفرى^(٢) اللبان بكفها ومدرعها
مشقق عن تراقبها رعايل
تعى الغواة^(٣) جنبها وقولهم
إنك يا بن أوى سلمى لمقول
وقال كل صديق كنت آمله^(٤)
لا ألهيئك إني عنك مشمول
فقلت تخلوا سبيل^(٥) لا أبا لكم
فكل ما قدر الرحى مفعول
كل ابن أنسى وإن طالت سلامته
يوما على آلة حذاء^(٦) محمول
تُسمت أن رسول الله أوعدنى
والعفو عند رسول الله مأمول

(١) نواحة الضمير : مسترخية العضدين . البكر : أول الأولاد . الناعون :
المخبرون بالموت ، البادبون له . المعقول ها . العقل .

(٢) تفرى : تقطع . اللبان : الصدر . المدرع : القميص . رعايل : قطع متفرقة .

(٣) الغواة : المصدون ، جنبها : حواشيها . مقتون : أى متواعد ، أتمتل لأن السى
عنه كان قد أهدر دمه .

(٤) آمله : أؤمل حيره وأترجى إعاقته في الملمات

(٥) تخلوا سبيل : اتركوه . لا أبا لكم : مدح لهم على سبيل التهكم والاستهزاء .

(٦) الآلة الحذاء : العشب الذى يحمل عليه الميت .

مهلاً هداك الذى أعطاك مافى
 لة القرآن فيها مواعيط وتفصيل
 لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم
 أذنب ولو كثرت فى الأفاويل^(١)
 لقد أقوم^(٢) مقاما لو يقوم به
 أرى وأسمع ما لو يسمع العليل
 لظلل يرعد إلا أن يكون له
 من الرسول بإذن الله تنويل
 حتى وصعت يمينى ما أأزعه
 فى كسف ذى نعمات قبله القليل
 فلهو أعوف عندى إذ أكنسه
 وقيل إنك مسوب^(٣) ومقول
 من ضيقم^(٤) بضراء الأرض مخدره
 فى بطن عثر عيل دونه غيل

(١) هذا البيت من تمة الاستعطاف والتعطى فى القول . فلا وإن كانت باهية بحسب وضعها . لكن المراد منها التضرع والتدلل ، والمعنى : لا تسبح دى بسب أقوال الوشاة الساعين بى وبيلك بالإفساد والكذب والبهتان .

(٢) لقد أقوم : معناه . والله لقد أقوم مقاما ، فهو جواب مقسم محذوف ويروى : ه أن أقوم مقاما ، والأولى أبع لنقسم . والمقدم ها مجلس السى . والمراد بالقيام فيه حصوره والمعنى على المعنى أى لقد حصرت مجلسا .

(٣) مسوب : أى إلى أمور صدرت منك . مقول : أى عن سبها
 (٤) ضيقم : أسد . ضراء الأرض : الأرض التى فيها شجر . المخدر : غابة الأسد .

عثر : اسم مكان مشهور بكثرة السباع . عيل : الشجر الكثير المنصف .
 (فتح مكة)

يغدو^(١) فيلحم ضرغامين عيشهما
 لحم من الناس قعفور خراديل
 إذا يساور^(٢) قرننا لا يحل له
 أن يترك القرن إلا وهو مفلول
 منه تظل سباع الجو^(٣) نافرة
 ولا تمثى بواديه الأراجيل
 ولا يرال بواديه أغو ثقة^(٤)
 مضرج البز والدرسان مأكول
 إن الرسول لنور يستضاء به
 مهّد من سيوف الله ملول
 في عصة^(٥) من قريش قال قائلهم
 يبطن مكة لمّا أسموا زولوا
 رالوا فما زال أنكاس^(٦) ولا كُشف
 عند النقاء ولا ميل معازيل

-
- (١) يلحم : يطعمها اللحم . الصرعام : الأسد ويريد بالصرعامين شبيهه .
 معفور - منقّى في العمر ، وهو الثراب . خراديل : قطع صغار .
 (٢) يساور : يواكب . القرن : انقذوم في لشجاعة المفلول ، منكسور المهرور .
 (٣) نافرة - بعيدة . الأراجيل : الجماعات من الرجال .
 (٤) مضرج - محصب بالدماء . البز . لسلاح . الدرسان : أخلاق الثياب
 (٥) زولوا : تحولوا وانتقلوا من مكة إلى المدينة .
 (٦) الأنكاس . جمع بكس وهو الرجل الضعيف الكشف . جمع أكشف ، وهو
 الذي لا ترس معه . أميل . جمع أميل . وهو الذي لا سيف له . اعازيل - الذين لا
 سلاح معهم .

شَمَّ^(١) العرانيين أبطال نُسُوهُمْ
 من نَسَح داود في الهيجا سراييل
 ييص^(٢) سوابغ قد شَكَّت لها خَلَق
 كأنها خَلَق القفعاء مجدول
 ليسوا مفاريج^(٣) إن نالت رماحهم
 قوما وليسوا مجازيعا إذا نيلوا
 يمشون مشى الجمال الزهر^(٤) بعصمهم
 ضرب إذا عَرَد السود النسايل
 لا يقع الطعن^(٥) إلا في نحورهم
 وما لهم عن حياض الموت تهليل
 ولما أنشدته :

إن الرسول لنور يُنصاء به
 مُهْد من سيوف الله مسلول

(١) شَم : جمع أشم . وهو الذي في قصبة أفعه علو . مع استواء أعلاه . العرانيين : جمع عربين ، وهو الأنف . السوس : ما يمس من السلاح . نسح داود : أى مسوحه وهو الدروع . الهيجا : الحرب . السراييل : جمع سرايل . وهو القميص أو الدرع . (٢) السوابغ : الطوال السوابل . شكت : أدخل بعضها في بعض . القفعاء : ضرب من الحسك . مجدول : محلول : محكم الصمعة .

(٣) مفاريج : كثير العرج . دالوا : أصابوا . مجازيع : كثير الخرج . (٤) الزهر : اليبس . بعصمهم : بمعهم . عرد : هز . النسايل : جمع نبال ، وهو لقصر .

(٥) وقوع الطعن في نحورهم : دليل على أنهم لا يهرمون حتى يقع الطعن في ظهورهم . حياض الموت : موارد الخلف . تهليل : تأخر .

ألقى عليه بردة كانت عليه . ولما قال كعب ، « إذا عرّدت السود التاييل ،
قال الأنصار :

— إنما يريدنا معشر الأنصار لما كان صاحبنا صعب به ما صعب .

وأحسن رسول الله — ﷺ — أن كعبا حصص المهاجرين من قريش من
أصحابه بمدحته ، وأن الأنصار عصت عليه فقال به :
— لولا ذكرت الأنصار بحير فإنهم لذلك أهل .

فقال يمدح الأنصار :

من سره كرم الحياة فلا يزل
في مقب من صالحى الأنصار (١)
ورثوا المكارم كاسرا عن كابر
إن الخيار هم بو الأخيار
المكرهين السّمهرى بأذرع
كسوالف اهدى غير قصار (٢)
والناظرين بأعين محصرة
كالخمر غير كليله (٣) الأنصار
والبائعين نفوسهم لسيهم
للموت يوم تعاق وكرار

(١) المقب : الجماعة من الخيل .

(٢) السّمهرى : الرمح . سولف اهدى : حوشى السيوف .

(٣) كليله : صعبة .

والقائدين الناس عن أديانهم
 بالمشرك^(١) وبالقسا الحطّار
 ينظّهرون يرونه نكّالهم
 بدماء من علقوا من الكفار
 دربهوا كما دربت بيطن خفية
 غلب الرقاب من الأسود ضواري
 وإذا حلت يجمعوك إليهم
 أصبحت عند معاقل الأعفار
 ضربوا عليا^(٢) يوم بدر ضربة
 دانت لوقعها جميع نزار
 لا يعلم الأقوام عنى كلّ
 بهم لصدقى الذين أمّارى^(٣)
 قوم إذا حوت^(٤) الحوم فإنهم
 للطارقين البارزين مقسارى^(٥)
 في الغر من غسان من جرثومة^(٦)
 أعيت محارها على المنقار

(١) الأعفار . جمع عمرو وهو ولد النعل . وبصرى مثل منتهى أولاد النعمان .
 قلل الحبال .

(٢) عليا يريد علي بن مسعود بن مرد النعماني

(٣) أمّارى أُنحَد

(٤) حوت جعيت ونصبت

(٥) مفارى مكرمين (٦) جرثومة - لأص

استقبل رسول الله ﷺ — الصباح فأخذ يدعو :

— أصبحنا وأصبح الملك والكبرياء والعظمة والحلال والخلق والأمر
والليل والنهار وما يسكن فيها الله عز وجل وحده لا شريك له .

اللهم اجعل أول يومي هذا صلاحاً وأوسطه فلاحاً وأخره نجاحاً . اللهم
إني أسألك خير الدنيا والآخرة يا أرحم الراحمين . اللهم اقسم لنا من خشيتك
ما يحول بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتنا ما تبلى به رحمتك ، ومن البقين
ما تبوه به علينا مصيبات الدنيا . اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا واجعله
الوارث ما ، واصبرنا على ما طمنا ، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ، ولا تجعل
الدنيا أكبر همّاً ولا ملغ علمنا ، ولا تسقط علينا من لاي رحماً .

وخرج رسول الله ﷺ — إلى أصحابه مشرح الصدر فرأى صهيياً
يأكل رطباً وكان بإحدى عيبيه رمد ، فقال له الرسول عليه السلام مداعباً :
— أتناكل الرطب وفي عينيك رمد .

فقال صهيبي :

— وأى بأس ! إني آكله بعيني الأخرى .

واتقى — صلوات الله وسلامه عليه — معاذ بن جبل . فقال له :

— كيف أصبحت ؟

— أصبحت مؤمناً حقاً يا رسول الله .

— إن لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟

— ما أصبحت صباحاً قط إلا ظننت أني لا أمسي ، ولا أمسيت مساءً إلا ظننت أني لا أصبح ، ولا حظوت خطوة إلا طست أني لا أتبعها غيرها ، وكأني أنظر إلى كل أمة جاثية تدعى إلى كتابها ، وكأني أرى أهل الجنة ينعمون وأهل النار في النار يعذبون .
— عرفت فالزم .

كان معاذ شديد الأدمة^(١) ، حلو المنطق وضئ ، يهل العلم من رسول الله ﷺ . إذا تكلم كأنما يخرج من فمه نور ولؤلؤ ، تعمق في العمق حتى إن رسول الله ﷺ — قال عنه :

— أعلم أمتي بالحلل والحرام معاذ بن جبل .
ودنا أبو در من رسول الله ﷺ — يهل من علمه ، فقال عليه السلام :

— يا أبا ذر كيف أنت إذا أدركت أمراء يستأثرون بالنفء ؟
— إذا والدي بعثك بالحق لأضرب بسيفي .
— أفلا أدلتك على خير من ذلك ؟ اصبر حتى تلقاني واستأثر معاوية بالنفء وراح أبو در يقود ثورة تبادى بتوزيع المال على المسلمين كافة ، ثورة عارمة لم يُمتشق فيها سلاح امتثالاً لوصية يه بأن يصبر حتى يبقاه .

وأتى إلى رسول الله ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه — رحل من الأنصار يسأله ، فقال :

— أما في بيتك شيء ؟

(١) الأدمة : لون مشرب سوادا .

— بلى ، جلس^(١) بلبس بعضه ونهبط بعضه ، وقعب نشرب فيه الماء .
— اتنى بهما .

فأتاه بهما فأخذهما — ﷺ — بيده وقال :
— من يشتري هذين ؟

قال رجل :

— أنا آخذهما بدرهم .

قال رسول الله — ﷺ :

— من يزيد على درهم مرتين أو ثلاثا ؟

قال رجل :

— أنا آخذهما بدرهمين .

فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصاري وقال :

— اشتر بأحدهما طعاما فانبذه إلى أهيك ، واشتر بالآخر قدوما فأتني به .

فأتاه به فشد فيه رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — عودا بيده

وقال :

— اذهب فاحتطب وبع . هذا خير لك من أن تحمى المسألة نكتة^(١) في

وجهك يوم القيامة .

وجاء أبو الدرداء إلى حبيبه الرسول وراح يروى له ما كان يبه وبين سلمان

الفارسي في أمسه ، وكانا من آخى بينهما — صلوات الله وسلامه عليه . قال

أبو الدرداء :

(١) الخلس : فراش يسط في البيت أو يوضع على الرجل ، وكان العرب يلتحفون به

أحيانا .

(٢) نكتة : وصمة .

— دخل سلمان بيتي فوجد امرأتى أملت نفسها فقار لها : « ما شأنك ؟ » قالت : « أحبك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا » ، فجاءني فصنع لي طعاما : فقال : « كل » . فقلت : « إني صائم » . قال : « ما أنا بأكل حتى تأكل » . فأكلت . فلما كان الليل ذهبت أقوم قال : « نم » . فمت . ثم ذهبت أقوم قال : « نم » . فلما كان آخر الليل قال : « قم الآن » . فصلينا فقال : « إن لربك عليك حقا ، ولغسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، فأعط كل ذي حق حقه » .

فقال رسول الله — ﷺ :

— صدق سلمان .

وراح حسان بن ثابت يشد رسول الله — ﷺ — شعره والرسول عليه السلام يحسن استماعه ولا يشتغل عنه بشيء ، وعمرو بن العاص وأبو سعيد بن خدرث ومن كانوا يبارلونه تألستهم من شعراء قریش قل أن يشرح الله قلوبهم للإسلام يصعرون إليه ويتمون في قرارة أنفسهم لو أنهم كانوا المنافحين عن دين الله مذ أول يوم وقف فيه محمد عليه السلام على الصفا يدعوا قومه إلى الإسلام .

كان عمرو بن العاص مطرقا لا يرفع عينيه إلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — هية وخجلا مما كان في سالف الزمان ، وكان ابن عمه أبو سفيان بن الحارث يكثر من إنشاد الشعر في مدح رسول الله عليه السلام لعله يكفر عما كان من هجوه ويرجو من كل قلبه لو أن ما قاله من قلدح تمحوه يد السيان .

وكان أبو بكر وعمر وعثمان وعد الرحمن بن عوف في مكان الصفاق ، إهم من تحار قریش وإهم يعرفون كيف يكتسبون الأموال . ولم يكن لذهب

والفضة غرضهم بل كانوا على يقين أن دعوة الله في حاجة إلى إنفاق وأن إخوانهم الفقراء في حاجة إلى ما يمسك لرمق^(١) ، فكانوا يتفقون ما يرجحون في سبيل الله وينصدقون على المساكين ثم يأمرون على الطوى ، يعيشون على حر الشعير أو التمر فقد كان لهم في رسول الله أسوة حسنة ، وإن الرسول عليه السلام قد علمهم حقيقة الزهد لما قال :

— ليست الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولا إصاعة المال ، ولكن الزهادة أن تكون بما في يد الله تعالى أوثق منك بما في يديك ، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك ، لأن الله تعالى يقول :

« لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم »^(٢) .

وقام رسول الله عليه السلام ليذهب لزيارة إبراهيم الخليل فركب حماره ، وقبل أن يضيق رأى عبد الله بن عباس فأردفه حلمه وسار إلى العالية ، وأحد برجى نصائحه إلى ابن عباس قال :

— يا غلام احفظ الله يحفظك . احفظ الله تحده تحاهك . تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة . إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله . فإن العباد لو اجتمعوا على أن يفعلوك بشيء لم يفعلوك إلا بشيء كره الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يصروك بشيء لم يصروك إلا بشيء قد كرهه الله عليك . حفت الأقلام وطويت الصحف ! فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا في اليقين فافعل ، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا . واعلم أن نصر مع الصبر ، وأن الفرح مع الكرب ، وإن مع العسر يسرا . ولن يعيب عسر يسرين .

ودخل رسول الله ﷺ — مشربة أم إبراهيم فأنفى إبراهيم عندها وهي تاجيه في فرح ، فقد جاءت به مرضعته أم سيف ليمصى سحابة نهاره عند مارية ، فأحس الرسول عليه السلام رقة وحنانا فذهب إلى إبراهيم وحمله في حب وأخذ يقبله والرحمة تتدفق من كوز قلبه الكبير . وداعب عبد الله بن عباس إبراهيم ، وراح الوقت يمر ورسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — يستشعر سعادة تبدد ما ألفه من حزن .

وعاد رسول الله — ﷺ — إلى مسجده ، إنه لا يفتك يذكر الله ويدعوه ويستغفره .

— رب اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري كله وما أنت أعلم به مني .

اللهم اغفر لي خطاياي وعمدي وجهلي وهرلي وكل ذلك عدي .
اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت . أنت المقدم وأنت المؤخر ، وأنت على كل شيء قدير .

وقضيت صلاة العشاء وذهب الناس إلى دورهم . ودخل رسول الله — ﷺ — حباءه وراح يصلي في خشوع حتى إذا ما تعبت قدماه أحدا يباحي ربه ويتضرع إليه :

— اللهم لك الحمد ، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد . أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد . أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد . أنت الحق ووعدك الحق ولقاؤك الحق وقولك الحق . وإحسانك الحق والبارحق والسيونحق ومحمدحق وساعهحق . اللهم لك أسمنت ولك آمنت ، وعليك توكلت وإليك أنسيت ، وبك حسمت وإليك حاكمت . فاعفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت . أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بالله .

كان الحارث بن أبي الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق ، وكان يرى بزوغ نجم الإسلام فيحس كمدًا فاشتداد ساعد الدين الجديد يهدد آلهة القوم ويسعه معتقدات الآباء ويذر بانصواء انقائال الحرة التي تعيش بلا قيود تحت لواء يثرب ، وخاف الحارث على زعامته فجمع بني المصطلق لحرب رسول الله ﷺ ، فلما سمع رسول الله ﷺ — هم حرح إليهم حتى لقيهم على ماء لهم يقال له المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل .

وتراحف الناس : المسلمون يقاتلون لإعلاء كلمة الله ، وبو المصطلق يدفعون عن محم الأرض وعصية القبيلة وإن كانوا يمدعون أنفسهم ويوهونها أنهم إنما يقاتلون لتكون كلمة ماء هي العليا وليستمر سلطان بات الله على الأرض .

وهرم الله بنى المصطلق وقتل من قتل منهم ، وعمل الله رسول الله ﷺ — أباءهم ونساءهم وأموالهم فأفاءهم عليه ، فلما قسم رسول الله ﷺ — سباياهم وقعت حويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن الشماس فكانت على نفسها وكانت امرأة حلوة ملاح لا يراها أحد إلا أحدث بنفسه ، فأنت رسول الله ﷺ — تستعيه في كتابتها ، فوالله ما هو إلا أن رأتها عائشة على باب حجرتها فكرهتها وعرفت أنه مبرى منها — ما رأته ، فحدثت عليه فقالت :

— يا رسول الله أما حويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه ، وقد

أصابني من الهلاء ما لم يخف عليك ف وقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس فكاتبته على نفسي ، فجئتك أستعينك على كتابتي .

إياها كانت بنت سيد بنى المصطلق وقد أصاب منهم سبياً كثيراً ، وكان عليه السلام يبذل كل جهد لفك الرقاب وتحرير العبيد . إنه لو تزوج حويرية فسيطلق المسلمون ما في أيديهم من سبايا إكراما لها ، فقال لجويرية :

— فهل لك في خير من ذلك ؟

— وما هو يا رسول الله ؟

— أقضى عنك كتابتك وأتزوجك .

— نعم يا رسول الله .

— قد فعلت .

وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله — ﷺ — تزوج حويرية بنت الحارث بن أبي ضرار فقال الناس :

— أصفار رسول الله — ﷺ .

وأرسلوا ما بأيديهم فأعتق بتروجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق ، وأشرح صدر رسول الله — ﷺ — فقد تحررت رقاب رجاى وساء وولداً ، وإن أحب شيء إليه كان عتق الأرقاء فما بالك بأحرار عادت إليهم حريتهم بعد أن كادوا في دل الرق يرسعون ؟ وتهدلت حويرية بالفرح فما كانت امرأة أعظم على قومها بركة منها .

ولما انصرف رسول الله — ﷺ — من عروة بنى المصطلق ومعه حويرية بنت الحارث وكان بذات حيش ، دفع حويرية إلى رجل من الأنصار ودبعة وأمره بالاحتفاظ بها .

وقدم رسول الله — ﷺ — المدينة فأقبل الحارث من أبي ضرار بعداء استه ،

فلما كان بالعقيق نظر إلى الإبل التي جاءها للعداء فرعب في بعيرين منها فغيبهما في شعب من شعاب العقيق . ثم أتى إلى البى — ﷺ — وقال :
— يا محمد أصبحت ابنتي وهذا فداؤها .
فقال رسول الله — ﷺ — :

— فأين البعيران اللذان غيبتهما بالعقيق ؟

فرما الحارث إلى رسول الله — ﷺ — رنوة كلها دهش ، وأحس كأن أنوارا تغمر قلبه وأشرح صدره للإسلام فقال :
— أشهد أن لا إله إلا الله وأنت محمد رسول الله ، فوالله ما أطلع على ذلك إلا الله .

فأسلم الحارث وأسلم معه ابنا له وباس من قومه ، وأرسل إلى البعيرين فعاء بهما فدفعا إلى البى . وما كان السى — صلوات الله وسلامه عليه — في حاجة إلى الإبل وهو الذى يرد على العقراء كل ما ينفع الله عليه ، إنه يضع تسعين ألف درهم على حصر أمامه فينفقها كلها ثم يمر هلال ثم هلال ولا يوقد في بيت من بيوت ناز . إنه يعيش على الأسوديين الماء والتمر .

وأصبحت جويرة بنت الحارث أما للمؤمنين وهو شرف تنبه به بو المصطلق على القبائل ، ودخل الحارث بن أبى ضرار في الإسلام وأصبح متفرحا في الله معجبا بمصاحبة رسول الله — ﷺ — ، إنه يتكلم بكلام بين فصل يحفظه من يحسن إليه ، وإنه يحدث حديثا لو عدّه العاد لأحصاه .

وكان إعجاب الحارث بمصاحبة رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — لا يقل عن إعجاب أبى بكر الصديق رفيق صباه وأول من آمن به من الرجال وثاني اثنين إدهما في العر ، فقد قال له أبو بكر ذات يوم :

— لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك ، فمن

أدبك ؟

— أدبى ربي فأحسن تأديبى .

وظل الحارث يلقى سمعه إلى نصائح الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — فلا يزيده ذلك إلا إيماناً وتسلماً :

— اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالف الناس بخلق

حسن .

شر ما في الرجل شح هالغ ، وحس خالغ . اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم وأستحلوا محارمهم .

كان الحارث سعيداً بقربه من النبي عليه السلام . إنه ليروى طمأه إلى المعرفة من سبب الرسول الصافي الرقراق . وقد سمعه يوماً يحطّب :

— إن الدنيا حصرة حلوة ، وإن الله مستحيكم فيها فاطر كيف تعملون . ألا فاتقوا الدنيا واتقوا النساء . ألا لا يمس رجل هبة الناس أن يقول بحق إذا علمه ألا إنه يصب لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر عدرته ، ولا عذرة أعظم من غدره إمام عاق . ألا وإن العصب حمرة في قلب ابن آدم ، أما رأيتم حمرة عينيه وانتفاح أوداجه ؟ فمن أحسن شيء من ذلك مبسوق بالأرض .

كان حديثه حكمة وكان الحارث يتمنى أن يبقى ما بقى من دهره إلى حواره . ولكنه كان سيد قومه وإنه ليريدهم الهداية والرشد . إن رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — دعاه إلى الإسلام مدحلي في الإسلام وأقر ، ودعاه إلى الزكاة فأقر بها فقال :

— يا رسول الله أرجع إلى قومي فدعوه إلى الإسلام وداء الزكاة ، فمن

استحابى جمعت زكاته .

واتفق مع رسول الله ﷺ — على ميعاد يبعث فيه رسوله ليقص زكاة
بى المصطلق . ومرت الأيام وجمع الخارث من أى ضرار الزكاة من قومه .
ووافق الموعد الذى حدده مع رسول الله ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه —
ليبعث رسوله ليأخذ صدقات قومه ولكن الرسول احتبس عليه فلم يأت .
فظن الخارث أن قد حدث فيه سحطة من الله ورسوله ، فدعا سرورات قومه
فقال لهم :

— إن رسول الله ﷺ — قد كان وقت لى وقتنا ليرسل إلى ليقص ما
كان عدى من الزكاة ، وليس من رسول الله ﷺ — حنف . ولا أرى
حسن رسوله إلا سحطة فانطلقوا فأتى رسول الله ﷺ :

وبعث رسول الله ﷺ — الوليد بن عتبة إلى الخارث ليقص ما كان
عده مما جمع من الزكاة ، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق تذكر أن
بىه وبين بى المصطلق عداوة فى الجاهلية ، وراح الشيطان يوسوس له أنهم
قاتنوه فيهاهم فرجع من الطريق إلى رسول الله ﷺ — فقال :

— يا رسول الله ﷺ — إن الخارث معنى الزكاة وأراد قتلى .
فعضب رسول الله ﷺ — وبعث رجالا من المسلمين لقتل بى
المصطلق . وأقبل الخارث بأصحابه فاستقبل البعث وقد فصل من المدينة
فلقبهم الخارث فقالوا .

— هذا الخارث .

فلما لقبهم قال لهم :

— إلى من بعثتم ؟

— إليث .

فظهر الدهش في وجهه وقال :

— ولم ؟

— إن رسول الله ﷺ — كان بعث إليك الوليد بن عتبة ، فرجع إليه فزعم أنك معته الزكاة وأردت قتله .

— والذى بعث محمداً بالحق ما رأيته ولا أثنى .

فما أن دخل الخارث على رسول الله ﷺ — قال في غضب .

— منعت الزكاة وأردت قتل رسولى ؟

فقال الخارث في صدق :

— لا والذى بعثت ما رأيته رسولك ولا أثنى ولا أقبلت إلا حين احتبس

على رسولك خشية أن يكون سحاص من الله ورسوله .

فأمر الله تعالى . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنُصْبٍ أَوْ تَقْبِضُوا قَوْمًا بِجَهَانَةٍ فَتَقْصِبُوا عَلَيْهِ مَا فَتَعَمُّ نَادِمِينَ . وَعَلِمُوا أَنَّ هَيْكَلَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ أَوْ يَطْبِعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنَهُمُ اللَّهُ لَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ إِلِيمَانٌ وَرَبُّهُ فِي قُنُوبِكُمْ وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْعُسُوقَ وَالْعَصِيانَ أَوْ شِئْتُمْ هُمُ الرَّاغِبُونَ . فَصَلَا مِنْ أَلْفِهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

كان عروة بن مسعود سيد ثقيف ، وكان أمية بن أبي الصلت شاعرهم . وقد نصر أمية قبل أن يوحى إلى رسول الله ﷺ — وقرأ التوراة والإنجيل وألقى سمعه إلى الرهبان الذين كان يمر بهم كلما خرج إلى الشام في تجارة قريش . فقد كانت ثقيف حلقة قريش ، ولا عروها ثم عروة بن مسعود سبعة بست عبد شمس ، وأم أمية بن أبي الصلت رقية بست عبد شمس . وسمع أمية من الأحبار والرهبان أن سينا قد أطل زمانه فكان يحدث عروة ونساء ثقيف أنه ذلك السى الذى بشرت به الأنبياء .

واصطفى الله محمدا ليكون رسوله الأمين ، فمما دعا قومه إلى الإسلام هشت العيرة أفدة سادات قريش وقالوا : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »^(١) . كانوا يرون وقد مثوا حسدا أن عتة بن ربيعة أو عروة بن مسعود أحق بالرسالة من فقر قريش وإن كان أميا وإن كان على خلق عظيم

ودخل أمية بن أبي الصلت ما يدخل الناس من القاعة ونفى عروة بن مسعود على دين قومه ، واصطهدت قريش المسلمين وعدوهم ليعتوههم عن دينهم ولكن المسلمين صمدوا للاصطهاد ، وأراد الله أن يصهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون ففتح باقران قنوب لأبصارهم فحر المسمون إلى

إحواں لحم و الدین ، و كانت عزوة بدر و قتل رجل من القریتین عظیم ، و بقى عروة بن مسعود یرصد بزوع نجم محمد — صلوات الله وسلامه علیه — و هو یتأرجع بین الشك و الیقین ، و مال إلى التکذیب لما رأى أن زعامته لتقیف ستتزعزع لو أنه اتبع البور الذى أشرق و یثرب .

و كان أمیة بن أبی الصلت قد خرج إلى الشام و عكف على قراءة الأسفار ، فإذا بصوت صمیره یقول و إصرار كلما فکّر فی محمد بن عبد الله : « إن صفته هی » . فشد الرحال إلى المدیة لیشهد شهادة الحق فعلم أن رسول الله هاک فی بدر . فامتطى راحلته حتى نزل بدرا ثم ترجل یرید رسول الله — ﷺ — فقال قائل :

— یا أبا الصلت ما ترید ؟

— أرید محمدا .

— و ما تصنع ؟

— أومن به و ألقى إليه مقالید هذا الأمر .

— أتدرى من فی القلب ؟

— لا .

— فیه عتبة بن ربیعة و شبة بن ربیعة .

و كانا ابی حاله ، فجذع أدنى ناقته و قضع دبهما ثم وقف على القیظ یرقى من فیه ، ثم رجع إلى مكة و الطائف و مالیت أن مات فلم یשא الله له الهدایة و لحق بابی حاله عتبة بن ربیعة و بقى على قید الحیاة عروة بن مسعود لتکون مشیئة الله فیه .

و مرت الأحداث و خرج رسول الله — ﷺ — و الدین معه إلى الخدیفة معتمرا لا یرید حربا ، و بعثت قریش الرسل إلى نبی الإسلام عبیه السلام .

فلما عاد الرسل بما لا يحسن أغلظوا لهم القول ، ثم أرادوا أن يعثوا إلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — عروة بن مسعود فقال :

— يا معشر قريش إني قد رأيت ما يلقي منكم من بعثتموه إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء العظ ، وقد عرفتم أنكم واندوا أني ولد . وقد سمعت بالذي نابكم فجمعت من أطاعني من قومي ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسي . — صدقت ما أنت عدنا بجهنم .

فخرج حتى أتى رسول الله — ﷺ — فجلس بين يديه ثم حدثه وهو مهوور بما يرى ، لا يتوصلاً إلا انتدروا وصووه ، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه . فرجع إلى قريش فقال :

— يا معشر قريش إني قد حئت كسرى في ملكه وقبصر في ملكه والحاشي في ملكه ، وإن الله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه ، ولقد رأيت قوماً لا يسمونه بشيء أبداً

وحصر ما رآه عروة من أصحاب رسول الله من تحيل للرسول العظيم في ذاكرته ؛ إنه ليدكر ما كان من أصحابه عد الحديبية فيفكر في ذلك الأمر الذي جاءهم به فأنف بين قنوسهم وث فيهم روحاً جديدة لكان قد خلقوا من جديد^١

ولم يشهد عروة بن مسعود حياً ولا حصار الطائف ، كان بمدينة خُزَش يتعلم صنعة النديبات واعحاق فقد كانت أحدث وسائل القتال ، وكان سيد ثقيف يريد ألا يفوته من من هون الحصار ودك الحصون .

واصراف رسول الله — ﷺ — عن ثقيف وقد قتل بعض أصحابه عند حصونها . فلما عاد عروة بن مسعود وسمع بما كان من قتال بين المسلمين وبين ثقيف أحسن بدم . فلو كان بالصف لأعلن إسلامه ولكفى به مؤمناً بقتال

فقد اشرح صدره للإسلام ورتل فؤاده أنوار اليقين .

ولم يشأ عروة بن مسعود أن يستريح بل راح يعد السير ليدرك رسول الله ﷺ — قل أن يصل إلى المدينة ، فراح يسرى في معد الله يرى في شروق الشمس وعروبها وبزوع القمر وتألق السحوم آيات قد عميت عما بصيرته من قل ، وكان القرآن المخيد قد فتح قلبه فإذا بصوت رفيق يرتل في أعماق نفسه : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصت . وإلى الأرض كيف سطحت . فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر . إلا من تولى وكفر . فيعذبه الله العذاب الأكر . إن إليها إياهم . ثم إن علينا حسابهم »^(١) فأحس بدموع تطفر إلى ماقبه ثم تسيل لتبلل لحيته .

وأدرك عروة بن مسعود رسول الله ﷺ — قل أن يصل إلى المدينة فأعلن إسلامه وهو متفرح في الله . كل ما حوله يتعجب بذكر الله ، محعيف الأشحر تسبح ، وهبوب السيم ابتهاجات وشروق الشمس صلاة . إنه أصبح يستشعر أن الله يسرى فيه مسرى الدم ، وأنه يمتلئ بفرح هياض وهو إلى حوار رسول الله ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه .

وشارك عروة بن مسعود المسلمين غبطة الصلاة حين رسول الله ﷺ — والإصعاء إليه والنهل من سع علمه وصحته التي ملأت فؤاده بالأنوار . ووجد عروة أن عليه أن يدعو قومه إلى الإسلام فسأ رسول الله ﷺ — أن يرجع إلى قومه بالإسلام ، فقال له رسول الله ﷺ — وقد عرف فيهم نخوة الامتناع :

— إنهم قاتلوك .

— يا رسول الله . أنا أحب إليهم من أبصارهم .

فخرج يدعو قومه إلى الإسلام رجاء ألا يخالفوه لمثلته فيهم ، فلما أشرف على عليّة له وقد دعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه . رموه بالنبل من كل وجه فأصابه سهم ، فحمل وهو يحود بأنفاسه الظاهرة قليل له :
... ما ترى في دملك ؟

— كرامة أكرمى الله بها وشهادة ساقها الله إني ، وليس في إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله — ﷺ — قبل أن يرحل عنكم ، فادفوني معهم .

واستشهد رجل من القرينتين عظيم .

كان الهدوء يرفرف على المدينة ومكة بعد أن ساد الإسلام والسلام ، وعرفت تجارة قريش طريقها إلى الشام في اطمئنان ، وكان بين الوقت والآخر تخرج من المدينة سرية لتأديب من يكيلون للإسلام من القبائل المخاورة أو لهدم صنم من الأصنام ليعبد الله وحده في أرض العرب .

لما قُتل وقاص بن محرز المدلحي يوم ذي قرة سأل علقمة بن محرز رسول الله - ﷺ - أن يبعثه في آثار القوم ليدرك ثاره فيهم ، فبعث رسول الله - ﷺ - علقمة وبعض المسلمين ليأثروا لوقاص ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق أدرك لضاغة من الجيش واستعمل عليهم عبد الله بن حذافة السهمي ، وكان من أصحاب رسول الله - ﷺ - وكانت فيه دعابة ، فلما كان ببعض الطريق أوقفه نارا ثم قال للقوم :

— أليس لي عليكم اسمع والطاعة ؟

— بلى .

— أفما أنا آمركم بشيء إلا فعلتموه ؟

— نعم .

— فإن أعزم عليكم بحقي وطاعتي إلا تواسم في هذه الدار .

فقام بعض القوم يحتجر حتى ظل أنفهم واثبون فيها ، فقال لهم :

— اجلسوا فإنما كنت أضحك معكم .

فذكر ذلك لرسول الله - ﷺ - بعد أن قدموا عليه ، فقال - ﷺ - :

— من أمركم بمعصية منهم فلا تطيعوه .

وبعث رسول الله ﷺ — على بن أبى طالب فى خمسين ومائة من الأنصار على مائة بعير وخمسين فرسا لهدم صمم طيء ، فخرج على كرم الله وجهه ومعه راية سوداء ولواء أبيض . وفى عمارة الصبح ش المسلمون الغارة على طيء فهدموا القس وأحرقوه واستاقوا النعم والشاة والسبي . وكان فى السبي سمانة بنت حاتم الطائى وأخت عدى بن حاتم ، ووجدوا فى حزامه الصمم ثلاثة أسياف معروفة عند العرب وهى رسوب والمخدم واليماني ، وثلاثة أدرع . وحمل على بن أبى طالب الرسوب والمخدم صفيا لرسول الله ﷺ — ثم صار إليه الثالث الذى هو اليماني . وعاد على بالنعم والشاة والسبي المدينة ، وجاء النبی ﷺ — بنظر فمر بسمانة بنت حاتم فقامت إليه وكانت امرأة ذات وقار وعقل فقالت له — ﷺ :

— يا محمد أرايت أن تحبى عما ولا تشمت بها أحباء العرب فإن ابنة سيد قومي ، وإن أبى كان يحبى الدمار ويفك العاني ويشع الحائع ويكسو العاري ويقرى الصيف ويطعم ويفشى السلام ولم يرد طالب حاجة قط ، أنا ابنة حاتم طيء .

فقال لها النبی ﷺ :

— يا حارية هذه صفات المؤمنين حقا . لو كان أبوك مسلما لترحما عليه . حلوا عنها فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق وإن الله يحب مكارم الأخلاق وأسلمت سمانة وأرادت أن تعود إلى بلادها ، فقال لها رسول الله ﷺ — :

— لا تحبى حتى ينهى من قومك من يكون لك ثقة يلبعث إلى بلادك فأذنيني .

فصبرت حتى قدم عديها من تلق به ، فحاءت رسول الله ﷺ —
فقلت :

— قدم رهط من قومي لي فيهم ثقة .
فكساها رسول الله ﷺ — وحملها وأعطاها نفقة ، فخرجت وهي
مغتبطة لأن الله قد هداها إلى الإسلام . ولم تعد إلى طيء بل انطلقت إلى الشام
لتلقى أباها عدي بن حاتم الذي فر إلى هناك لما رأى جيش المسلمين . إنها
تحب عدي وإنها تحب له الهداية والرشاد .

كان عدي بن حاتم رجلا شريفا في قومه يأخذ ربع العيمة كما هو عادة
العرب في الجاهلية . فلما سمع برسول الله ﷺ — كرهه . ما من رجل
من العرب كان أشد كراهة لرسول الله ﷺ — حين سمع به منه ، فقال
لعلام كان راعيا لإبله :

— لا أبا لك اعزل من إبلي أحمالا دلا سمانا فاحتبسها قريبا مني ، فإذا
سمعت بحيش محمد قد وطئ هذه البلاد فأذني .

ففعول ، ثم إنه أتاه ذات يوم فقال :
— يا عدي ما كنت صابعا إذا عشيت محمد فاصعه الآن ، فإني قد رأيت
رايات سألت عنها قالوا : هذه جيوش محمد .

قال له :
— قرب لي جمالي .

فقرها فاحتمل أهلها وولده والتحق بأهل ديه من الصاري والشام وترك
سماة أخته لتقع أسيرة في أيدي المسلمين . وإبه لقاعد في أهله إذ نظر إلى امرأة
تؤمهم فقال :

— أبة حاتم ؟!

فإذا هي ، فلما وقعت عينها عليه قالت :
— القاطع الظالم . احتملت بأهلك وولدك وبركت بقية والسديك
وعورتك .

— أى أحية لا تقولى إلا حيرا ، فوالله ما لى من عذر .
ونزلت سفانة عليه وأقامت عنده ، فقال لها وكأب امرأة حارمة .
— ماذا تريد فى أمر هذا الرجل ؟
— أرى والله أن ننحق به سريعا ، فإن يكن نبيا فليسابق إليه فضله ، وإن
يكن ملكا فأنت أنت .

ولم تصهر له إسلامها لئلا ينهر من قولها ، كان كل ما تبعه أن يطلق عدى
إلى رسول الله — ﷺ — وكانت على ثقة من أنه ما أن يجلس بين يديه حتى
يصدق .

فحرح عدى حتى جاءه — ﷺ — بالمدينة . فدخل عليه فقام عليه
السلام :

— من الرجل ؟

— عدى بن حاتم .

فقام رسول الله — ﷺ — وأطلق به إلى بيته ، فوالله إنه لقائده إليه إذ
لقيته امرأة كبيرة صعيقة فاستوقفته — ﷺ — فوقف له ضويلا تكلمه فى
حاجتها ، فقال عدى فى نفسه :

— ما هو بملك .

ثم مضى رسول الله — ﷺ — حتى إذا دخل بيته تناول وسادة بيده من
أدم محشوة ليفا ، فقدمها إليه وقال .
— اجلس على هذه .

- بل أنت فاجلس عليها .
- بل أنت .
- فجلس عدى عليها وجلس رسول الله عليه السلام بالأرض ، فقال عدى في نفسه :
- والله ما هذا بأمر ملك .
- يا عدى بن حاتم أسلم تسلم . أسلم تسلم . أسلم تسلم .
- إني على دين .
- أنا أعلم بديك منك .
- أنت أعلم بديي ؟
- نعم ، أأنت من الركوسية ؟ أأنت من الغوم الذين هم دين ؟
- بلى .
- ألم تكن تسير في قومك بالرباع ؟ (أحد الربع من العيمة) ؟
- بلى .
- فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك .
- أجل والله .
- وعرف أنه سي مرسل بعدم ما يُجهل . ثم قال — ﷺ :
- لعلك يا عدى إنما يبعثك من الدحوب في هذا الدين ما ترى . تقول إنما أتبعه صفقة اساس ومن لا قوة له ، وقد رمتهم العرب مع حاجتهم ، هو الله ليوشك أن ينال أن يعيص فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، وإنما يبعثك من الدحوب فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم . تعرف الحيرة ؟
- لم أرها وقد سمعت بها .

— فوالذى نفسى بيده ليتمن هذا الأمر حتى تحرح الظعينة (المرأة) من
الحيزة تطوف بالبيت من غير حوار أحد .
وألقي عدى بن حاتم سمعه إلى رسول الله ﷺ — فإذا بأوار اليقين
تنزل قلبه وقد شرح الله صدره للإسلام . فلم يقم من عده حتى شهد أن لا
إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

كانت المعارك طاحنة بين العرس والروم ، وقد انتهت تلك المعارك بانتصار الروم وعودة هرقل إلى بيت المقدس وإعادة الصليب المقدس إلى كيسة القيامة . وقد جاءت أنباء انتصارات الروم إلى المسلمين يوم انتصارهم في بدر فتهللوا بالفرح ، فقد تنبأ القرآن المجيد بذلك النصر في وقت كانت فيه هزيمة الروم ساحقة وقد وقف الفرس يقرعون أبواب قسطنطينية وهم ينصرهم مزهزون .

ومرت الأيام وبعث رسول الله ﷺ — دحية الكلبي برسالة إلى هرقل عظيم الروم يدعوه فيها إلى الإسلام ، فاستقبل هرقل دحية استقبالاً حسناً وقال قولاً سديداً ، وأرسل معه هدايا نلسي الأمي الذي بحده مكتوباً عنده في التوراة والإنجيل .

وفتح رسول الله ﷺ — مكة ففارت بلاد العرب بالوحدة السياسية لأول مرة في تاريخها منذ أقام إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، وسرى الإلهام الديني في سرائر المسلمين فإذا برعاة الإبل الحاميين أصبحت هم رسالة يتطلعون إلى نشرها في العالمين .

إن رسول الله ﷺ — ليعند أتباعه بمدائن كسرى وقصور الحيرة ولشام ، وإن هذه الأساء لتصل إلى هرقل من أعداء محمد عليه السلام فيستحجف بها في أور الأمر ثم يتناهى قلق كلما اشتد ساعد الإسلام . حتى إذا ما فتح الله على المسلمين مكة ودانت قنائل العرب المحيطة بالمدينة بالولاء لدين

الحديد تذكر هرقل السوءة التي أحرته عقب أن وضع على رأسه تاج الإمبراطورية الرومانية ، فقد تسأ أشجعون أن ملكه سيرول على يد شعب محتون ، فما خطر له العرب على قلب في ذلك الوقت فقد كانوا أهون من أن يفكر فيهم ، وحسب أن اليهود هم ذلك الشعب فصب عليهم سوط عذاب .
واسلحت لعبيته حقيقة السوءة ، فكل الدلائل تشير إلى أن ذلك الشعب الذي يهدد ملكه هم هؤلاء المؤمنون الذين اصبروا تحت لواء محمد ، وإبه ليعرف حظورة الانتفاضة الروحية التي حققت في قلب حريرة العرب . إنها لو تركت حتى تستقر في سويداء قلوب أتباع الدين الحديد من تستطيع دولة أت تقف رحف المؤمنين ، فوطد العس على أن يسحق هذه البهضة قبل أن يشتد عودها .

وبلع رسول الله — ﷺ — أن روم قد جمعت جموعا كثيرة في بناء وأهمل قدموا مقدماتهم إلى السقاء . فمما ينصر حتى يمدحته روم في مدينة من أمر الناس بالهجر على الرغم من شدة خرو وعسرة في الناس وحذب في البلاد ، فلو تفاعس — صوات لله وسلامه عليه — عن الخروج بصوت حجاج^(١) الرومان الصحراء ولدهمت السمسم في مدينة وقصت على الإسلام .

وكان رسول الله — ﷺ — قدما يخرج في عروة إلا كشي عه وأحر أنه يريد غير الوجه الذي يقصده ، لا ما كان من هذه العروة فيه ينسب لباس بعد الشقة وشدة الزمان وكثرة معدن بيت ذهب لباس بذلك أهته وأحره أنه يريد الروم .

(١) حجاج بن يوسف الثقفي

وبعث إلى مكة وقائل العرب ليستمهم وحص أهل العبي على الفقة والحمل في سبيل الله ، فجهز عثمان بن عفان عشرة آلاف أمق عليها عشرة آلاف دينار غير الإبل والحيل وهي تسعمائة بعير ومائة فرس والراد وما يتعلق بذلك حتى ما تربط به الأسقية . وسر رسول الله ﷺ — ما فعل عثمان فوقف من أول الليل إلى أن طلع المعجر رافعا يديه يدعو لعثمان بن عفان يقول :

— اللهم عثمان رضيته عنه فارصه .

وكان أول من جاء بالفقة أبو بكر الصديق ، جاء بجميع ماله أربعة آلاف درهم ، فقال له رسول الله ﷺ :

— هل أبقيت لأهلك شيئا ؟

— أبقيت لهم الله ورسوله .

وجاء عمر بن الخطاب نصف منه ، فقال له رسول الله ﷺ :

— هل أبقيت لأهلك شيئا ؟

— النصف الثاني .

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية فقال الناس :

— عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف حرانتان من حرانتين الأرض يفقان في طاعة الله .

وجاء العباس بن علي وكذا طلحة . وبعث النساء بكل ما يقدرن عليه من حلبي ، وتصدق عاصم بن عدي بسبعين وسقا من تمر .

ودات يوم ورسول الله ﷺ — في جهده لعمرو الروم قال لنجد بن قيس أحد بني سمية :

— يا جد هل لك في جلاد بني الأصفر ؟

إنه عبه السلام يدعوه لعمرو حين ضمت ثمار والناس يحون المقام في

ثم ارفعهم وصلاتهم ويكرهون الشخصوس على الحال من الزمان الذي هم عليه .
فقال الخلد :

— يا رسول الله أوتأذن لي ولا تنفي ؟ هو الله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشد عجباً بالنساء مني ، وإنني أحشى إن رأيت ساء مني الأصفر ألا أصير .

فأعرض عنه رسول الله — ﷺ — وراح يدعو الناس للتأهب للخروج فإذا بهم لا ينفرون حفافاً فأنزل الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْزِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ . إلا تنفروا يعبذبكم عذاباً أثمياً ويستبدل قوماً غيركم ولا تنصروه شيئاً والله على كل شيء قدير ﴾ . إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بخمود لم تروها وحمل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم ﴾ . انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ . لو كان عرصاً قريباً وسعراً قاصداً لا تبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون ﴾ . عما الله عندك لم أدت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ﴾ . لا يستأذك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين ﴾ . إنما يستأذك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ﴾ . ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله سمعهم فنبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴾ . لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوصلعوا جلالكم يعصوكم الفتنة وفيكم سماعون لهم

والله أعلم بالطالمين * لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلوبك الأمور حتى جاء الحق
وطهر أمر الله وهم كارهون * ومنهم من يقول انذرنى ولا تفتنى ألا فى الفتنة
سقطوا وإن جهنم مخيطة بالكافرين * إن تصبك حسنة تسوهم وإن تصبك
مصيبة يقولوا قد أخذنا أمراً من قبل ويتولوا وهم فرحون * قل لى يصيبنا إلا
ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون * قل هل ترهبون بنا إلا
إحدى الحسنيين ونحن ترهبونكم أن يصيبكم الله بعباد من عبده أو بأيدينا
فترهبوا إنا معكم مترهبون * قل أنفقوا طوعاً أو كرها لى يتقبل منكم إكم
كنتم قوما فاسقين * وما منعهم أن تقبل منهم سفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله
وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون * فلا
تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهد
أنفسهم وهم كافرون * ويخلفون بالله إهم لمكم وما هم بكم ولكم قوم
يبرقون * لو يحدون ملحاً أو معارات أو مُدحلاً لولوا إليه وهم
يجمعون ﴿١﴾ .

التذيل

يعتقد اليهود أن التوراة هي الكتاب المقدس الوحيد . وأنه لم يزل هداية البشرية جمعاء بل لشعب الله المختار . فقد قسموا بني آدم إلى بني إسرائيل وأمم . فهو إسرائيل هم وحدهم الناس ومن عداهم أُمم ، كلاب البشرية ، ولم يعترف اليهود برسالة المسيح عليه السلام ولا برسالة محمد ﷺ ، فالمسيح وإن كان يهوديا إلا أنه جاء ليسفه أحلام المنحرفين بالدين والمختكرين لسرقة وتقويض الهيكل ، لأن اليهود انقلوا من عبادة الله وحده إلى عبادة الذهب الذي كان في الهيكل . ولم يعترفوا برسالة محمد — صلوات الله عليه وسلامه — لأنه كان من الأمم وكانوا يعتقدون أن الله لا يبعث رسولا إلا من بني إسرائيل . وقد كذبهم الله في هذه الدعوى بقوله سبحانه وتعالى . ه هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم ^(١) ووجدوا أنهم لو اعترفوا برسالة محمد — ﷺ — فإنهم يسيئون إلى آبائهم الذين لم يعترفوا برسالة السيد المسيح وقلاموها أشد المقاومة ؛ لأن نبي الإسلام — صلوات الله وسلامه عليه — اعترف بالحمل الظاهر للسيدة مريم العذراء وبرسالة عيسى بن مريم عليه السلام .

أما أن الرسالة وسورة كانت في بني إسرائيل وحدهم فإن القرآن الكريم مدحض هذا الزعم ، ولكل أمة

رسول^(١) . وهذا الرعم يجرح إبراهيم الخليل من عداد الأنبياء المرسلين فقد كان خليل الرحمن من العزاق وقد أرسله الله قبل أن يولد يعقوب (إسرائيل) . والقرآن الكريم يسحر من ذلك القول الباطل ويسميه : « يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون » ها أنتم هؤلاء حاحجتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ، ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين . إن أولى الناس بإبراهيم للدين اتبعوه وهذا الدين آمنوا بالله ولى المؤمنين^(٢) .

وأنزلت لتوراة على موسى عليه السلام ، « وقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر لناس وهدى ورحمة لعلمهم يتذكرون »^(٣) . و« على هذه حقيقة انتهى تفرد اليهودية والمسيحية والإسلام فإن إبراهيم حين الرحمن « يقر حرمه من سورة فقد تبرأ منه عليه صحف كما أنزل على موسى . » إن هذا معنى الصحف لأول صحف إبراهيم وموسى^(٤) . و« يرسمحاق ويعقوب (إسرائيل) سورة ، فقد روت على موسى عليه السلام من بعدهما ، وإن قصت صحف سورة انتهى كتبت في أنهي بأخبارهما ، وقد حدث اليهود محمدًا — ﷺ — في مدينة فيما أحل لى إسرائيل من الصعاء وفيما حرم عليه ، فجاء نقرآن ليقرر مرة أخرى أن التوراة قد نزلت بعد إسرائيل وإن حاوون يهود أن يسكروا هذه الحقيقة الواضحة وصوح الشمس : « كل الصعاء كان حلالا لى إسرائيل ، لا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تبرأ من التوراة فل «تبرأ» التوراة فالتبرأ وإن كتبه صدقون^(٥) .

(١) يونس ٤٧ — (٢) عم ٢٥ —

(٣) نصوص ٤٣ (٤) لعل ١٨ — ١٥ (٥) عمر ٥٣

نزلت التوراة على موسى عليه السلام ، فلما طال على بني إسرائيل الأمد
اعتبروا التوراة كتاب تاريخ يسجل أيامهم وحروبهم وقصر أبيائهم ،
فأضاموا إليه أسفارا وقالوا هذا من عند الله . ولما حارب بوحد مصر
(مختصر) بني إسرائيل وهزمهم شر هزيمة حرق التوراة وحمل اليهود إلى
بابل ، وهناك أعيدت كتابة التوراة وأضيفت إليها أسفار جديدة وقد
طهرت بوصوح أساطير بابل وآداب مصر المرعوية في التوراة الجديدة التي
كتبها أبحار اليهود بأيديهم : « وويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون
هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت بأيديهم وويل لهم مما
يكسبون » (٢) .

« وإن منهم لفرقة بلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسوه من الكتاب وما هو
من انكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله
الكذب وهم يعلمون » (٣) .

كتب التوراة في المنفى وكان اليهود في بابل مصصهدين ، رحافهم عبيد
وساؤهم إماء ومحطيات ، نفوسهم مليئة بالأحقاد على الشرية جمعاء فلم ينج
من حقدهم الأسود الرسل والأنبياء ، فركة الآباء للأنبياء تسرق ، وأنبياء بني
إسرائيل يتردون في حمأة الردئ يعاقرون الحمر ويرتكون الفواحش ما طهر
مها وما يظن ، ثم يزعمون بعد ذلك أنهم شعب الله اختار وأنهم وحدهم الناس
ومن عداهم أئم ليس لهم عليهم حقوق ، سرقتم حلال . « ومنهم من إن تأمنه
مديار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في

(١) البقرة ٧٩

(٢) آل عمران ٧٨

الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعمون^(١) . من وقتلهم حلال فهو قرفى إلى إله إسرائيل المتعصش إلى الدماء على الدوام .

وقد سحر القرآن الكريم من رعمهم أنهم وحدهم الناس وأن الدار الآخرة حاصلة لهم من دون الناس : « قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله حاصلة من دون الناس فمما أموت إن كنتم صادقين . ولن يتموه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين »^(٢) .

والدار الآخرة في التوراة التي كتبت في أسفى عامصة كل العموض ، وحصة بالنسبة لليهودى هي اليوم في حصص إبراهيم . وقد استبدلت النار بالمكرة البابلية التي تعبر عن العالم الآخر بالأرض التي لا رجعة منها . ولا عرو فقد ترك اليهود التوراة التي برلت على موسى وسلبوا أساطير الشعوب التي عاشوا بين ظهرانيها ونسوها إلى أنبياء بني إسرائيل

إن بعد ما ريسند راح يقدون في كتبه « فخر سارح » بين أقوال موسى الواردة في التوراة التي كتبت في أسفى وأقوال إحصانين وبين أقوال إحصانين ومزامير داود ، وحلص ستيحة مؤدها أن أقوال أنبياء بني إسرائيل قد اقتست من أسياء قدماء المصريين وهذا حق ، فعند أن حرق تختصر توراة الله كتبت أبحار اليهود في المسمى التوراة الحديدية على متون ديانات قدماء المصريين وآشوريين والسانيين وأساطير شعوب .

وقد يقسم اليهود أنفسهم حول التوراة التي كتبت في أرض السى ، فقال السامريون إذا كانت توراة قد رست على موسى فمن أين جاءت الأسعار التي تروى أحداث بني إسرائيل بعد موسى ؟ ولم يؤمن السامريون إلا بالأسعار

(١) آل عمران ٧٥

(٢) النقرة ٩٤ — ٩٥

الخمسة الأولى وهى : التكوين والخروج واللاويين والعدد ونشئة ، وهى الأسفار التى تروى خلق الله السموات والأرض ، وخلق آدم وحواء ، وقصة قابيل وهابيل ، وقصة نوح وأبائه ، وقصة إبراهيم الخليل ولوط ، ثم قصة موسى وحروجه من مصر ، ثم قصة اللاويين وهم موسى وهارون وبنو هارون ، فموسى وهارون لم يكونا يهوديين فهما من سبط لاوى أحمى يهودا الذى يسميه اليهود ، وإصحاحات عدد وفيها ذكر عشر سبى إسرائيل ، وإصحاحات التثنية وفيها شريعة بنى إسرائيل على لسان موسى .

ولمّا كان السامريين لم يعترفوا إلا بهذه الأسفار الخمسة إلا أنهم لم يعولوا أن يعصلوا بين التبريد وإصحاح من الأخبار التى وردت فى تلك الأسفار . فأنه سبحانه وتعالى فى الإصحاح الثانى من سفر التكوين يسرّح فى اليوم السابع بعد أن خلق السموات والأرض : « فأكملت سموات والأرض وكل حدها ، وفرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمله . فاستراح فى اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل . وبورك الله اليوم السابع وقدمه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذى عمل الله حقيقاً » . وه بعض السامريون إلى أن اتبع لا يعور على الله ، وصل ذلك لوهم يسيطر على عقوب كل الذين يتبعون التوراة التى كتبها حذر اليهود فى اسمى إلى أن جاء محمد — ﷺ — وتلا ما أنزل عليه من ربه : « ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب » (١) .

وتذكر التوراة خلق آدم : « وجل الرب الإله آدم تراباً من الأرض ونفخ فى أنفه سمنه حية فصار آدم معاً حياً . وعرض الرب الإله حية فى عدن شرقاً

ووضع هناك آدم الذي قبله . أما القرآن الكريم فيذكر خلق آدم في آيات أكثر وصوحا وتفصيلا : « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون » (١) .

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال آسجد لمن حقت طيما » (٢) . « ولقد خبقنا الإنسان من سلالة من طين » (٣) . الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل سله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » (٤) .

وتذكر التوراة في تعميم آدم : « وجعل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء فأحصرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها . فدعا آدم بأسماء جميع السباع وطيور السماء وجميع حيوانات البرية » . أما القرآن المحيد فيقول بعد أن قال للملائكة لرب العرة : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنسوا بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنزلهم بأسمائهم فما أسأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » (٥) .

(١) البقرة ٣٠ (٢) الاسراء ٦١

(٣) المؤمنون ١٢ (٤) السجدة ٧ — ٩

(٥) البقرة ٣٠ — ٢٣

وتذكر التوراة كيف خلقت حواء : « فأوقع الرب الإله سباتا على آدم فام ، فأخذ واحدة من أضلاعه وملاً مكانها بحما وبني الرب الإله الضمع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم ، فقال آدم هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي . هذه تدعى امرأة لأشأ من امرئ أخذت ، لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً ، وكانا كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما لا يفتحلان » .

وإن دارس هذا النص يقف عند ملاحظتين : الأولى أن آدم على علم بكل شيء دون أن توضح التوراة من أين جاء ذلك العلم ، والثانية أن هناك حجة اعتراضية لا يدري من أين جاءت ومن قائلها ، الله هو القائل ؟ : لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً . أم أن قائل ذلك الأخبار الذين أعادوا كتابة التوراة في القرنين ١٩

و لم يرد اسم حواء في القرآن الكريم فكان الخطاب بعد خلق حواء لآدم وزوجه : « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلاهما رعدا حيث شئنا » (١) . « وإدقلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ، فقلنا يا آدم هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجكما من الجنة فتشقى » إن لك ألا تنوح فيها ولا تعزى . وأنت لا تطمأ فيها ولا تضحى » (٢) .

وتصور التوراة حطية آدم تصويراً بشرياً صريحاً ، فانه سبحانه وتعالى عما يصفون يمشى في الجنة ويجهل ما يجري خلف ظهره : « وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الإله . فقالت للمرأة : أحقا قال الله لا تأكل من كل شجر الجنة ؟ فقالت المرأة للحية : من ثمر شجر الجنة نأكل ،

(١) البقرة ٣٥

(٢) طه ١١٦ — ١١٩

وأما ثمر الشجرة التي في وسط الحية فقال الله لا تأكل منه ولا تمسه لئلا تموتا .
فقال الحية للمرأة : لئلا تموتا . بل الله عالم أنه يوم تأكلون منه تمتنع أعينكما
وتكونان كالله عارفين الخير والشر . فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها
بهجة للعيون ، وأن الشجرة شهية للنظر ، فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت
رجلها أيضا معها فأكل ، فامتحت أعينهما وعلمتا أنهما عريانان فحاطا أوراق
تين وصعنا لأنفسهما مآزر .

وسمعا صوت الرب الإله ماشيا في الحية عند هبوب ريح البهار ، فاحتبأ آدم
وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الحية . فمادى الرب الإله آدم وقال
له ، أين أنت ؟ فقال : سمعت صوتك في الحية فحشيت لأني عريان
فاحتبأت . فقال من أعينك أنك عريان ؟! هل أكلت من الشجرة التي
أوصيتك ألا تأكل منها ؟ فقال آدم : المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من
الشجرة فأكلت . فقال الرب الإله للمرأة : ما هذا الذي فعلت ؟ فقالت
امرأة : الحية عرتني فأكلت . فقال الرب الإله للحية . لأنك فعلت هذا
ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية . على بطنك تسعين
وترابا تأكلين كل أيام حياتك . وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين
سلتك ، وسلها ، هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه ، وقال للمرأة : تكثيرا
أكثر أعاب حلك . بالوحي تلدين أولادا وإلى رحلتك يكون اشتياقتك وهو
يسود عليك . وقال لآدم : لأنك سمعت بقول امرأتك وأكلت من الشجرة
التي أوصيتك قائلا لا تأكل منها ، ملعونة الأرض بسببك . بالنسبة تأكل منها
كل أيام حياتك ، وشوكا وحسكا^(١) تبت لك وتأكل عشب الحقل . يعرق

(١) الحسك : نبات تعق ثمرته بصوف الغنم

وجهلك تأكل حرا حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها ، لأنت تراب وإلى تراب تعود . . . وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد مما عارفا الحير والشر ، والآل لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا إلى الأبد . فأحرجه الرب الإله من حبة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها . . من هذه النصوص يتضح أن الله سبحانه وتعالى عما يصفون لم يكن يعرف أين آدم ، فقال له : أين أنت ؟ ولم يكن يدري أن آدم قد أكل من الشجرة قبل أن يقول له آدم إنه عريان ، وأن حواء هي المسئولة عن هذه الخطيئة ، وأن الله قد طرد الإنسان من الجنة لأنه خاف أن يتناول من شجرة الحياة فيصبح هو الآخر إلها يحيا إلى الأبد .

والفكرة عن الإله في هذا الإصحاح لا تختلف في كثير ولا قليل عن فكرة البابليين عن الآلهة الذين يحشون على الأرض ويحشون مملكة البشر في سبطاتهم ، وخوفهم من أن يصل الإنسان إلى الخلود فيصبح إلها مثلهم ، وقد حطت أحرار اليهود حقائق بأصابع حياء قصة طرد آدم وروحه من الجنة في أسلوب مشوق إلا أنها جسدت الإله الذي ليس دونه منتهى ، ولا وراءه مرمى .

إن القرآن الكريم يقرر منذ بدأ الله في خلق آدم أنه جاعل في الأرض خليفة ، بعد البدء خلق الله آدم ليكون خليفته في الأرض . ولم يرد للجنة ذكر في القرآن ولم يذكر أن حواء هي التي أعرت آدم على الأكل من شجرة الخلد ، بل إن الشيطان هو الذي وسوس إليه . . فوسوس إليه الشيطان قبل يأذنه هل أدلتك على شجرة الخلد وملئت لا يلى فأكلا منها فعدت منهما سوءا ففلق يصفعد عليهما من ورق الجنة وعصى آدم رسه

فغوى»^(١). «وَيَأْتِمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَرَوْحُكَ الْجَمْعَ فَكَلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . هَوَسَ هُمَا الشَّيْطَانُ لِيَدِي هُمَا مَا وَوَرَى عَنْهُمَا مِنْ سَوَاعَتِهِمَا وَقَالَ مَا بَهَا كَمَا رَبَّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ . وَقَاسَمَهُمَا إِنْ لَكُمَا لِمَنِ الْبَصَائِرُ . فَلَمَّا بَغَرُوا دَاقًا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاعَتُهُمَا وَطَعَفَا بِحَصْفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْخَلْجَةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ . فَلَمَّا رَآهُمَا أَنْفُسَاهُمَا وَإِنْ لَمْ تَعْرِفَا لَهَا وَتَرَجَمَهَا لِكُوسٍ مِنَ الْخَاسِرِينَ . قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ . قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَفِيهَا تُخْرَجُونَ»^(٢).

ويلاحظ أن عبارة التوراة اكتفت بالعودة إلى الأرض التي أخذ منها الإنسان لأنه تراب وإلى التراب يعود ، أما عبارة القرآن فلم تكنف بالحياة في الأرض والموت فيها بل أصغت الخروح منها لأن القرآن الكريم يذكر نعت دُعْمَا ، أما اليهود الذين عاشوا في أرض السبي فقد سبوا النعت ولم يدكروا عنه شيئا عندما أعادوا كتابة التوراة في أرض سبيل.

ومرت حضيضة آدم في التوراة دون أن تلقى عيبه أصواء تحسه من بشعته . ولم يتحمل أحد من البشر ودرها . هسداً لإنهى معادل يقرر ألا ترز وازرة وزر أخرى ، وأن الأبناء لا يسألون عن حضيضة الآباء ، وأن الآباء لا يسألون عن حضيضة الأبناء . كل عن حقيقته يسأل . ولكن لما قدم السيد المسيح بدعوته لإصلاح فساد يهودية ، ولما صب في المضلام رجل رعه بعض الراعمين أنه السيد المسيح ، ولما سترى بولص على مكان السيد المسيح أراد

(١) طه ١٢٠ — ١٢١

(٢) لأعراف ١٩ — ٢٥

أن يفلسف الصليب ورعم أن البشرية قد ورثت خطيئة آدم ، وأن المسيح قد جاد بروحه على الصليب ليخلص البشرية من خطيئة آدم . وبناء على هذا الرعم يكون البشر جميعا قد جاءوا من الخطيئة قبل عملية التطهير التي تمت بالصليب ، ويكون الرسل والأسياء جميعا الذين جاءوا قبل الصليب ملوثين بخطيئة آدم .

و لم يترك القرآن الكريم هذه الدعوى الخائرة دون نقاش ، فقال إن الأمر كان أهون من أن تحمل البشرية حملاء خطيئة آدم : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم »^(١) ، « وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدى »^(٢) .

وجاء في أول الإصحاح الخامس من سفر السكوير : « هذا كتاب مواليد آدم يوم خلق الله الإنسان على شبه الله عمله » . وقد اشترت هذه المبرية حتى في بعض كتب المسلمين بعد أن ترجمت التوراة إلى انجليزية في القرن الثاني هجرة السني — ^{ص ١٢١} — سبحانه ونعاه عما يقومون عموا كبيرا .

وجاء في الإصحاح السادس من نفس السفر : « ورأى رب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض وأن كل بصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم ، فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه . فقال الرب : أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقتة . الإنسان مع بهائم ودهابات وطيور السماء ، لأنى حررت أنى عملتهم . وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب » . وهذا القول بصور أن الله لم يكن يعلم يوم جعل في الأرض خليفة أن البشر سيتركبون المعصية وبصور أن البشر قد تمردوا على الله . وقد أثر هذا القول

(١) البقرة ٣٧

(٢) ص ١٢١ ، ١٢٢

الخاطيء في أعمال كثير من المفكرين اليهود والمسيحيين فحانت أعمالهم الأدبية تصويرا لذلك العصيان ، وكان لمثل هذه الأقوال التي تفيض بها توراة المسقى أكثر الأثر في كفران كثير من مفكريهم بالدين ، وإن هم كل العذر لو كفروا بأساطير الوثنيين . أما القرآن الكريم فلم يقل إن الله قد حزن لما رأى سوء أعمال الناس . فأنه يوم خلق آدم كان على علم بما خلق وبسلوك ما خلق وما ركب فيه من عرائز : « ولو شاء الله لخلعكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون »^(١) . « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيما عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لخلعكم أمة واحدة ولكن ليلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فيحكم مما كنتم فيه تختلفون »^(٢)

ونظر الآن كيف يصورون نوحا الذي وحده نعمة في عبس الرب « وابتدأ نوح يكوّن فلاحا وعرسا كرما وشرب من اخمر فسكر وتعرى داخل حياته . فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر بأخويه خارجا . فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووحدهما إلى الوراء فلم يبصرا عورة أبيهما . فلما استيقظ نوح من حمرة علم ما فعل به ابنه الصغير فقال : ملعون كنعان ، عبد العبد يكون لإخوانه ، وقال : مبارك الرب : سام وليكن كنعان عبدا لهم ، ليفتح الله أبوابه في مساكن سام وليكن كنعان عبدا لهم » .

(١) لحن ٢٣

(٢) لحن ٤٨

ولو تمعنا في هذا الكلام لوجدنا أن كُتّاب التوراة في المنفى لم يكونوا حريصين على تدوين حقيقة قد وقعت ، فمن الاستخفاف بالعقول أن يكون نوح الذي وجد نعمة في عيسى الرب شريب حمر وأن يصل به السكر إلى أن يتعمى . ولكن الدافع الحقيقي لسرد هذه القصة في كتاب من المفروض أنه مقدس هو دافع سياسي . فالكعابيون كانوا أطوال تاريخ اليهودية أعدى أعداء اليهود ، كانوا أصحاب فلسطين وقد قاوموا بكل السبل استقرار اليهود في أرض كعاب ، لذلك لعوهم على لسان نوح وجعلوهم ثلاث مرات عبيدا لإخوتهم .

إن مدى رأى عورة أبيه في ذلك الزعم هو حام أبو كعاب ، فما ذنب كعاب ما دام اسداً في لتوراة هو أن الابس لا يسأل عن حرية الأب . إن غلطة كعاب الحقيقية ليس أنه ابن حام ولكنه أبو الكعابيين الذين حاربوا بني إسرائيل واليهود على مر السنين

وحاء في الإصحاح الحادى عشر من سفر التكوين : « وكانت الأرض كلها لسان واحدة ولسان واحدة ، وحدث في ارتخائهم (قبائل بني نوح) شرقاً أنهم وحدوا بقعة في أرض شعار وسكنوا هناك ، وقال بعضهم لبعض هلم نصنع لساناً ونشويه شياً ، فكان لهم اللسان مكان الحجر وكان لهم الخمر مكان الخبز ، وقالوا لهم بنو لسان مدينة ورحلوا منه بسماء ونصنع لأنفسنا اسماً لئلا يتبدد على وجه كل الأرض . ففرل الرب ليظفر المدينة والرحل الذين كان بنو آدم يسوسها ، وقال الرب هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم وهذا ابتدأهم بعمل . ولأن لا يسمع عنهم كل ما يقولون أن يعملوه . هم نزل وبسبب هذا لسانهم حتى لا يسمع بعضهم سائر بعض . فهددهم الرب من هناك على وجه الأرض فحكوا عن سائر المدينة ، بذلك دعى اسمها بابل لأن

الرب هناك بليل لسان كل الأرض ، ومن هناك يدهم الرب على وجه الأرض .

في هذا الإصحاح مجد إلها يرتجف فرقا من عمل عباده . ولا عرو فإن قلته امتلا حزنا لأنه خلق الإنسان كما جاء في الإصحاح السادس من هذا السفر إنه ينزل من عليائه كما ينزل الملك عن عرشه ليفرق جماعة من العصاة لكيلا تتحد كلمتهم فيشقوا عصا الطاعة ويخلعوه عن عرشه . وإن دارس أساطير البابليين يجد مثل ذلك الصراع بين الآلهة والبشر واضحا كل الوضوح ، وقد تأثر كتاب التوراة في المعنى بكل الآراء التي جاءت في تلك الأساطير .

وجاء في هذا الإصحاح أن بابل إنما سميت بهذا الاسم لأن الرب قد نزل هناك ولبيل ألسنة الشر أعدائه حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض ، والحقيقة أن الله كان يعرف بالإيل وأن اسم المدينة كان باب إيل أى باب الرب : وأن برج بابل إنما بنى كجميع الأبراج التي سبقت لعادة القمر ، وكان في مدينة أور التي ولد فيها حليل الرمح إبراهيم يعرف سانا ويعرف في جميع بلاد ما بين النهرين بسين ، وقد انتشرت هذه العبادة في بلاد الشرق الأوسط وكانت سياء من أهم مراكزها وهي تنسب إلى إله سين .

ويقول القرآن الكريم : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » (١) « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم

خير^(١).

ثم تروى الإصحاحات الثانی عشر والثالث عشر والرابع عشر قصة إبراهيم الخلیل ولوط وكيف أن الأرض لم تحتملهما أن يسكنا معا إذ كانت أملاكهما كثيرة ، فسكن إبراهيم أرض كنعان وسكن لوط أرض الأردن ونقل خيامه إلى سدوم ، وكيف قامت الحرب في هذه المنطقة بين أربعة ملوك وخمسة ملوك ، وكيف وقع لوط أسيرا وكيف أنقذ من نجا من الأسر إلى إبراهيم وأخبره بأسر لوط ، فخرج إبراهيم في عثمائه حتى خلص لوطا من الأسر . ويروى الإصحاح التاسع عشر قصة الملكين البدين جاءا إلى لوط وكيف أن رجال المدينة أرادوا أن يأتوا بهما العاحشة ، وكيف أمر المكان لوطا بالخروج بأهله ، وكيف نظرت امرأته حلمها عندما كان الله يزل بالمدينة عدايه ، وكيف تحولت إلى عمود منيع . وفي الإصحاح التاسع عشر بقرا : « وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابته معه ، لأنه خاف أن يسكن في صوغر فسكن في المعارة هو وابته . وقالت البكر للبصيرة : أبونا قد شاح ونيس في الأرض رحل ليدخل علينا كعادة كل الأرض . هل نسقي أبانا حمرا ونضطجع معه فحبي من أبيا سلا . فسقتا أباهما حمرا في تلك ، الليلة ، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها . وحدث في العد أن البكر قالت للبصيرة إن قد اضطجعت البارحة مع أبي نسقيه حمرا الليلة أيضا فادخلي اضطجعي معه فحبي من أبيا سلا . فسقتا أباهما حمرا في تلك الليلة أيضا وقامت البصيرة واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها . فحلت لنا لوط من أبيها ، فولدت البكر ابنا ودعت اسمه مؤاب وهو أبو المؤابيين إلى اليوم ، والبصيرة أيضا وولدت ابنا

ودعت اسمه بن عمى وهو أبو بى عمون إلى اليوم ٤ .

هذه هي صورة لوط في التوراة التي كتبت في أرض المضي لما كانت اليهود أذلاء وكانت نساؤهم محطيات فمكسوا صورة الانحطاط الذى كانوا معمسين فيه على الأنبياء لعل يكون في ذلك تعرية عما هم فيه من انحلال . ومن الغريب أن لوطا لما وقع في الأسر وخذ من يطير إلى إبراهيم في أرض كنعان فبات في محلصه من أسره ، أما بتا لوط فلم يجد من يرسله إلى إبراهيم ليعث لهما رحلين يتزوجانهما عوضا عن الاضطجاع مع أبيهما السكران ! إنها صورة بشعة تهبط بالبشرية إلى الحضيض لو أنها صدرت عن رجل عادى وبتيه استين عز عليهما الرواح ، فما بالك وقد جعلتها التوراة تصدر عن نبي وبتيه وعلى بعد أميال منهم رجال مؤمنون يتهللون بالفرح لمصاهرة نبي من أنبياء الله !

وشتان بين لوط في التوراة ولوط في القرآن : ﴿ ولوطا إذ قال لقومه أنأتون العاحشة ما سفكم بها من أحد من العالمين . إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون . وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون . فأجيبناه وأهلكه إلا امرأته كانت من العابرين . وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ (١) .

﴿ ولوط إذ قال لقومه أنأتون العاحشة وأنتم تصرون . أنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون . فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون . فأجيبناه وأهلكه إلا امرأته قدرناها من العابرين . وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المدرين ﴾ (٢) .

(١) الأعراف ٨٠ — ٨٤

(٢) النمل ٥٤ — ٥٨

١ ولما جاءت رسلا لوطا سيئ بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب . وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء باقى من أظهر لكم فانتقوا الله ولا تحزوا في ضيفي أليس منكم رجل رشيد . قالوا لقد علمت ما لنا في بأتك من حق وإنك لتعلم ما تريد . قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد . قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأمر بآهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا أمرتكم إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب . فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل مبود . مسومة عند ربك وما هى من الظالمين يبعيد ^(١) .

٢ ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الماحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . أتتكم لتأتون الرجال وتقطعون السيل وتأتون في نادىكم المكرفعا كان جواب قومه إلا أن قالوا أئنا بعداب الله إن كنت من الصادقين . قال رب انصرنى على القوم المفسدين . ولما جاءت رسلا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين . قال إن فيها لوطا . قالوا نحن أعلم بما فيها لننجيه وأهله إلا امرأته كانت من العابرين . ولما جاءت رسلا لوطا سيئ بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تحف ولا تحزن إنا محبوك وأهلك إلا امرأتك كانت من العابرين . إنا منزلون على أهل هذه القرية رجلا من السماء مما كانوا يفسقون . ولقد تركنا بها آية بية لقوم يعقلون ^(٢) .

٣ كذبت قوم لوط المرسلين . إذ قال لهم أحوهم لوط ألا تتقون . إني لكم رسول أمين . فانتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أحرى إلا

(١) هود ٧٧ — ٨٣

(٢) العنكبوت ٢٨ — ٣٥

على رب العالمين . أتأتون الذكرا من العالمين . وتندرون ما خلق لكم ربكم من أرواحكم بل أنتم قوم عادون . قالوا لئن لم تنته يا لوط لنكوس من انحرجين . قال إني لعملكم من القالين . رب عني وأهلي مما يعملون . فحيناه وأهله أجمعين . إلا عجورا في العابرين . ثم دمرنا الآخرين . وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين . إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك هو العزيز الرحيم ١ .

« وإن لوطا لمن المرسلين . إذ نحيناه وأهله أجمعين . إلا عجوزا في العابرين ، ثم دمرنا الآخرين . وإنكم لتفرون عليهم مصحين . وبالليل أفلا تعقلون ٢ . »

« ولوطا آتياه حكما وعلما ونحيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إثم كانوا قوم سوء فاسقين . وأدحمناه في رحمتنا إنه من الصالحين ٣ . »

وذكر في الإصحاح السادس عشر من سفر التكوين مولد إسماعيل :
« وأما ساراي امرأة إبراهيم فسم تلده . وكانت لها حارية مصرية اسمها هاجر فقالت ساراي لإبراهيم : هو ذا ارب قد أمسكى عن الولادة . ادخل على حاريتي لعل أرزق منها بين . فسمع إبراهيم لقول ساراي ، فأخذت ساراي امرأة إبراهيم هاجر المصرية حاريتها بعد عشر سنين لإقامة إبراهيم في أرض كنعان وأعطتها لإبراهيم رحلها روجه له . فدخل على هاجر فحبلت ، ولما رأت أنها حبلت صغرت مولاتها في عيها فقالت ساراي لإبراهيم : طلمى عيبك ، أنا دعوت حاريتي إلى حضنك . يقضى الرب ببني ويسلك . فقال إبراهيم

(١) الشعراء ١٦٠ — ١٧٥

(٢) الأصناف ١٣٢ — ١٣٨

(٣) الأنبياء ٧٤ ، ٧٥

لساراي : هو ذا جاريتك في يدك . افعل بها ما يحسن في عينيك ، فأدلتها ساراي فهربت من وجهها .

فوجدوها ملاك الرب على عين الماء في البيرة ، على العين التي في طريق شور ، وقال يا هاجر جارية ساراي من أين أتيت وإلى أين تذهين ؟ فقالت أنا هاربة من وجه مولاتي ساراي . فقال لها ملاك الرب ارجعي إلى مولاتك واحضعي تحت يديها . وقال لها ملاك الرب تكثيرا أكثر نسلتك فلا يعد من الكثرة . وقال لها ملاك الرب ها أنت حلي فتلدن ابنا وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمدينتك ، وإنه يكون إنسانا وحشيا ، يده على كل واحد ويد كل واحد عليه وأمام جميع إخوته يسكن . فدعت اسم الرب الذي تكلم معها أنت إيل رنى . لأنها قالت أهها أيضا رأيت بعد رؤية ، لئلا تدعى العثر لحي رنى . ها هي بين قادش وبارد .

فولدت هاجر لإبرام ابنا ودعا إبرام اسم ابنه الذي ولدته هاجر إسماعيل وكان إبرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل لإبرام .
وتسكت التوراة التي كتبت في المسمي عن هاجر وإسماعيل ولا تروى لنا كيف تحقق وعد الله بأن يكثر نسلها كثيرا ، ولا كيف حقق الله وعده لهاجر الذي جاء في الإصحاح الحادى والعشرين من نفس السفر ١٠ . . وبأدى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها . مالك يا هاجر ؟ . لا تخفى لأن الله قد سمع لصوت العلام حيث هو ، قومي احمل العلام وشدى يدك به لأنى سأحمله أمة عظيمة . وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القرية ماء وسقت العلام وكان الله مع العلام فكر وسكن بيرة . وكان يسو رامى قوس وسكن في بيرة هيران وأحدث به أمه روضة من أرض مصر .
تسكت توراة المسمي متعمدة عن إسماعيل وعن سوء إسماعيل وعن ذهاب

إبراهيم إلى مكة وعن تعاون إبراهيم وإسماعيل في إقامة القواعد من البيت ، لأن بنى إسماعيل كانوا يحمون بنى إسرائيل حتى وقعت العداوة بينهم فممس بنو إسرائيل على بنى إسماعيل فأرادوا أن يسلوهم كل عهد .
ولما كان كتاب التوراة في المفى أرادوا أن يحصروا الرسالة والنبوة في بنى إسرائيل فإبهم رأوا أن الحديث عن نبوة إسماعيل سيقوص دعواهم لأن إسماعيل لم يكن من بنى إسرائيل . فسكتوا عن كل نبوة ظهرت في العرب فلم يذكروا صالحا الذى بعث إلى قوم ثمود ، ولم يذكروا هودا الذى بعث إلى قوم عاد ، ولم يذكروا شعيبا الذى بعث إلى مدين ؛ لأن هؤلاء المرسل كانوا من العرب ولم يكونوا من بنى إسرائيل .

وليس من المنقول أن بنى إسرائيل لم يسمعوأ ثمود وعباد وعمدين وقد ذكر بطليموس هذه المدن في أطلسه واليهود كانوا أقرب من بطليموس إلى هذه البلاد ، ولكنها الأعراس أسكتتهم عن حقائق نصير بدعوتهم بل تفوصها من أساسها .

إبهم لو ذكروا أن إبراهيم قدم القواعد من أول بيت وضع للناس وإسماعيل لذهب ذلك نجلال هيكل سليمان فحاوروا أن يطمسوا تلك الحقائق ؛ ولكن القرآن الكريم جاء يكدهم في دعواهم أبهم وحدهم الناس وأن الرسالة والنبوة فيهم وحدهم دور العالمين . قال الله تعالى : ﴿ ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ﴾ (١) . وهذه الحقيقة تؤكد أن الرسالة كانت قبل بنى إسرائيل : ﴿ يا أهل الكتاب لم تحتاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا

تقولون ﴿١﴾ .

﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهم قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن دريتي قال لا يزال عهدي الطائين ﴾ * وإذ جعلنا بيت مائة لئاس وأما وتعدوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴾ * وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتنع قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وثمن المصير ﴾ * وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن دريتنا أمة مسلمة لك وأرنا ما سكتا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾ * ربنا وبعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويركهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ * ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا والآخرة لمن الصالحين ﴾ * إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴿٢﴾

﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي سكة مباركا وهدى للعالمين ﴾ ﴿٣﴾

﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وصهر مني الطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ ﴿٤﴾

وقص القرآن الكريم قصة هود وقد أعطيت توراة المسمى : ﴿ وإلى عاد أحاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ألا تنفون . قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾ قال يا قوم

(١) آل عمران ٦٥ .

(٢) البقرة ١٢٤ — ١٣١ .

(٣) آل عمران ٩٦ .

(٤) الحج ٣٦ .

ليس في سفاهة ولكي رسول من رب العالمين * أبلعكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين * أوعجيت أن جاءكم ذكر من ربكم على رحل منكم لئيدرکم وادکروا إذ جعلکم خلفاء من بعد قوم نوح وزادکم فی الخلق بسطة فادکروا آلاء الله لعلکم تفلحون * قالوا أحتسب لنعد الله وحده وننذر ما کان بعد آبائنا فأتنا بما تعدنا إن کنت من الصادقين . قال قد وقع علیکم من ربکم رحس وغصب اتحادلونی فی أسماء سمیتوها أنتم وآبائکم ما نزل الله بها من سلطان فانظروا إلی معکم من المنتظرین * فأخیناه والذین معه برحمة ما وقطعنا دابر الذین کذبوا بآياتنا وما کانوا مؤمنین ﴿١﴾

وقص القرآن الكريم قصة صالح لأن القرآن المحيد لا يفرق بين رسل من الأمم ورسول من بني إسرائيل . ﴿٢﴾ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبکم بذنوبکم بل أنتم بشر ممن خلق يعقر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله ملئ السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير ﴿٣﴾ .

لم يكن إدريس من بني إسرائيل ، ولم يكن نوح من بني إسرائيل ، ولم يكن إبراهيم من بني إسرائيل ، ولم يكن إسماعيل من بني إسرائيل ، ولم يكن هود من بني إسرائيل ، ولم يكن صالح من بني إسرائيل ، فإن كان لديهم كتب التوراة في المعنى قد ذكروا نوحا وإبراهيم فقد كانوا إلى ذلك مصطرين لتستقيم قصة البشرية التي وضعوها مدحوق الله آدم إلى أن اصطفى يعقوب (إسرائيل) * ولم تكن هناك ضرورة لسرد قصة صالح وهود وشعيب بل كان هناك ضرورة لعدم ذكر قصص هؤلاء الأشياء حتى لا تنقص بظريتهم القائلة بأن الرسالة والسوة كانت فيهم وحدهم وحتى يرسوا عروهم الذي

(١) الأعراف ٦٥ — ٧٢

(٢) المائدة ١٨

صور لهم أمهم وحدهم الناس وأن من سواهم أم ، كلاب الشرية .
﴿ وإلى ثمود أحاهم صالحا قال يا قوم عبدوا الله ما لكم من إله غيره قد
جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا
تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ﴾ وادكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد
وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتتحتون الجبال بيوتا فاذكروا
آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ قال الملأ الذين استكبروا من قومه
لندين استضعفوا لم آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما
أرسل به مؤمنون ﴾ قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون ﴾ ففعلوا
الباقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح اتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين
فأخذتهم الرحفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ فتولى عنهم وقال يا قوم لقد
أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴿ (١) ﴾

﴿ وإلى مدين أحاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا
تقصوا المكيال والميزان إلى أراكم تخبر وإلى أحاف عليكم عذاب يوم مخطط .
ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تحسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في
الأرض مفسدين ﴾ نقيت الله حير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم
بحفيظ ﴾ قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن تتركنا يعبد آباءنا أو أن نعمل في
أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحميم الرشيد ﴾ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة
من ربي وررقي منه ررقا حساسا وما أريد أن أحضركم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد
إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أئيب ﴾ وبا
قوم لا يجرمكم شقاق أن بصيكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم

صالح وما قوم لوط منكم بعيد* واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم
ودود* قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فيا صعيما ولولا
رَهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز* قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله
وأتعدتموه وراءكم ظهريا إن ربي عما تعملون محيطة* ويا قوم اعموا على مكانتكم
إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخربه ومن هو كاذب وارقبوا إني
معكم رقيب* ولما جاء أمرنا بحيا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة ما وأحدث
الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين* كأن لم ينصروا فيها ألا بعدا
للمدين كما بعدت ثمود ﴿١﴾ .

وحاء في الإصحاح السابع عشر من سفر التكوين : « ولما كان إبراهيم ابن
تسع وتسعين سنة ظهر الرب لإبراهيم وقال له : أنا الله القدير . سر أمانى وكى
كاملا فأجعل عهدي بينى وبينك وأكثر كثير جدا . فسقط إبراهيم على وجهه
وتكلم الله معه قائلا : أما أنا فهو ذا عهدي وتكون أنا لجمهور من الأمم . فلا
يدعى اسمك إبراهيم بل يكون اسمك إبراهيم . لأنى أحعلت أنا لجمهور من
الأمم وأثمرك كثيرا جدا وأحعلت أمما . وملوك ملك يخرجون ، وأقيم عهدي
بينى وبينك وبين نسبتك من بعدك في أحيائهم عهدا أبديا لأكون إلها لك
ولنسبتك من بعدك وأعطى لك ولسلتك من بعدك أرض غربتك كل أرض
كنعان ملكا أبديا وأكون إلههم .

وقال الله لإبراهيم وأما أنت فتحفظ عهدي أنت ونسبتك من بعدك في
أحيائهم . هذا هو عهدي الذى تحفظونه بينى وبينكم وبين نسبتك من بعدك .

يختس مكم كل ذكر فتحشون في خم عرلنكم فيكون علامة عهد بينى
وبسكم . ابن ثمانية أيام يختس مكم كل ذكر في أحبالكم . وليد البيت والمبتاع
بفضة من كل ابن عريب ليس من سلتك . يختن حنانا وليد بيتك والمبتاع
بفضتك . فيكون عهدي في لحمكم عهدا أبديا . وأما الذكر الأعف الذى
لا يختس في خم عرلته فتقطع نلك النفس من شعبها . إنه قد مكث عهدي .
وقال الله لإبراهيم : سارائى امرأتك لا تدعو اسمها سارائى بل اسمها سارة
وأباركها وأعطيك أيضا منها ابنا . فأباركها فتكون أما وملوك شعوب مها
يكونون . فسقط إبراهيم على وجهه وصحى وقال في قلبه هل يولد لاس مائة
وهل تمد سارة وهى بنت تسعين سنة ؟

وقال إبراهيم لله ليت إسماعيل يعيش أمامك فقال الله لى سارة امرأتك تلد
لك ابنا تدعو اسمه إسحاق وأقيم عهدي معه عهدا أبديا ليسه من بعده . وأما
إسماعيل فقد سمعت لك فيه . ها أن أباركه وأثمره وأكثره كثير جدا . أشى
عشر رئيسا يندو تحمله أمة كبيرة . وكى عهدي أقيم مع إسحاق الذى تلد
لك سارة فى هذا الوقت فى السنة الآتية . فما فرغ من الكلام معه صعد الله
عن إبراهيم .

فأخذ إبراهيم وإسماعيل اسه وجميع ولدان بيته وجميع المتاعين بفضته كل
ذكر من أهل بيت إبراهيم وحتى هم عرلته فى ذلك اليوم عينه كما كلمه الله ،
وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين حتى فى لحم عرلته ، وكان إسماعيل
اسه ابن ثلاث عشرة سنة حين حتى فى لحم عرلته . فى ذلك اليوم عيه حتى
إبراهيم وإسماعيل اسه وكل رجال بيته وولدان البيت والمتاعين بالفضة من س
عرب حضوا معه .

وهذا الإصحاح يحتاج إلى وقعة طويلة ، فقد ذكر فيه عهد الله بأن يعطي لإبراهيم ولنسله من بعده أرض عربته كل أرض كنعان ملكا أبديا ، وجعل الله الختان علامة عهد بيته وبين نسل إبراهيم حليل الرحم .

إن الذين كتبوا التوراة بأيديهم في المعنى كانوا مشردين وكانوا يتوقون للعودة إلى أرض كنعان أرض فلسطين ، وما كان لهم حق في تلك الأرض فأرادوا أن يسدوا ذلك الحق بوعد إلهي ، فكتبوا بأيديهم أن الله سيكون إلهها لإبراهيم ونسله من بعده ، أما باقي البشر — إن كان اليهود يسمحون بأن يكون غيرهم بشرا — فقد تركوا بلا إله ، فأصبح رب الناس إله الناس رب العالمين إلهها لنسل إبراهيم وحده . وإسماعيل ما نصيبه من هذا الوعد ؟ إنه من نسل إبراهيم فهو يشارك هو وبوه في هذا الوعد . ولما كان ذلك لا يرضى اليهود الذين أعادوا كتابة التوراة في بابل على هواهم فقد أخرجوا إسماعيل وسبه من ذلك الوعد ، فجعلوا حليل الرحم يقول ليت إسماعيل يعيش أماك ، فلا يعجب ذلك القول رب إسرائيل الذي لم يكن قد ولد بعد فيقول متلها : « مل سارة امرأتك لتلد لك ابنا وتدعو اسمه إسحاق ، وأقيم عهدي معه عهدا أبديا لنسله من بعده . وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه . ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا . اثني عشر رئيسا يلد وأجعله أمة كبيرة . ولكن عهدي أقيم مع إسحاق الذي تلده لك سارة في هذا الوقت في السنة الآتية » .

وهكذا وضع أول حكماء صهيون أول بذرة في مشكلة فلسطين . جعلوا الله بلا سب معقول يختار إسحاق الذي لم يكن قد ولد بعد ليقم له عهدا أبديا لنسله من بعده ويخرج إسماعيل من ذلك العهد . ولم ترو التوراة كيف تحقق وعد الله بأن بارك إسماعيل وجعله أمة كبيرة ، وقد يكون لكتاب التوراة عذر فقد تحقق ذلك بعد عهدهم . منهم أنهم

وصعوا على لسان الله كلاما يخدم قصبتهم ويجعل لهم حقا إلهيا في أرض فلسطين .

وقد ذكر أنبياء بنى إسرائيل الدين كتبوا التوراة في المنفى أن الختان هو علامة العهد بين الله وبين إبراهيم ونسله . وقد يكون ذلك الكلام صحيحا لو أن الختان لم يكن معروفا قبل ذلك العصر ولكن قدماء المصريين كانوا يختنون ، فهل كان الختان علامة عهد بينهم وبين الله ؟ وكان البابليون يختنون وقد يكون إبراهيم قد احتس قبل ذلك على عادة أهله ، ولكن كتاب التوراة في المنفى لم يحفلوا بشيء من ذلك فجمعوا حليل الرحمن يحتن في ذلك اليوم عنه وجعلوا إسماعيل يحتن وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، أما إسحاق الموعود فقد احتس ابن ثمانية أيام فهو أول من بعد فيه أمر الله امتثالا لأمره : ابن ثمانية أيام يحتن منكم كل ذكر في أجيالكم ، وهي نعمة كبرى لإسحاق أبى إسرائيل . ولما كانت التوراة قد أصبحت الكتاب الأول والعهد القديم للدين اعتنقوا الديانة المسيحية ، فإن المسيحيين الذين يقرعون التوراة يؤمنون بهذه الأفكار التي دسها الذين كتبوا التوراة في أرض السبي ، ومن أسف أن كتاب المسلمين بعد صدر الإسلام قد نهلوا من هذه التوراة بعد أن ترجمت إلى العربية ففاضت كتبهم بتلك الأفكار الرائثة . وقد وصفت أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ — لطابق ما جاء في التوراة . فحديث يقرر أن إبراهيم قد كذب على ربه ثلاث كذبات ، وآخر يروى كيف احتس إبراهيم بالقدوم ، وثالث يؤكد أن ختان دكور المسلمين يسى أن يجرى عندما يبلغ العلام ثلاث عشرة سنة أسوة بأبهم إسماعيل . وماجت كتب المؤرخين الإسلاميين بوعد الله لبنى إسرائيل بأرض المعاد ، وانتشرت الإسرائيليات بين دفتى كتب الكتاب المسلمين الذين حسبوا أنهم يهلون من كتاب مقدس .

كانت العداوة مشبوبة بين الكنعانيين أصحاب الأرض الحقيقيين وبين بني إسرائيل واليهود الذين أرادوا اغتصاب الأرض منهم ، ولم ينس الدين أعادوا كتابة التوراة في المنفى تلك العداوة أبداً ، وأرادوا أن يؤكدوا وعد الله بإعطاء أرض فلسطين إلى سبل إسحاق فجعلوا إبراهيم وهو يهود بأنفسه يقول لعبده كبير بيته المستولى على كل ما كان له : « صعد يدك تحت فخذى . فأستحلفك بالرب إله السماء والأرض أن لا تأخذ زوجة لآبى من بنات الكنعانيين الذين أما ساكنيهم . بل إلى أرضى وإلى عشيرتى تدفع وتأخذ زوجة لسى إسحاق فقال له العبد : ربما لاتشاء المرأة أن تنصحب إلى هذه الأرض . هل أرجع بابك إلى الأرض التى خرجت منها (أور بالعراق) ؟ فقال له إبراهيم : احترز من أن ترجع أبسى إلى هناك الرب إله السماء الذى أحبنى من بيت أبى ومن أرض ميلادى والذى كلمنى والذى أقسم لى قائلا : لسلكت أعطى هذه الأرض . هو يرسل ملاكته أمامك فتأخذ زوجة لآبى من هناك . وإن لم تشأ المرأة أن تنصحب تراثت من حملى هذا ، أما أبسى فلا ترجع به إلى هناك . فوضع العبد يده تحت فخذ إبراهيم مولاه وحلف له على هذا الأمر .

ويثور في الفكر سؤال : إذا كان وعد الله بإعطاء أرض فلسطين لإسحاق ولسله معروفا فكيف خطر على قلب كبير بيت إبراهيم أن يعود لإسحاق إلى أور ؟ إلى الأرض التى خرج منها إبراهيم ؟ لقد كان وعدا وكان حثا وكانت انتباهات تختان إبراهيم وإسماعيل والتعبيد ثم إسحاق بعد كل ذلك فكيف عابت كل تلك الانتباهات عن كبير بيت إبراهيم ؟ لعل بني كسوا التوراة في المنفى حشوا أن يكون قارئ قد نسي الوعد فأرادوا أن يؤكدوه كما يفعل معظم القصاصين الذين يتناهم القلق على قرائتهم فيعيدوا سرد بعض الأحداث لتذكروا والتأكد .

وتزوج إسحاق رفقة : « فلما كملت أيامها لتلد إذا في بطنها توأمين ، فخرج الأول كله كفروة شعر فدعوا اسمه عيسو (العيص) ، وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو فدعى اسمه يعقوب . وكان إسحاق ابن ستين سنة لما ولدتهما » .

كان الدين كشوا التوراة في المعنى في دل الأسر يبطرون نظرة إكبار إلى كل عمل يقومون به غير مشروع ، حتى السرقة كانوا يربوها في أعينهم ، وقد انعكس ذلك السلوك على ما يكتبون فلم يروا في سرقة البركة — إن كانت البركات تسرق — أي عيب ، بل وجدوا في الخداع مادة يحشرون بها ويدونونها فرحين دون خجل وما دامت تلك السرقة تعود بالبركة على يعقوب (إسرائيل) . والآل يروى ما كتبه كتاب التوراة في المعنى دون تدخل منا ولندع لمقارن قياسي ذلك الفعل على مقاييس الأخلاق في أي عصر من العصور . « فكر الإعلام » . وكان عيسو إسحاق يعرف الصيد ، إسحاق البرية ، ويعقوب إسحاق كاملا يسكن الخيام . فأحب إسحاق عيسو لأن في همه صيدا ، وأما رفقة فكانت تحب يعقوب ...

وحدث لما شاح إسحاق وكلت عيابه عن النظر أنه دعا عيسو ابنه الأكبر وقال له يا بني ، فقال له هانذا . فقد إني قد شحت ولست أعرف يوم وفاتي . فالآن حد عدتك حبيبتك وفوسك واحرح إلى البرية وتصيد لي صيدا . واصنع لي أطعمة كما أحب أوأثني بها لآكل حتى تشارك نفسي قبل أن أموت .

وكانت رفقة سامعة إذ تكلم إسحاق مع عيسو ابنه ، فذهب عيسو إلى البرية كي يصطاد صيدا ليأتي به . وأما رفقة فكلمت يعقوب ابنها قائلة إني قد سمعت أباك يكلم عيسو أحاك قائلا إني بصيد واصنع لي أطعمة لآكل

أمام الرب قبل وفاتي ، فالآن يا بني اسمع لقولي في ما أنا آمرك به . اذهب إلى الغنم وحدني من هناك حديقين جديدين من المعري ، فاصعهما أضعة لأبيك كما يحب فتحصرها إلى أبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته . فقال يعقوب لرفقة أمه : هو دا عيسو أحى رجل أشعر وأنا رجل أملس . ربما يحسني أني فأكون في عيبه كمنهاون وأحب على نفسي لعة لا بركة . فقالت له أمه لعتلك على يا بني . اسمع لقولي فقط وادعني . فذهب وأخذ وأحصر لأمه . فصعدت أمه أطعمة كما كان أبوه يحب . وأحدث رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر العاحرة التي كانت عندها في البيت وألبست يعقوب ابنها الصغير وألست يديه وملأته عقه حبود المعرة . وأعطت الأطعمة والحز التي صعدت في يد يعقوب ابنها .

فدخل إلى أبيه وقال يا أبي . فقال له : هأنذا من أنت يا بني ؟ فقال يعقوب لأبيه : أنا عيسو برك قد فعلت كما كلمتني . قم اجلس وكل من صيدى لكي تباركني نفسك ، فقال إسحاق لابنه ما هذا الذي أمرعت لتجد يا بني . فقال إن الرب إلهك قد يسر لي . فقال إسحاق ليعقوب تقدم لأحسنك يا بني . أنت هو ابني عيسو أم لا ؟ فتقدم يعقوب إلى إسحاق أبيه فحسه وقال : الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو . ولم يعرفه لأن يديه كانتا مشعرتين كيدي عيسو أخيه . فباركه وقال : هل أنت هو ابني عيسو ؟ فقال : أنا هو . فقال : قدم لي آكل من صيد ابني حتى تباركك نفسي . فقدم له فأكل وأحضر له حمرا فشرب ، فقال له إسحاق أبوه : تقدم وقلني يا بني . فتقدم وقله ، ششم رائحة ثيابك وباركه وقال : انظر ، رائحة ابني كرائحة حقيل قد باركه الرب . فليصعدك الله من بذي السماء ومن دسه الأرض وكثرة حصاة وحرر . يستعدك شعوب وتسجد لك قدس كن

مبدأ لإخوتك وليسجد لك بنو أمك . لكن لا عونك ملعونين ، ومباركوك مباركين .

وحدث عندما فرغ إسحاق من بركة يعقوب ، ويعقوب قد خرج من لدن إسحاق أبيه أن عيسو أحاه أقي من صيده . فصنع هو أيضا أطعمة ودخل بها إلى أبيه وقال لأبيه : ليقيم أقي وبأكل من صيد ابنه حتى تباركك . فقال له إسحاق أبوه : من أنت ؟ فقال : أنا ابنك بكر عيسو . فارتعد إسحاق ارتعادا عظيما جدا وقال : فمن هو الذي اصطاد صيدا وأقي به إلي فأكلت من الكل قبل أن تجيء ، وباركته ، نعم ويكون مباركا . فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة ومرة جدا وقال لأبيه : باركني أنا أيضا يا أقي . فقال قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك . فقال : ألا إن اسمه دعى يعقوب فقد تعقبنى الآن مرتين . أحد بكوريتي وها هو ذا قد أخذ بركتي . ثم قال : أما أبقيت لي بركة ؟ فأجاب إسحاق وقال لعيسو : إني قد جعلته سيذا لك ودعيت إليه جميع إخوته عبيدا وعضدته بحمطة وخمر . فماذا أصنع إليك يابى ؟ فقال عيسو لأبيه : ألت بركة واحدة فقط يا أقي . ؟ باركني أيضا يا أقي . ورفع عيسو صوته وبكى . فأجاب إسحاق أبوه وقال له : هو ذا بلا دسم الأرض يكون مسكلك وبلا يدى السماء من فوق وبسيفك تعيش ولأحيك تستعيد ، ولكن يكون حينا تجمع ألت تكسر نيره عن عقتك . وهكدا ضاقت رحمة الله عن أن تنسع ليعقوب (إسرائيل) وأحبه عيسو ، وهكدا سرقت البركة . فإن كان إسحاق كلت عيابه فأين كان الله ؟ إنهم جعلوه يطق بوعد منح أرض كنعان لسل إسحاق ثم سرقوا البركة من عيسو في عقلة من الله سبحانه وتعالى عما يصمون . إهم جعلوا إسرائيل سارق بركة ومحادعا وكذاها دون جعل ، مما كانوا في أرض المنفى يحلون

من السرقة والكذب والخداع ، ولسطر الآن كيف يتحدث القرآن عن إسحاق الذى لم يذكر الآخرة مرة واحدة فى التوراة ، والذى كان حبه لاهه عيسو لأنه يجلب له ما لذ وطاب من الطعام ، فلم يكن حبه لمكارم أخلاقه وتقواه بل لأن فى فمه صيدا . مادية طاعية صبيع بها اليهود بدورهم المعجيين منهم من الناس .

﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من السيى من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ومن هدينا واجتبا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا ﴾ فحلف من بعدهم حلف أضاعوا الصلاة وتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ^(١) .

﴿ ووصى بها إبراهيم بيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تصدون من بعدى قالوا بعد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهنا واحدا ونحن له مسلمون ^(٢) .

﴿ أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل ويعقوب والأشباذ كانوا هودا أو نصارى قل أنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كنتم شهادة عنه من الله وما الله بغافل عما تعملون ﴾ ^(٣) .

ولم يكن العش والخداع فى سرقة البركة محسب . بل كان ممة أفعال كل الناس كما تصورهم الذين كتبوا التوراة فى المنفى . يعقوب قد ذهب إلى حاران ليتزوج فى بيت حائه لابان بن ساحور ، فمادا كان من الحال ؟ :

(١) مريم ٥٨ — ٥٩ .

(٢) البقرة ١٣٢ — ١٣٣ .

(٣) البقرة ١٤٠ .

فكان حين سمع لا بان خبر يعقوب ابن أخته أنه ركض للقاءه وعانقه وقبله وأتى به إلى بيته . فحدث لا بان بجميع هذه الأمور : (حلم يعقوب . رؤية سلم مصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء . ملائكة الله صاعدة نازلة عليها والرب واقف عليها يقول : أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله إسحاق . الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيتها لك ولنسلك . من هنا اسمي لإسرائيل) .

فقال له لا بان : إنما أنت عظمي ولحمي . فأقام عنده شهرين من الزمان . ثم قال لا بان ليعقوب : لألك أحي تخدمى بجانا ! أخبرنى ما أجرتك ؟ وكان للابان ابنتان اسم الكرى ثيثة واسم الصغرى راحيل . وكانت عينا لثيثة ضعيفتين . وأما راحيل فكانت حسنة الصورة وحسنة المظهر . وأحب يعقوب راحيل فقال : أخدمك سبع سنين يرأحيل ابنتك الصغرى . فقال لا بان : أن أعطيك إياها أحسن من أن أعطيتها لرجل آخر . أقم عدى . فخدم يعقوب يرأحيل سبع سنين وكانت في عيها كأيام قليلة بسبب محبتها لها .

ثم قال يعقوب للابان . أعطى امرأتى لأن أيامى قد كملت فأدخل عليها . فجمع لا بان جميع أهل المكان وصنع وليمة ، وكان له في المساء أنه أحدث لثيثة وأتى بها إليه فدخل عليها . وأعطى لا بان بلفة حاريتها لثيثة ابنته جارية . وفي الصباح إذا هي لثيثة . فقال للابان : ما هذا الذى صنعتى ؟ أليس يرأحيل خدمت عندك . فلماذا حذعتنى ؟ فقال لا بان : لا يفعل هكذا في مكاننا أن يعطى الصغيرة قبل البكر . أكمل أسبوع هذه فتعطيك تلك بالخدمة التى تخدمنى أيضا سبع سنين آخر .

ف فعل يعقوب هكذا فأكمل أسبوع هذه . فأعصاه راحيل ابنته راحة له ، وأعطى لا بان راحيل ابنته بلفة حاريتها فدخل على راحيل أيضا

وأحب أيضا راحيل أكثر من لئة ، وعاد فخدم عبده سبع سنين أخر .
وهكذا جمع نبي الله يعقوب بين الأختين في توراة المسمى ، وخدعه حاله
كما خدع هو أباه . فالخيانة في توراة المسمى كلها غش وكذب وخداع وأبياء
لا يطلون من الله إلا أن يطعمهم ويكسوهم . ولسمع إلى بدر يعقوب وهو
في طريقه من بئر سبع إلى حاران : « وبدر يعقوب بذرا قائلا : إن كان الله
معي وحفظني في هذا الطريق الذي أنا سائر فيه وأعطاني حيزا لآكل وثيابا
لأكس ورجعت بسلام إلى بيت أبي ، يكون الرب لي إلهًا ! » أيعقوب لا يزال
في شك من أن الله معه حتى بعد وعد الله بأن يباركه وأن يجعل أرض فلسطين
لذريته ؟ ! فمِم كان الحتان إذن ؟ وهل هذا الدر يليق بسبي موعود بركة الله ؟
إنه لم يعترف بربه إلا إذا أطعمه وكساه وحفظه وأعاده سالمًا إلى بيت أبيه .
اعتراف مقابل نفع ، إن انعدم النفع فلا اعتراف ، وحاشا لله أن يكون ذلك
بدر يعقوب . إنه بدر الذين يقاسون الدل في الأسر ، بدر الذين كانوا
يلتمسون العودة إلى فلسطين من العراق ، فإذا كانت العودة كان الاعتراف
بالله وإلا فلا اعتراف ، ولم يكون الرب هم إلهًا !

ولم يكتف الذين كتبوا التوراة في المعنى بأن جعلوا أنبياء الله يكذبون
ويخدعون ويسرقون البركة ، بل بسوا السلب إلى الله — سبحانه وتعالى عما
يصفون علوا كبيرا : « وحدث لنا ولدت راحيل يوسف أن يعقوب قال
للابان : اصرفني لأذهب إلى مكاني وإلى أرضي . أعصني بساني وأولادي
الذين خدمتك هم فأذهب لأنك أنت تعلم خدمتي اني خدمتك . فقال
لابان : ليتني أخذ نعمة في عبيك . قد تفاعلت هاركني الرب بسبك وقال .
عين لي أجرتك فأعطيك .

فقال له : أنت تعلم ماد خدمتك ومادا صارت مواشيك معي ، لأن م

كان لك قبلى قليل فقد اتسع إلى كثير وباركك الرب فى أثرى ، والآن متى
أعمل أنا أيضا لىبنى ؟ فقال : ماذا أعطيك ؟ فقال يعقوب : لا تعطى
شيئا . إذ صنعت لى هذا الأمر أعود أرعى غنمك وأحفظها . أحتاز بين
غنمك كلها اليوم وأعرل أنت منها كل شاة رقطاع وبقاء وكل شاة سوداء
بين الخرفان وبقاء ورقطاء بين المعرى . فىكون مثل ذلك أجرنى ويشهد فى
يرى يوم غد إذا حثتلك من أجل أجرنى قدامك . كل مالهس أرقط أو أبلق بين
المعزى وأسود بين الخرفان فهو مسروق عدى . فقال لابان : هو ذا ليكن
بحسب كلامك . فعزل فى ذلك الثيوس المخططة والبقاء وكل العناز الرقطاع
والبقاء كل ما فيه بياض وكل أسود بين الخرفان ودفعا إلى أيدي بيه وجعل
مسيرة ثلاثة أيام بينه وبين يعقوب ، وكان يعقوب يرعى غنم لابان اللاحقة .
فأخذ يعقوب لعمسه قضانا من لبنى ولوز ودلب وقشر فيها خطوطا بيضا
كاشطا عن البياض الذى على القضبان ، وأوقف القصان التى قشرها فى
الأجران فى مساق الماء حيث كانت الغنم تحب لتشرب تجاه الغنم لتتوحم عند
محيطها لتشرب ، فتوحمت الغنم عند القصان وولدت الغنم مخططات ورقطا
وبلقا . وأفرر يعقوب الخرفان وجعل وجوه الغنم إلى المخطط وكل أسود بين
غنم لابان . وجعل له قطعانا وحده ولم يجعلها مع غنم لابان . وحدث كلما
توحمت الغنم القوية أن يعقوب وضع القصان أمام عيون الغنم فى الأجران
لتتوحم بين القضبان . وحين استصعمت الغنم لم يضعها فصارت الضعيفة
للابان والقوية ليعقوب ، فاتسع الرجل كثيرا جدا وكان له غنم كثير وجوار
وعبيد وجمال وحمير .

فسمع كلام بنى لابان قائلين : أحد يعقوب كل ما كان لأبنا . وبما لأبنا
صنع كل هذا الخد . ونظر يعقوب وجه لابان وإذا هو ليس معه كأمس وأول

من أمس . وقال الرب ليعقوب : ارجع إلى أرض آبائك وإلى عشيرتك فأكون معك .

فأرسل يعقوب ودعا راحيل ولية إلى الحقل إلى غنمه وقال لهما : أنا أرى وجه أبيكما أنه ليس نحوي كأمس وأول من أمس ، ولكن إله أبي كان معي وأنا تعلمان أنني بكل قوتي خدمت أباكما ، وأما أبوكما فعدر بي وغير أجرني عشر مرات ، ولكن الله لم يسمح له أن يصع في شرا . إن قال هكذا : الرقط تكون أجرتك ولدت كل الغنم رقطا ، وإن قال هكذا : المخططة تكون أجرتك ولدت كل الغنم مخططة ، فقد سلب الله مواشي أبيكما وأعطاني . وحدث في وقت توحم الغنم أنني رفعت عيى ونطرت في حلم وإذا الفحول الصاعدة على الغنم مخططة ورقطاء ومنمرة . وقال لي ملاك الله في الحلم : يا يعقوب . قلت هأنذا . فقال : ارفع عييك وانظر . جميع الفحول الصاعدة على الغنم مخططة ورقطاء ومنمرة ، لأنني قد رأيت كل ما يصع بك لابان . أما به بيت إيل حيث مسح عمودا . حيث بدرت لي بدوا . الآن قم اخرج من هذه الأرض وارجع إلى أرض ميلادك .

لقد صور يعقوب في هذه الإصحاحات رجل دينا كل همه الإكثار مما يمتد من شاء وما عر ، وهو رجل خداع يأخذ لنفسه الغنم القوية ويترك للابان الغنم الضعيفة ثم يسب السلب إلى الله وحاشا لله أن يكون يعقوب قد فعل ذلك أو أن يكون قد مكث عند حالة لابان عشرين سنة وعالاه يعبد الأصنام دون أن يدعو حالة مرة واحدة إلى عبادة الله وحده ، ودون أن يقول له ولقومه كما قال حده حليل الرحم لأبيه وقومه : « إنني براء مما تعبدون . إلا الذي فطرني فإنه سيهدين » (١) .. أتتحد أصاما آهة إلى أرك وقومك في

ضلال مبين» (٢) .

سعى الدين كتبوا التوراة في المنفى أن الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ، وأن صفات جميع الأنبياء وانرسل صلوات الله عليهم حسن الخلق ، وأن الله قد عصمهم من إتيان الشرور والآثام ، وما كان هم أحدهم الدنيا . إهم كانوا يجودون بكل شيء في سبيل الله فما عمل أحدهم على أن يعيش ليكثر غنمه ويكون بذلك محده ، بل كانوا يعفون كل ما يرقهم الله على الفقراء واحتاحين مهم أوثق بما في يدي الله مما في أيديهم ، ويسا لا نجد مثل هذه الصور الكريمة في التوراة لذلك سوق بعض ما رواه نبي الإسلام وكتاب المسلمين عن أنبياء بني إسرائيل بما يتسق مع السورة والاصطفاء .

« قيل ليوسف : ما لك تجوع وأنت على حرائر الأرض ؟ قال : أخاف أن أشبع فأنسى الجائع » .

وقال عليه السلام : « إنما الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم سي اس سي اس نبي اس نبي » .

من عذرات تورة المعنى مضمة لا تتألف فيها أبوار وحى الله ، إن هي إلا أقاصيص نعر عن الحالة النفسية التي كان يعيش فيها اليهود في امسى ، أقاصيص نسحت حول حقائق حال عبيها الأمد فامترجت بأساطير الشعوب وأساليب الكذب والعش والخذاع التي كانت طابع هؤلاء الأسرى . كانوا مستضعفين في الأرض قد لوئهم الأسر بالعار فططخوا كل الرسل والأنبياء بالعار لكيلا يكون هالك ما يحلهم ما دام أبياء الله قد مارسوا الكذب والخذاع وأكل الدنيا في بقوسهم ، بل وقد مارسوا الرما كما سرى بعد حين في التوراة .

ولندع شكهم يعتدى على دبة امة يعقوب ، ولدع حدة انتى قم بها ابا يعقوب يقصوا على شكيم وأبيه وكل رجال المدينة ، وكيف نها المدينة فالتوراة مليئة بالخدع والسلب والنهب ، ولقرأ الإصحاح الخامس والثلاثين من سفر التكوين لرى كيف أن يعقوب وأبائه الموعودين بالركة وأرص فلسطين ، كانت الأصنام فى حوزتهم ، وأنهم كانوا يشركون مع الله الذى وعدهم واصطفاهم آلهة أخرى : « ثم قال الله ليعقوب : قم اصعد بيت إيل وتقم هناك واصنع هناك مذبحا لله الذى ظهر لك حين هربت من وجه عيسو أخيك ، فقال يعقوب لبيه ولكل من كان معه . اعزلوا الآلهة العرية التى بينكم وتطهروا وأندوا نياكم ، وتقم وتصعد إلى بيت إيل فأصنع هناك مذبحا لله الذى استجاب لى فى يوم ضيقى وكان معى فى الطريق الذى ذهبت فيه ، فأعطوا يعقوب كل الآلهة العرية التى فى أيديهم والأقراط التى فى آذانهم فطمرها يعقوب تحت الصخرة التى عند شكيم »

يا أسياء بنى إسرائيل الذين كتبتم التوراة فى اسمى أين عقولكم ؟ أيعقل أن يحتفظ يعقوب الموعود بالركة والذى تحلى له لرب مرات بالأصنام فى بيته ؟ فقيم كان إذن حب الله إياه ؟ ولماذا اصطفاه ربه قبل أن يولد وحده بالركة دون أباء إسماعيل ؟ لأنه استمر يشرك به حتى بعد أن حياه ملاك الرب فى الحلم ليحذره أن جميع لمحاول الصاعدة على العمى محضنة ورقطاء ومصرة ١٩ أو لأنه استمر يشرك بالله حتى بعد أن صار ع الله (الإصحاح ٣٢) وقال له : « لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل ، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت » .

• كان لى يعقوب رؤيا وشعوب ولاوى وبساکر ورسون من بنة . ود . ويعتدى من بنية حارية ليه ، وحاد وشير من رفة حارية ر حين .

ويوسف وسيامين من راحيل . وجاء موسى عليه السلام من سبل لاوى ، وجاء اليهود من سبل يهوذا ، وبذلك لا يكون موسى صلوات الله وسلامه عليه يهوديا ، ولا يوسف ، فهما من سبي إسرائيل وأحوا يهوذا الذى ينسب إليه اليهود . وإن دارس التوراة يلاحظ تعصب أبياء اليهود لفرع يهوذا . فبني مثل أشعيا لا يذكر موسى أبدا في إصحاحاته ، فموسى عليه السلام من اللاويين ، أما أشعيا فمن نسل يهوذا .

وسترى الآن كيف صورت انثورة حياة يهوذا أبى اليهود جميعا : « وأحد يهوذا زوجة لعمير بكره اسمها ثامار ، وكان عمير بكر يهوذا شريفا في عيني الرب ، فأماته الرب ..

ولما طال الزمان ماتت ابنة سوع امرأة يهوذا ، ثم تعزى يهوذا فصعد إلى حرَّار غممه إلى تمة هو وحيرة صاحبه العدلامى فأحبرت ثامار وقيل لها : هو داحموك صاعد إلى تمة ليحرم عمه . فحملت عنها ثياب ترملها وتعطت برقع وتنفست وحلست في مدخل عيائيم التى على طريق تمة ، ففطرها يهوذا وحسبها زانية لأنها كانت قد عطت وجهها . فقال إليها على نظريق وقال . هاتى أدخل عبيك . لأنه لم يعلم أنها كُتته . فقالت : ماذا تعطينى لكي تدخل عني . فقال : إنى أرسل جدى معزى من العم . فقالت : هل تعطينى رها حتى ترسله ؟ فقال : ما الرهن الذى أعطيت ؟ فقالت . حاتمك وعصابتك . عصاك التى في يديك . فأعطاهما ودخل عليها فحبلت منه . ثم قامت ومصت وحبعت عنها برقعها وليست ثياب ترملها .

فأرسل يهوذا جدى المعرة بيد صاحبه العدلامى ليأخذ الرهن من يد المرأة فلم يجدها ، فسأل أهل مكانها قائلا . أين الزانية التى كانت في عيائيم عبي صريق ؟ فقدموا : لم تكن ههنا ربية . مرجع إلى يهود وقال : لم أجدها وأهل

المكان أيضا قالوا لم تكن ههنا زانية ، فقال يهوذا : لتأخذ لنفسها ثلثا نصير إهانة . إني قد أرسلت هدا الحدى وأنت لم تجدها .

ولما كان نحو ثلاثة أشهر أحبر يهوذا وقيل له : قدرنت ثامار كنتك وها هي حبل أيضا من الزنا ، فقال يهوذا أخرجوها فحرق . أما هي فلما أخرجت أرسلت إلى جميعها قائلة : من الرجل الذى هذه له أما حلى ؟ وقالت : حقق لمن الخاتم والعصابة والعصا هذه ؟ فتحققها يهوذا وقال : هي أبرأ منى .. .

ماذا كان جراء يهوذا الرانى الذى أحببت له روح ابنه توأمين ؟ إن يعقوب (إسرائيل) يقول له وهو يحد بأبنايه : يهوذا إياك يحمدا إحوتك . يدك على قفا أعدائك . يسجد لك بنو أيك .

أهدا وحى من الله ؟ أليكون جراء الرانى بركة وحدا ؟ فلمن الحجر إذن ؟ إنها أهواء الذين كتبوا التوراة فى المنعى وإسهم جميعا من نسل يهوذا ، من اليهود فلا غرو إن تحيروا لليهوذا وعصروا له جريمة الرنا ، وقد التمسوا له عدرا بأن قالوا إنه لما زنى المرأة لم يكن يعرف أنها زوج ابنه . وأرادوا أن يبرزوا شهادته فجعلوه يبعث صديقه ليذفع ثمن فعلته كأنما فعل فعلة لا يدى لها حيين الشرفاء من الناس فما بالك بسبط من الأسباط الذين يقول القرآن فيهم : إنا أوحيا إليك كما أوحيا إلى نوح واليسى من بعده وأوحيا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويوس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً^(١) .

وإن تصور الذين كتبوا التوراة فى المنعى لله حل شأنه قاصر عجيب ، إنه فى رعمهم لا يستطيع أن يميز بين بيوت المؤمنين وبيوت الكافرين إلا بعلامة

توضع على بيوت المؤمنين : « .. فإني أختار في أرض مصر هذه الليلة وأضرب كل بكر في أرض مصر من الناس بالبهايم . وأصنع أحكاما لكل آلهة المصريين : أما الرب ويكون لكم ادم علامة على البيوت التي أنتم فيها . فأرى الدم فأعبر عنكم ، فلا يكون عنكم ضربة للهلاك حين أصرب أرض مصر . ويكون لكم هذا اليوم تذكارا فتعبدونه عيدا للرب في أحياءكم تُعبدونه فريضة أبدا » .

وهكذا كرم الرب موسى وهارون في أرض مصر في سفر الخروح في توراة المفى ، وهكذا جعلوا الله لا يميز بين دور بني إسرائيل ودور المصريين إلا بعلامة من دماء الشاء التي أمرهم بذبحها وأكثها بعجلة فصحا للرب ! إنه إله يختار أرض مصر في تلك الليلة كأنه مسافر عابر . ولا حرم فقد تصوروا أن الله خلق آدم على صورته ، وما دام آدم يمشى في الأرض فلا غرابة أن يمشى الله في أرض مصر تلك الليلة ويختارها وهو يبحث عن علامات الدم على دور بني إسرائيل ، حتى لا يحطىء ويصيب عباده بقمته .

والآن يبقى السمع إلى بعض آيات الله لرى موسى وهارون في القرآن العظيم وكيف يعرفان الله تعالى وأنه يسمع ويرى بلا علامات على دور بني إسرائيل ، وأنه الذى أعصى كل شيء خلقه ثم هدى ، وأنه مالك يوم الدين ، وإن كانت توراة المفى لم تعرف إلا الأرض التي لا رحمة فيها ولم تتحدث عن البعث أبدا : ﴿ وهل أتاك حديث موسى * إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلى أتاكم منها بقس أو أحد على النار هدى . فلما أتاها نودى يا موسى * إني أنا ربك فاحلح بعينك إنك بالود انقدس طوى * وأنا احترت فاستمع لما يوحى * إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى * إن اسعاه آتية أكاد أحققها لحرى كل نفس بما تسعى * فلا يصدنك عنها من

لا يؤمن بها وتبع هواه فتردى * وما تلك يمينك يا موسى * قال هي عصاى
أتوكأ عليها وأهش بها على غمى ولى فيها مآرب أخرى * قال ألقها يا موسى
* فألقاها فإذا هي حية تسعى * قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى
* واصمم يدك إلى جاحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى * لربك من
آياتنا الكبرى * اذهب إلى فرعون إنه طغى * قال رب اشرح لى صدرى ويسر
لى أمري * واحلل عقدة من لسانى ، بفقهوا قولى * واجعل لى وزيرا من أهلى
* هارون أحمى * اشدد به أزرى * وأشركه فى أمري * كى نسبحك كثيرا *
وذكرك كثيرا * إنك كنت بما بصيرا * قال قد أوتيت سؤلک يا موسى *
ولقد مننا عليك مرة أخرى ﴿١﴾ .

﴿ ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاصرب لهم طريقا فى البحر يسا
لا تخاف دركا ولا تخشى ﴾ (٢) .

إن الله سبحانه وتعالى يقص علينا فى محكم آياته قصة موسى تشع نورا ،
قصة إله قادر ورسول كريم . أما الذين كتبوا التوراة فى أرض السى فما
قدروا الله حق قدره ، جعلوه — سبحانه وتعالى عما يصفون عبوا كبيرا —
ولا يميز بين بيوت بنى إسرائيل وبيوت المصريين إلا بعلامة من دم الأصحية ،
وجعلوه بأمر بنى إسرائيل بأن يأكلوا العطير سعة أيام احتفالا بتحليصهم من
دل فرعون : « سعة أيام تأكلون فطيرا . اليوم الأول تعزلون الخمير من
بيوتكم ، فإن كل من أكل خميرا من اليوم الأول إلى اليوم السابع تقطع تلك
الفس من إسرائيل ، ويكون لكم فى اليوم الأول محل مقدس ، وفى اليوم

(١) طه ١١ — ٣٧ .

(٢) طه ٧٧ .

السابع محفل مقدس ، لا يعمل فيها عمل إلا ما تأمكه كل نفس فذلك وحده يعمل منكم . وتحفظون الفطير لأنى في هذا اليوم عينه أخرجت أجدادكم من أرض مصر . فتحفظون هذا اليوم في أحيالكم فريضة أبدية . في الشهر الأول في اليوم الرابع عشر من الشهر مساء تأكلون فطيرا إلى اليوم الحادى والعشرين من الشهر مساء . سعة أيام لا يوحد خمير في بيوتكم ، فإن كل من أكل مُحنمرا تقطع كل النفس من جماعة إسرائيل العريب مع مولود الأرض . لا تأكلوا شيئا مُحنمرا . في جميع مساكنكم تأكلون فطيرا » .

إنه إله يهتم بالخمير وبالفطير أكثر من اهتمامه بترية النفوس المؤمنة . إنه لم يذكر كلمة واحدة عن دار السلام ولم يمل دار الغرور بكلمة تحذش التعلق بها . فالعلاقة بين الرب وعباده صارت على أيدى كتاب التوراة في المفى علاقة مفعلة مباشرة يعود نفعها كله على العباد . فعلى الرب أن يحمى عبده وأن يطعمه وأن يكسوه فإن فعل ذلك أقر العبد بربوبيته وإلا فلا عادة ولا حمد . وقد صوروا بنى إسرائيل في صورة تثير الدهشة ، بعد المعجزات التى قام بها موسى وبعد أن أنقذ الله بنى إسرائيل من دل العودية في مصر وبعد أن « كان الرب يسير أمامهم نهارا في عمود من سحاب ليهديهم في الطريق وليلا في عمود نار ليضيء لهم لكي يحوشوا نهارا وليلا لم يصدقوا موسى ولم يؤمنوا بإله موسى . وقد آمنوا به وصدقوا رسوله لما رأوا أعداءهم أمواتا على الشاطئ : « فحنس الرب في ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين ، وبظر إسرائيل المصريين أمواتا على شاطئ البحر ، ورأى إسرائيل الفعل العظيم الذى صعه الرب بالمصريين ، فحاف الشعب الرب وآمنوا بالرب وبعده موسى » .

إنهم يصلون لله بعد ذلك النصر ولكن صلاتهم لم تكن حاصلة لله وحده فقد كانت قلوبهم مشوبة بالشرك ، فهم يقولون في بتالاتهم : « من مثلك بين

الآلهة يارب ؟ من مثلك معتزاً في القداسة .. ، كأنما هناك آلهة معه وليس
بيهم مثل إلههم . أكان موسى كليم الله يسمح بمثل ذلك الشرك دون أن
يثور ؟ أو كان موسى يسمح لأخته مريم البنية أخت هارون بأن تأخذ الدف
بيدها وأن تحرق وراءها جميع النساء بالدفوف فيأخذون في الرقص ؟ إنها
أفكار وتصورات الدين وضعوا التوراة في أرض العراق أيام أن كان الشراب
والرقص والشرك منتشرًا في بلاط البابليين .

وقال كسبة التوراة إن موسى عليه السلام أطلق على إلهه اسم يهوه بعد أن
بنى مذبحاً للرب شكراً على انتصار إسرائيل على عماليق ، ولم يعطوا مبرراً لهذه
اتسمية ، ويلاحظ أنهم قد بدأوا إطلاق اسم إسرائيل على بني إسرائيل ، ومن
العريب أنهم جعلوا « يثرون » كاهن مديان حماً موسى يقول هو الآخر لما سمع
ما فعل إله موسى لى إسرائيل : « الآن علمت أن الرب أعظم الآلهة » . فهو
على حد قول كتاب التوراة يعتقد أن هناك آلهة مع الرب وأن الرب أعظمهم .
وهذا يقول لا يختلف في كثير ولا قليل عما كان يقال في بابل من أن مردوخ
هو رب الأرباب . إنها عبارات لم تكن من وحى الله ونكبتها من وحى ليثة
التي عاش فيها كتاب التوراة .

وعندما يتحلى الله لموسى فوق جبل سيناء يقول : « أنا الرب إلهك الذي
أحرقك من أرض مصر من بيت العبودية . لا يكن لك آلهة أخرى أمامي .
لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الأرض
من تحت وما في الماء من تحت الأرض ، لا تسجد لهم ولا تعبدهم لأنى أنا الرب
إلهك إله عبور أعتقد ديوب الآباء والآباء في الجيل الثالث والرابع من مفضي
وأصعب إحساناً إلى أئوف من محي وحفظي وصايدى لا تنطق باسم الرب
إلهك باطلاً ، لأن الرب لا يبرئ من يطق باسمه باطلاً ذكر يوم السبت

لتقدسه . ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك ، وأما اليوم السابع فعليه ست للرب إلهك . لا تصنع عملا ما أنت وابنك وابنتك وعيدك وأمتك وسيمتك وبزيتك الذى داخل أبوابك . لأن في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها واستراح في اليوم السابع . لذلك بارك الرب يوم السبت وقدمه . أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التى يعطيك الرب إلهك . لا تقتل . لا تزن . لا تسرق . لا تشهد على قريبك شهادة زور ، لا تشته بيت قريبك . لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أخته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئا مما لقريبك . . .

إله عيور ، يعتقد ذنوب الآباء في الأبناء . أهذا عدل إلهي أم تصور من تصورات الدين كتشوة التوراة في الملفي ؟ وإن منهم لفرقيا يلوون أنفسهم بالكتاب لتحسوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ^(١) .

« ولقد آتينا موسى الكتاب فاحتف فيه ولولا كلمة سقت من ربك لقضى بينهم وإهم لعمى شك مه مريب » ^(٢) .

ليس من العدل في شيء أن يعتقد إله ذنوب الآباء في الأبناء : « ولكل درجات مما عملوا ونوفهم أعمالهم وهم لا يظلمون » ^(٣) . « قل أمر ربي بالقسط ... » ^(٤) .

« لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ^(٥) . « ولا برر واررة وورر أخرى » ^(٦) . « من عمل صالحا

(١) آل عمران ٧٨ (٢) هود ١١٠

(٣) الأحقاف ١٩ (٤) الأعراف ٩

(٥) البقرة ٢٨٦ (٦) الأنعام ١٦٤

فلفسه ومن أساء فعلها وما ربك بظلام للعبيد» (١) .

ولم يذكر رب موسى في هذه الوصايا جزاء الصالحين والظالمين في الدار الآخرة ، فقد سى الذين كتبوا التوراة في المعنى العث والحساب إنهم اعتقدوا معتقدات البابليين وقد كانوا يتقربون إلى آلهتهم ليطيلوا أعمارهم على الأرض ولإسعادهم في دار العرور . وإن نفس الشيء يقوله رب الذين كتبوا التوراة : « أكرم أبك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك » . فالجزاء يسعى أن يكون في الدنيا . وقد أثر ذلك في الماديين الذين يريدون المثوبة في الأرض وينكرون كل حياة بعد الموت : « إن الله يدخل الذين آمنوا وعمموا الصالحات جات تجرى من تحتها الأنهار والذين كفروا يمتنعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوىهم » (٢) : « وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عدا ربكم إلا من آمن وعمل صالحا فاولئك هم حراء الضعف عما عملوا وهم في العرفات آمنون » (٣) .

ولستمر في قراءة الإصحاح العشرين من سفر الخروج . « وكان جميع الشعب يرون الرعود والبروق وصوت النوق والحبل يذبح (من أجل أن الله نزل على جبل سيناء) ، ولما رأى الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد وقالوا لموسى : تكلم أنت معنا فنسمع ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت . فقال موسى للشعب لا تخافوا ، لأن الله إنما جاء ليتمحكم ولكي تكون محافته أماما وحوهكم حتى لا تحطثوا . هو قف الشعب من بعيد وأما موسى فاقترب من الضباب حيث كان الله .

(١) فصلت ٢٦

(٢) محمد ١٢

(٣) سبأ ٣٧

فقال الرب لموسى : هكذا تقول لى إسرائيل . أنتم رأيتم أنى من السماء تكلمت معكم ، لا تصنعوا معى آلهة فضة ولا تصنعوا معى آلهة ذهب . مذبحا من تراب تصنع لى تذبح عليه محرقاتك وذبائح سلامتك عنمتك وبقرتك . فى كل الأماكن التى فيها أصنع لاسمى ذكرأتى إليك وأباركك . وإن صنعت لى مذبحا من حجارة فلا تبته بها محرقة . إذا رفعت عليها إرميلك تدنسها ولا تصعد بدرح إلى مذبحى لكيلا تكشف عورتك عليه .

جعلوا لله مكانا . إنه فى الضباب . وجمعوه إليها يتعطش إلى دماء الغنم والقر : « لن يبال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يباله التقوى مكم » (١) . إنه يباهم عن صنع آلهة من فضة أو ذهب ولكهم سرعان ما صنعوا عجلا من ذهب وعبيدوه لأنهم ما دامت كل تعاليمهم أرضية لا يطيقون البعد عن عادة الذهب ، فالذهب يصعمون وبالذهب يكسون وبالذهب يكون لهم سلطان فى الأرض وهذه كل العايات التى يعدون الله من أجلها ، ومادام الذهب يحققها لهم فهو الإله المعبود .

ويسرد الإصحاح الحادى والعشرون من نفس السفر الأحكام التى أمر الله موسى أن تطبق على بى إسرائيل : « وهذه هى الأحكام التى تضع أمامهم : إذا اشتريت عبدا عبرانيا فست سى يخدم وفى السابعة يخرج حرا محاما . إن دخل وحده فوحده يخرج . إن كان بعل امرأة تخرج امرأته معه ، وإن أعطاه سيده امرأة وولدت له سبن أو ناث فالمرأة وأولادها يكون لسيده وهو يخرج وحده . ولكن إن قال بعد : أحب سيدى وامراتى وأولادى لأخرج حرا . يقدمه سيده إلى الله ويقدمه إلى الباب أو القائمة ويثقب سيده أذنه بالثقب

فيخدمه إلى الأبد . وإذا باع رجل ابنته أمة لا تخرج كما يخرج العبد . إن قبحت في عبي سيدها الذي خطبها لنفسه يدعها تفك . وليس له سلطان أن يبيعها لقوم أجنب لعدره بها . وإن خطبها لابنه فيحسب حق السات يفعل لها . إن اتخذ لنفسه أخرى لا يقص طعامها وكسوتها ومعاشرتها . وإن لم يفعل لها هذه الثلاث تخرج مجانا بلا ثمن .

من ضرب إنسانا فمات يقتل قتلا . ولكل الذي لم يتعمد بل أوقع الله في يده فأنما أجعل له مكانا يهرب إليه . وإذا بغي إنسان على صاحبه ليقتله بغدر فمن مذبحي يأخذه للموت . ومن ضرب أباه أو أمه يقتل قتلا . ومن سرق إنسانا وباعه أو وحنه في يده يقتل قتلا . ومن شتم أباه أو أمه يقتل قتلا . وإذا تخاصم رحلان فضرب أحدهما الآخر مححر أو بكمة ولم يقتل بل سقط في الفراش . فإن قام وتمشى خارجا على عكاره يكون الصارب بريئا ... ٤ .
والذي يهمل من هذه الأحكام أن الشريعة الموسوية قد أقرت الرق وأباح بيع العبراني وأن يبيع الرجل ابنته ، بل إننا نجد في مستهل الإصحاح الثاني والعشرين من هذا السفر أن السارق يباع بسرقة ، فما بال الكتاب اليهود والمسيحيين الخاقدين على الإسلام يهاجمونه في صراوة لأنه لم يلغ الرق طفرة ؟ .

لم يشأ الإسلام أن يلغ الرق بأمر يحرمه لأنه وجد في ذلك رعة للحياة الاقتصادية السائدة وحاف أن يلقى بمسين وعجزة لم يعرفوا غير بيوت ساداتهم في الطرقات دون شفقة ، فس من القواعد ما يحفف جميع روافد الرق ولم يستحدث رافدا واحدا يزيد مشكلة الرق تعقيدا . ولو طوق الإسلام بعيدا عن هوى الحكام لقضى على الرق قضاء مبرما في ثلاثة أجيال على الأكثر ، ولم يسمح الإسلام ببيع الآباء للأبناء كما سمحت أحكام الرب التي (فتح مكة)

كتبها أحبار اليهود في المعى ، ولم يقرر أن السارق يمكن في بعض الحالات أن يسارق سرقة ، بل حكم بقطع يد السارق ليكون عرة لعيره ، أما حرية الفرد فلم يصادها الإسلام مهما كانت الأسباب .

وبلاحظ أن جميع الأحكام الواردة في الإصحاح الحادى والعشرين والإصحاح الثانى والعشرين من سفر الخروج لا تختلف في كثير ولا قليل عن القوانين التى كانت سائدة في بابل في عصر تدوين التوراة ، حتى الذى يعتصب عذراء يطبق عليه ما كان يطبق على فاعل ذلك في العراق : « وإذا راود رجل عذراء لم تخطب فاضطجع معها يمهرا لنفسه زوجه . إن أبى أبوها أن يعطيه إياها يزن له فضة كمهر العذارى .. كل من اضطجع مع بيمه يقتل قتلا . من ذبح لآلهة غير الرب وحده يهلك »

من يضطجع مع بيمه يقتل قتلا أما من يضطجع مع عذراء فيعطى لأبيها من الفضة مهر عذراء ! إنه لا يجلد إذا كان غير محص ولا يرجم إذا كان محصا ، ولم الخلد وألرحم ما دام سيدفع الثمن بالفضة ؟ وماذا يصرح له يا ترى لو كان الدفع بالذهب ؟!

إن الذين كتبوا التوراة في المعنى لا يستطيعون أن يغمصوا أعينهم عن الذهب والفضة وإن إلهم يمهرا الذهب والفضة . انظر إليه وهو يتحدث موسى عليه السلام لما ذهب لميقات ربه :

« وكنم الرب موسى قائلا : كنم بنى إسرائيل أن يأحدوا الى تقدمه . من كل من يحته قلبه تأحدون تقدمتى . وهذه هى التقدمة التى تأحدونها منهم : ذهب وفضة ونحاس وأسماجوى وأرجوان وقرمز وبوص وشعر معزى وحلود كباش عمرة وحلود نحس وحشب شط وريت للمارة وأطياب لدهن المسحة وللحور العطر وحجارة حرع وحجارة ترصيع للرداء والصدرة ،

فيصنعون لى مقدسا لأسكن فى وسطهم .

ذهب وقصة وحاس وأرجوان وقرمز وشعر وحلود . لماذا كل هذا ؟
ليصنعوا للرب مسكنا مقدسا ليسكن وسطهم وحدهم ، أما باقى العالم فما
صره لو عاش بلا إله . إنه إله بنى إسرائيل وحدهم . لهم تشرق الشمس
ويتألق القمر وتنبث الأرض حبا وتمطر السماء ، أما باقى البشرية فهم عبيد
لهم ، ليس لهم أن يسألوا الله أو يتوكلوا عليه ، مرور الدين كنوا التوراة فى
المنفى أعماهم عن معرفة كه الله سبحانه وتعالى وما قدروا الله حق قدره ،
فبواله مسكنا ماديا ليعيش فى وسطهم سبحانه وتعالى عما يصمون . والآن
لرد ذلك المسكن الذى بنوه الله : « بحسب جميع ما أنا أريك من مثال المسكن
ومثال جميع آتيه هكذا تصنعون فيصنعون تابوتا من حشب السنط طوله
ذراعان ونصف وعرضه ذراع ونصف وارتفاعه ذراع ونصف وتعيثيه
بذهب بقى . من داخل ومن خارج تُعيثيه . وتصنع عليه إكليلا من ذهب
حواليه . وتُسك له أربع حلقات من ذهب وتجعلها على قوائمه الأربع . على
جانبه الواحد حلقتان وعلى جانبه الثانى حلقتان . وتصنع عصوين من حشب
السعد وتعيثيهما بذهب وتدخل العصوين فى الحلقات على جانبي التابوت
ليحمل التابوت هما . تبقى العصوان فى حلقات التابوت . لا تزعا منهما .
وتضع فى التابوت الشهادة التى أعطيك .

وتصنع غطاء من ذهب بقى طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع
ونصف ، وتصنع كُرويين من ذهب صعة حراطة تضعهما على طرفي
الغطاء فاصع كرويا واحدا على الطرف من ها وكرويا آخر على الطرف
من هاك . من الغطاء تصنعون الكرويين على طرفيه ويكون الكرويان باسطين
أحتهما إلى فوق مقلدين بأحتهما على الغطاء ووجهما كل واحد إلى

الآخر . نحو العطاء يكون وحها الكروين ..

وأراه الله كيف يصنع مائدة من خشب السط ، وكيف يصنع منارة من ذهب نقي ، وذكر له تفصيلات مهندس في مصنع ، وإن المرء يتساءل أكان ذهاب موسى لبيقات ربه ليسمع منه كيف يصنع تابوتنا صنع آلافا مثله قدماء المصريين والآشوريين والبابليين ؟ وفيهم كان حرص الإله على أن يكون كل شيء من الذهب ؟ إنه حرص الأدلاء الذين كانوا أسرى في بابل يحملون بالذهب ، وحاشا لله أن يكون هكذا ماديا كملوك الأرض يحتفل بالذهب وبالفوش .

واستمر الله الذي تصوره كنة التوراة يصف لموسى وهو يباحيه خلال الأربعين يوما كيف يصنع سرح المارة السعة من ذهب نقي ، وكيف الأواني من ورة ذهب نقي ، وكيف يصنع خيمة الاجتماع . ووصاه بأن يقرب أحاه إليه وبنيه معه من بين بني إسرائيل ، وأن يصنع ثيابا مقدسة لهارون . وراح يصف في إسهاب صفة الثياب المقدسة فهو إله مادي يبه المظهر والذهب النقي ولا علاقة له بالقلوب ، ثم نصب ذلك الإله هارون ليكون كاهنا للرب وحمل هذه الكرامة وراثته في سبه ، ثم راح يصف ما يفعل بهم ليستحقوا الكهانة المقدسة : « وهذا ما تصعده لهم لتقدسهم ليكهوا لي : حذ ثورا واحدا ابن بقر ، وكشيش صحيحين ، وخيزر فطير ، وأقراص فطير متوتة بريث ، ورقاق فطير مدهونة بريث ، من دقيق حطة تصعدها وتحمدها في سلة واحدة وتقدمها في السلة مع الثور والكشيش .

وتقدم هارون وبنيه إلى باب حيمة الاجتماع وتغسلهم بماء ، وتأخذ الثياب وتغسل هارون القميص وحة الرداء و الرداء والصدر ، وتشده برنار الرداء وتصنع العمامة على رأسه وتعمل إلكس مقدس على العمامة (الإلكس مقدس

من الذهب النقي) ، وتأخذ دهن المسحة وتسكبه على رأسه وتمسحه وتقدم
بنيه وتلبسهم أقمصا ومططقهم بمصق هارون وبنيه ، وتشد لهم قلائس .
فيكون لهم كهنوت فريصة أبدية ، وتملا يد هارون وأيدي بنيه .

وتقدم الثور إلى قدام خيمة الاجتماع فيضع هارون وبنيه أيديهم على رأس
الثور ، فتذبح الثور أمام الرب عند باب خيمة الاجتماع ، وتأخذ من دم الثور
وتجعله على قرون المذبح بأصبعك ، وسائر الدم تصبه إلى أسفل المذبح ،
وتأخذ كل الشحم الذي يغشى الجوف وريادة الكبد والكليتين والشحم
الذي عليهما وتوقدها على المذبح . وأما لحم الثور وجلده وفرثه فتحرقها بنار
خارج المحلة هو ذبيحة خطية .

واكتفى بهذا القدر ومن يشأ معرفة ما يحرى للكيش الأول والكيش الثاني
وباق المراسيم فليرجع إلى الإصحاح التاسع والعشرين من سفر الخروج .
ألا يذكر ذلك بالرار ؟ أكان دهاب موسى لميقات ربه ليسمع منه مثل
هذا الكلام ؟ وهارون الذي نصه الله كاهن في ذلك الوقت ماذا كان يصنع ؟
نقرأ ما كتبه عنه الذين كتبوا التوراة في المعنى : « ونا رأى الشعب أن موسى
أبطأ في النزول من الحبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له : قم اصع لنا
آلهة تسير أمامنا ، لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا يعلم
ماذا أصابه . فقال لهم هارون : ارفعوا أقراط الذهب التي في آذان سائكم
وسبككم وسائكم وأتوني بها . فرفع كل الشعب أقراط مذهب التي في آذانهم
وأثوا بها إلى هارون . فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإرميل وصنعه عحلا
مسبوكا . فقالوا : هذه آلهة يا إسرائيل التي أصعدت من أرض مصر . فلما
نظر هارون سى مدبعا أمامه . وبأدى هارون وقال . عدا عبيد الرب . فكروا
في العبد وأصعبوا محرقات وقدموا ذائح سلامة . وحسب الشعب للأكل

والشرب ثم قاموا للعب .

يقول الذين كتبوا التوراة في المسمى إن هارون هو الذى صنع العجل ، فهل يا ترى نصبه الله كاهنا وجعل الكهانة في بيته إلى الأبد مكافأة له على أنه كان أول المشركين ؟! إنها صورة مهزورة لا تقبل من قصاص فما بالك بأسياء أحبهم اليهود حتى قالوا إن أحدهم ابن الله !

وقال الله في محكم كتابه يروى ما كان من موسى وهارون ومن قوم موسى : ١ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين . ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قل رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فما نعى ربه للحل جعده دكا وحر موسى صعبا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين . قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين . وكنا له فى الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فهداه بقوة وأمر قومك يأحدوا بأحسبها سأوريكم دار العاسقين سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل العى يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافين . والذين كذبوا بآياتنا ونقاء الآخرة حطت أعمالهم هل يجرون إلا ما كانوا يعملون . واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا حسدا له حوار ألم يروا أنه لا يكلهمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين . ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرهم ربنا ويعرف لنا نكوس من الخسرين . ولما رجع موسى إلى قومه عصيان أسفا قال بشما حلتمونى من بعدى أعجنتم أمر ربكم

وَأَلْقَى الْأَوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ مَنْ أُمُّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَظْعَمُونِي
وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تَشْعُمُونِ الْأَعْدَاءُ وَلَا تَجْعَلُنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . قَالَ
رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ^(١) .

وَبَرَأَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ هَارُونَ مِنْ صَنِيعِ الْعَجَلِ ، فَمَا كَانَ لَنِي أَنْ يَكُونَ أَوَّلُ
الْكَافِرِينَ : « فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ
وَعَدًا حَسَنًا أَفْطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أُرَدْتُمْ أَنْ يُحِلَّ عَلَيْكُمْ عَصَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ
فَأُحِلَّ لَكُمْ مَوْعِدِي : قَالُوا مَا أَجْلَسْنَا مُوْعِدَكَ بِنُكْحَانِكُمْ وَلَكِنَّا جِئْنَاكَ مِنْ
زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ . فَأَحْرَقَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ
حَوَارٍ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ . أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا
يُمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا . وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونَ مِنْ قَبْلِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ
رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي . قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ
إِلَيْنَا مُوسَى . قَالَ يَا هَارُونَ مَا مَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا . أَلَا تَتَذَكَّرُ أَعْيَصِيَّتِي
أَمْرِي . قَالَ يَا ابْنَ أُمِّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ
بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي . قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ . قَالَ بَصُرْتُ
بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَسَصْتُ قِصَّةَ مَنْ أَثَرُ الرُّسُولِ فَبُذِّتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي
نَفْسِي . قَالَ قَادُودُ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ
تُحْلَفَ . وَانْطَرِ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ
نَسْفًا ، إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ^(٢) .

وهكذا صور القرآن ما جرى بين موسى عليه السلام وربه سبحانه
وتعالى ، أدب في الخطاب وإليه عمور وسى يلتزم انعمرة لمسه ولأخيه ،
وشعب يصلح رحمة ربه ، أما كنية التوراة فقد جعلوا رب إسرائيل

يشور فيؤنبه موسى على ثورته : « فقال الرب لموسى اذهب أنزل . لأنه قد فسد شعبك الذى أصعدته من أرض مصر . زاغوا سريعا عن الطريق الذى أوصيتهم به . صعدوا لهم عجلا مسبوكا وسجدوا له وذبحوا له وقالوا : هذه آلهتنا يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر . وقال الرب لموسى : رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبة ، فالآن اتركى ليحمى غضبى عليهم وأقبيهم فأصيرك شعبا عظيما . فتصرع موسى أمام الرب إلهه وقال : لماذا يا رب يحمى غضبك على شعبك الذى أخرجته من أرض مصر بقوة عظيمة ويد شديدة ؟ لماذا يتكلم المصريون قائلين أخرجهم بخت (حاشا لله) ليقتلهم فى الجبال ويفيهم عن وجه الأرض . ارجع عن حمو عضك واندم (حاشا لله) على الشر بشعبك . اذكر إبراهيم وإسحاق وإسرائيل عبيدك الذين خلعت لهم بعسك وقلت لهم : أَكْثَرُ لَكُمْ نسلكم كنجوم السماء ، وأعطى سلككم كل هذه الأرض التى تكلمت عنها فيملكوها إلى الأبد . هدم الرب (حاشا لله) على الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه » .

ولا بد أن نرى، موسى عليه السلام من مثل هذا القول ، إنها أقوال أنبياء المنفى وأحلامهم هم لا يفشون يدكرون الوعد الذى اخترعوه ولا يكتفون بذلك بل يدكرون فى قحة رب العرة بذك الوعد حتى يستقر ذلك الوهم فى وجدان كل من يقرأ التوراة . وقد صدق المسيحيون الذين يقرعون التوراة التى وضعت فى المنفى ذلك الرعم فما أجهلوا أنفسهم فى تمحيص تلك المراعم ، وإن الذين أجهلوا أنفسهم قد كفروا بالذين وأنكروا وجود خالق هذا الكون ، فالإله الذى وصفه الذين كتبوا التوراة فى المنفى أهون من أن يخلق ، ما دام بشر مهما كانت مرلته يؤبه ثم يهديه إلى سبيل الرشاد .

وكان حوار بين الرب وموسى عليه السلام ، الرب يأمر موسى أن

يطلق إلى الأرض التي حنף لإبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يعطيها لذريتهم ، ولكن الرب قرر أن لا يطلق معهم ، فلما عرف القوم أن الله لن يكون معهم بكوا وكان حوار آخريين الرب وموسى . وقل الرب إكراما لموسى أن يسير مع بني إسرائيل .

إن قارئ هذه الإصحاحات لا يمكن أن يتصور إلا أن الله سبحانه وتعالى رجل ، ففيها : « ويكلم الرب موسى وجها لوجه كما يكلم الرجل صاحبه » . وفيها يقول الرب لموسى : « عرفتك باسمك » . « لأن الرب اسمه غيور . إله عيور هو » . وإن المرء ليتساءل : أفعال بني إسرائيل وعبادتهم العجل ونبي الله موسى لا يزال بينهم تستحق أن بعدهم الله أن يمنحهم أرض فلسطين إلى الأبد ؟ وماذا كان يعطيهم لو أنهم كانوا سامعين مطيعين ؟ إن ذلك الوعد لم يرد له ذكر في القرآن المجيد ، فقد كان حلم اليهود الذين كانوا في المنفى قدسه الذين كتبوا التوراة في أرض السبي في الإصحاحات والأسماء بمناسبة وبلا مناسبة لإيها قارئ التوراة أنه وعدم من الله ، وإن كثرة تكراره ليحمل في طياته عوامل الشك فيه .

وقد ألبسوا موسى برقعا : « وكان لما نزل موسى من جبل سيناء ولوحا الشهادة في يد موسى عند نزوله من الجبل أن موسى لم يعلم أن جلد وجهه صار يلمع في كلامه معه . فظن هارون وجميع بني إسرائيل موسى وإذا جلد وجهه يلمع فخافوا أن يقتربوا إليه . فدعاهم موسى مرجع إليه هارون وجميع الرؤساء في الجماعة . فكلهم موسى وبعد ذلك اقترب جميع بني إسرائيل فأوصاهم بكل ما تكلم به الرب معه في جبل سيناء . ولما فرغ موسى من الكلام معهم جعل على وجهه برقعا وكان موسى عند دخوله أمام الرب ليتكلم معه يزع الرفع حتى يخرج . ثم يخرج ويكلم بني إسرائيل بما يوصى . فإذا رأى بو

إسرائيل وجه موسى أن جنده يلمع كان موسى يرد البرقع على وجهه حتى يدخل لينكلم معه .

صورة حسية للتعبير عن أنوار اليقين ، ولما كانت جميع تعبيرات الذين كتبوا التوراة بأيديهم مادية فلم يحط لهم على قلب أن يتعللوا في الأفتدة للتعبير عن أنوار الإيمان التي تنعكس على الوجوه . وهل أنوار اليقين التي تشع من الوجوه تحتاج إلى برقع ؟ إنها أفكار رجال أفسدتهم أساطير الشعوب وما هي يوحى يوحى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه على حكيم » (١) .

ويعود رب الذين كتبوا التوراة بأيديهم يتحدث عن الفطير كأنما مشاكل الدنيا والآخرة فطير وخمير ، ثم يتحدث عن أيام العمل الستة ويوم السبت المقدس وأن جراء من يعمل فيه يقتل ، وبهاهم عن إشعال النار في يوم السبت دون أن يبين حكمة ذلك كما لم يبين ما يعود على البشرية جمعاء من شرور من وجود الخمير في الدور !

ويتمى سفر الخروج ويذكر سفر اللاويين طريقة تقديم القرابين إلى الرب ، ومنها يتضح أنه إله دموي يسره رائحة الشواء : « ويدبح العجل أمام الرب ويقرب به هارون الكهنة الدم ويرشون الدم مستديرا على المذبح الذي لدى باب خيمة الاجتماع » .

ولا أدري ماذا يحدث لو أن الدم لم يرش مستديرا ، وما حكمة رشه ؟ ثم يذكر الرب طريقة شواء كل قربان : « ويسلخ المحرقة ويقطعها إلى قطعها ، ويجعل به هارون الكاهن نارا على المذبح ويرتبون حطبها على النار ، ويرتب به هارون الكهنة القطع مع الرأس والشحم فوق الحطب الذي على النار التي على المذبح ، وأما أحشائه وأكارعه فيعسلها ماء وبوقد الكاهن الجميع على

المذبح مُحترقة وقود رائحة سرور للرب .

وراح رب الذين كتبوا التوراة بأيديهم يذكر في تفصيل عجيب ما يفعل بقربان النسم والصان وما يفعل بقربان الدقيق . وماذا يفعل إذا كان القربان مقدمة من طاحس . والمهم أن الباقي من كل قربان هو هارون وبنيه قدس أقداس من وقائد الرب وليس لفقراء بني إسرائيل . فما حطر فقراء بني إسرائيل للذين كتبوا توراة المسمى على قلب .

ويسرد سفر اللاويين ما يفعله الذي يخطئ سهوا وما يفعله الذي يخطئ وكان رئيس عمل ، وما يفعله الخائن إذا خان للتكفير عن خطيئته . إنه يأتي شور ويضع يده على رأسه . وفي حالة خطيئة الكاهن فإن عليه أن يقرب ثورا صحيحا للرب ويذبح الثور أمام الرب ، ويأخذ الكاهن الممسوح من دم الثور ويدخل به خيمة الاجتماع ويعمس الكاهن إصبعة في الدم ويصيح من الدم سبع مرات أمام الرب لدى حجاب القدس . ويجعل الكاهن من الدم على قرون مذبح المحور المعطر الذي في خيمة الاجتماع أمام الرب ، وسائر دم الثور يصبه إلى أسفل مذبح المحرق الذي لدى باب خيمة الاجتماع وجميع شحم ثور الخطيئة ينزعه عنه . . .

الدم لله واللحم لبني هارون . نفس ما كان يفعله كهنة مردوخ في أرض باب ، لم تكن الصدقات للفقراء والمساكين بل كانت للكهنة الأعياء . ولا شك أن بني هارون كانوا أعشى طوائف بني إسرائيل ، وإن العسى للدليل رصا الله على عبده عبد الذين كتبوا بأيديهم توراة المسمى .

ومن عجب أن جعلت الكفارة من احتصاص الكاهن ، فهو يكفر عن الخطيئة إذا ما قدم الخاطئ الذبيحة . فمن ذا الذي لا يقدم ذبيحة إن ما كانت كفارة عن آثامه ، ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليه أو يعذبه فربهم

ظالمون والله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء
والله غفور رحيم (١).

وأخذ الدين كتبوا التوراة بأيديهم فكرة النار الدائمة على المذبح من
المجوس ، فقد احتل الإيرانيون العراق أيام أن كان اليهود في أرض السبي .
فالمجوس كانوا يسون بيوتا للنار المقدسة وكان الهرنذ وهو يقابل الكاهن في
الديانة اليهودية يقف وقد أحفى فمه برباط لكيلا تلوث أنفاسه النار
ليغذى النار بقطع من الخشب ظهرت تطهيرا دينيا ، ماذا يده بحزمة الخشب
المسوى والمهيا طبقا لمراسم الدين ، مرتلا الأدعية الدينية . ووصايا رب
الدين كتبوا التوراة بأيديهم لا تختلف عن تلك المراسم المتعلقة بشريعة
المحرقة : « وكلم الرب موسى قائلا : أوص هارون وبنيه قائلا . هذه شريعة
المحرقة ، هي المحرقة تكون على الموقدة فوق المذبح كل الليل حتى الصباح ،
وبار المذبح تنقد عليه . ثم يلبس الكاهن ثوبه من كتان ولبس سراويل من
كتان على حسده ويرفع الرماد الذي صيرت النار المحرقة إياه على المذبح ويضعه
بجانب المذبح ، ثم يجمع ثيابه ويلبس ثيابا أخرى ويخرج الرماد إلى خارج المحلة
إلى مكان ظاهر والنار على المذبح تنقد عليه ولا تطفأ . ويشعل عليها الكاهن
حطب كل صباح ويرتب عليها المحرقة ويوقد عليها شحم دبائح السلامة . نار
دائمة تنقد على المذبح لا تصفا » .

النار المقدسة عند المجوس تتأجج على الدوام ونار المحرقة تشتعل طوال الليل
وطوال النهار . « نار دائمة تنقد على المذبح لا تطفأ » . ومن المؤكد أن الذين
كتبوا التوراة في المهي أحدوا عن المجوس المراسم الطويلة المعقدة ، فالأوستا

الساسانية تعيـض بتفاصيل دقيقة عن المراسم المقدسة تكاد تكتم الأنفاس صيـقا بها ، وكذلك الحال مع تورااة المـفـى . ولعريسين الذين صاق السيد المسيح بترمتهم كل العذر ما دام كتابهم المقدس قد بص على تفصيلات دقيقة عند عمل أى شىء ، ولم يترك فرصة للاحتـاد أو الاختيار ١٠ ويسرك لليسرى ، فذكر إن نفعت الذكرى ١١ . قال رب اشرح لى صدرى . ويسر لى أمرى ١٢ .

ويستمر سفر اللاويين يفصل ما يفعله الكاهن هارون وبوه فى ضحايا التكفير عن الخطايا ، ثم يكلم الرب هارون : « وكلم الرب هارون قائلا : خـمرا ومـسـكرا لا تشرب أنت وبنوك معك عند دحولكم إلى حيمة الاجتماع » . فحرم عليهم الخمر أثناء القيام بوظائفهم الدينية . أما بعيدا عن بيت الرب فلهم مطلق الحرية فى أن يسكروا .

وراح رب الذين كتبوا التورااة فى المسمى يعلم سى إسرائيل شريعة الولادة : « وكلم الرب موسى قائلا : كلم سى إسرائيل قائلا : إذا حبلت امرأة وولدت ذكرا تكون بحصة سبعة أيام . كما فى أيام طمئ علتها تكون بحصة ، وفى اليوم الثامن يحنن لحم عركته ، ثم تقيم ثلاثة وثلاثين يوما فى دم تطهيرها . كل شىء مقدس لا تمس ، وإلى المقدس لا تحى حتى تكمل أيام تطهيرها . وإن ولدت أنثى تكون بحصة أسبوعين كما فى طمئها ، ثم تقيم ستة وستين يوما فى دم تطهيرها » . لماذا هذا التفريق ؟ أولادة الذكر تختلف عن ولادة الأنثى ؟ أم أنها تجارى لأنها لم تحب لـبى إسرائيل ذكرا محاربا مقاتلا يكون عونا لتعـيد أحلام الذين كانوا فى المسمى ؟ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا

(١) الأعلى ٨ ، ٩

(٢) طه ٢٥ ، ٢٩

وهو كظيم» (١). «يب لمن يشاء إنانا ويب لمن يشاء الذكور» (٢) ولم يفرق الإسلام بين الذكر والأنثى في العمل والأجر : «ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة» (٣). وما بال كتاب توراة المسمى باجدة ؟ إن حثهم أرسية : العودة إلى الأرض التي زعموا أن الله قد وهبها لإبراهيم وإسحاق ويعقوب ودريته ، وحرّم منها إسماعيل ودريته إكراما لذين جعلهم كتاب توراة المسمى يكفرون ورسول الله موسى عليه السلام فيهم !

ويستمر سفر اللاويين يحدد وظيفة الكاهن في معامدة الأبرص ، ولا ينسى نصيب الكهنة من الأضاحي سواء أكانت ثيرا أو كياشا أو معزا أو حتى عصفير في كل عملية تطهير سواء أكانت تطهيرا من دس أو نفاة أو برص أو قرع .

ويتحدث سفر اللاويين عن الجماع : « وإذا حدث من رجل اصصحاع زرع يرحص كل جسده بماء ويكون نجسا إلى المساء » . ولماذا يكون نجسا ما دام قد تطهر ، ومتى يقوم بعبادته لله إذا كان سيستمر نجسا طوال النهار ؟ وإن حديثه عن المرأة في الحيض يتسم بالقسوة ويدلل على شدة اهتمامه بالطهارة الخارجية ، الطهارة المادية ، أما طهارة النفس فلم يشغل رب الذين كتبوا التوراة نفسه بها ، فما أهميتها ما دامت السعادة كل السعادة في حياتهم الأرضية : « وإذا كانت امرأة لها سيل وكان سيلها دما في لحمها فسعة أيام تكون في طمئتها وكل من مسها يكون نجسا إلى المساء . وكل ما تصططع عليه

(١) المحل ٥٨

(٢) الشورى ٤٩

(٣) النساء ١٢٤

في طمئنها يكون نحسا . وكل ما تجلس عليه يكون نحسا . وكل من مس
راشها بفلس ثيابه ويستحم بماء ويكون نحسا حتى انساء ، وكل من مس
متاعا تجلس عليه يجلس ثيابه ويستحم بماء ويكون نحسا إلى انساء . وإن كان
على الفراش أو على المتاع الذي هي حالسة عليه عندما يمسه يكون نحسا إلى
انساء . وإن اصططحع معها رجل فكان طمئنها عليه يكون نحسا ساعة أيام ،
وكل فراش يصططحع عليه يكون نحسا .

أحكام قاسية دفعت بني إسرائيل إلى طرد المرأة حارح الدار ما دامت في
حبسها لكيلا يقعوا في كل هذه المصوبات أو في بعضها . وقد سمع المسلمون
من بني إسرائيل في المدينة وهم يزعمون أنهم من نسل الكاهن هارون هذه
الأحكام فسألوا رسول الله ﷺ — عن الخبيص فأمر الله تعالى :
﴿ ويسألونك عن الخبيص قل هو أذى ما عثرنوا النساء في الخبيص ولا تقر بهن
حتى يظهروا فإذ تظهن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب المتوحيين
ويعب المتصهرين ﴾ ^(١) . وفاتت اليهود للمسلمين « إن نرحل إن أنى
امراته بركة كالولد أحول . فأمر الله تعالى : ﴿ سائركم حرث لكم فأتوا
حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله وعمموا أنكم ملاقوه وبشر
المؤمنين ﴾ ^(٢) .

وكان الدين كتبوا التوراة في المنفى حريصين على أن تكون الدوايح كلها
بيد الكهنة حتى يصمموا نصيبهم ، فجمعوا رب موسى يقول . « وكلما
الرب موسى قائلا : كلمه هارون وبنيه وجميع بني إسرائيل وقل لهم هذا هو
الأمر الذي يوصي به الرب قائلا كل إنسان من بيت إسرائيل يدع بقرا أو عما

(١) الآية ٢٢٢

(٢) الآية ٢٢٣

أو معرى في المحنة أو يذبح حارح المحنة . وإلى باب خيمة الاجتماع لا يأتي به ليقرب قربانا للرب أمام مسكن الرب بحسب على ذلك الإنسان دم . قد سفك دما فيقطع ذلك الإنسان من شعبه . لكي يأتي هو إسرائيل بدبائهم التي يذبحونها على وجه الصحراء ويقدموها للرب إلى باب خيمة الاجتماع إلى الكاهن ويذبحونها ذبائح سلامة للرب ، ويرش الكاهن الدم على مذبح الرب لدى باب خيمته الاجتماع ويوقد الشحم لرائحة سرور للرب وجعلوا الدم كفارة عن نفس . . . لأن نفس الحسد هي في الدم ، فأما أعطيتكم إياه على المذبح لتكفير عن نفوسكم ، لأن الدم يكفر عن النفس . وإن القرآن الكريم يقرر حقيقة تسريح إليها النفوس . لن يمال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ^(١) .

وأخيرا تذكر رب الدين كتبوا التوراة في المعنى المساكين والعرباء :
 « وعندما تحصدون حصيد أرضكم لا تكمل روبا حقلث في الحصاد .
 ولقاصد حصيدك لا تنفق وكرمك لا تعلنه وشار كرمك لا تنقط . للمسكين والغريب تتركه ، أما الرب إلهكم » .

ويستمر سر اللاويين في ذكر محارم الرجل والأحكام التي تطبق على الرائي والراية وعلى الدين يأتون الذكرا شهوة ثم يقول رب الكهان : « وإذا جعل رجل مصحعه مع بهيمة فإنه يقتل والبهيمة تميتها ، وإذا اقترت امرأة إلى البهيمة لرائتها نيمت المرأة والبهيمة إيهما يقتلان . دمهما عبيهما »

وكان كهنة مردوح في بابل يخشون أن تقدم القرابين لرب الأرباب كل صاح ومساء ، وكانت من لحوم البقر والحرف وبيط والور وكل ما لد

طاب . وقد أخذ عنهم الدين كتبوا التوراة في المعنى فأسهوا في ذكر ما يقدم
لرب إسرائيل من قرايين : « وكلم الرب موسى قائلا : أوصى بني إسرائيل أن
يقدموا إليك زيت زيتون مرضوض نقيا لإيقاد السرح دائما . حارح ححاب
الشهادة في حيمة الاجتماع يرتها هارون من المساء إلى الصباح أمام الرب دائما
فريضة دهرية في أحيالكم . على المارة الطاهرة يرتب السرح أمام الرب
دائما .

وتأخذ دقيقا ونخيره اثني عشر قرصا . عُشْرَيْن يكون القرص الواحد
وتعملها صفين كل صف ستة على المائة الطاهرة أمام الرب ، وتجعل على كل
صف لسانا نقيا فيكون للحبز تذكارا وقودا للرب . في كل يوم سبت يرتبه أمام
الرب دائما من عند بني إسرائيل ميثاقا دهريا . فيكون هارون وبنيه فيها كلونه
في مكان مقدس ، لأنه قدس أقدس له من وقائد الرب فريضة دهرية .
ولئلا أسف عندما ترحمت التوراة إلى العربية ضُ المسموع حسن قصد أن
التوراة التي كتبت في المعنى هي ، كتاب الأول فأحدوا عنها دون تمحيص و
مقارنة بينها وبين أحكام القرآن ، فأحدوا عادة بـ « الشموع » في الأصححة
أسوة بريت الريتون المقدس الذي كان يصاء للرب ، كأن لرب سور
السموات والأرض في حاجة إلى ضياء ريت الريتون النقي ، إنها عادة محوسية
انتقلت إلى بني إسرائيل في المعنى ثم انتقلت إلى المسلمين بسطاء الذين بدروا
الشموع لأولياء الله الصالحين دون أن ينظرهم على بال أن ما يفعلونه إن هو
إلا ضرب من الوثنية .

وقد مرح الدين كتبوا التوراة في المعنى بين قرايين البابليين وقرايين قدماء
عصريين ، وقد عاش بنو إسرائيل في مصر والعراق وتأثروا بديانة كل من
انقضريين . فعلى مصر القديمة كان يوضع على مؤنث خمران في كل يوم من أيام
(فتح مكة)

السنه وبانضمام ٣٢٢٠ رعيها من الحر و ٢٤ قطعة من الكعك و ١٤٤ قدرا من الحنطة و ٣٢ ذرة وبعصة قدور من السبد . وكانت هذه القرايين هدايا من أباس حيرين ثم أصبحت واجبا تقوم به الدولة ، وكانت هذه القرايين لإعانة الكهنة وخدمة المعبد ، وهى فى الشريعة اليهودية لإعانة الكهنة وخدمة حيمة الاجتماع . ولم تقل اشريعة ذلك صراحة بل جعلت القرايين فى سبى إسرائيل واجبا مقدسا أبدا .

و لم يلحأ رب الدين كنسوا التوراة فى المسمى إلى وعيد الدين لا يعدون وصاياهم بار جهنم فقد نسوا الآخرة من طول معاشرتهم لأهل بابل ، بل جعل عدائهم فى الدنيا .. لكن إن لم تسمعوا لى ولم تعملوا كل هذه الوصايا ، وإن رفضتم فرائضى وكرهت أنفسكم أحكمى فما عسى كل وصاياى بل كنتم ميثاق ، فإنى أعمل هذه بكم . أسلط عليكم رعا وسلا وحمى نفى العين وتنصف النفس وتررعون دحلا رر عكم هياكنه أعدؤكم وأجعل وجهى صدكم فتزهرمون أمام أعدائكم ويتسلط عليكم مبعصوكم وتهربون وليس من يطردهم .

وإن كنتم مع ذلك لا تسمعون لى أريد على تأديكم سبعة أصعاف حسب خطاياكم . فأحضم فحار عزكم وأصير سماءكم كالحديد وأرضكم كالنحاس ، فتززع باصلا قوتكم وأرضكم لا تعطى عنتها وأشجار لأرض لا تعطى ثمارها .

وإن سلكنكم معى بالخلاف ولم تشاءوا أن تسمعوا لى أريد عيكم صربات سبعة أصعاف حسب خطاياكم . أضيق عليكم وحوش البرية فتعذبكم الأولاد وتقرص بهائمكم وتفلكم فتوحش طرقكم .

وإن لم تتأدبوا معى بذلك بل سلكنكم معى بالخلاف ، فإنى سأستعذبكم

والخلاف وأضربكم سبعة أضعاف حسب خطاياكم أحلب عبيكم سيفا يتقم
بقمة الميثاق فيحتمعون إلى مدبهم وأرسل في وسطكم ألواناً فتدعون بيد
العدو . بكسرى لكم عصا الخبز تحز عشر نساء حزمكم في تور واحد ويرددن
خبزكم بالوزن فتأكلون ولا تشبعون .

وإن كنتم بذلك لا تسمعون لي ، بل سلكنتم معي بالخلاف ، فأنا أسلك
معكم بالخلاف سأخطأ وأؤذيكم سبعة أضعاف حسب خطاياكم . فتأكلون
لحم ببيكم ولحم بهائمكم تأكلون . وأحرب مرتعاتكم وأقطع شمسانكم
وألقى جثثكم على حثث أصنامكم وترذلكم نفسي . وأصير مدبكم حربة
ومقادسكم موحشة ولا أشتم رائحة سروركم وأوحش الأرض فتوحش بها
أعدائكم الساكنون فيها وأدريكم بين الأمم وأحرد وراءكم السيف فتصير
أرضكم موحشة ومدبكم تصير حربة . حيث تستوي الأرض سوعها كل
أيام وحشتها وأنتم في أرض أعدائكم . حيث تستوي الأرض وتستوي
سوعها . كل أيام وحشتها تست مام تسته من سوتكم في سكتكم عبيها .
والباقية منكم ألقى الحماة في قلوبهم في أراضي أعدائهم فيهرمهم صوت ورقة
مدبعة فيهربون كاهرب من السيف ويسقطون وليس ضرد . ويعثر بعضكم
بعض كما من أمام السيف وليس طارد . ولا يكون لكم قيام أمام أعدائكم
فتهلكون بين الشعوب وتأكلكم أرض أعدائكم والباقيون منكم يصفون
بدوسهم في أراضي أعدائكم . ويصا بدوب آبائهم يصفون ولكن إن أقروا
بدوسهم ودوب آبائهم في حياتهم التي حاوون بها وسوكهم معي لندي
سكوا بالخلاف وإلى أيضا سلكت معهم بالخلاف وأتيت بهم إلى أرض
أعدائهم إلا أن تحصع حيث دوسهم العنف ويستوفوا حيث دوسهم أذكر
مبثقي مع يعقوب أذكر أيضا ميثقي مع إسحاق وميثقي مع إبراهيم وأذكر

الأرض والأرض تترك منهم وتستوى يسوعها في وحشتها منهم وهم يستوفون عن ديوبهم لأنهم قد أبوا أحكامي وكرهت أنفسهم فرائضي ولكن مع ذلك أيضا متى كانوا في أرض أعدائهم ما أبيتهم ولا كرهتهم حتى أيدهم وأنكث ميثاق معهم ، لأنى أنا الرب إلههم ، بل أذكر لهم الميثاق مع الأولين الذين أخرجتهم من أرض مصر أمام أعين الشعوب لأكون لهم إلهها . أنا الرب . هذه هي المرائض والأحكام والشرائع التى وصعها الرب بيه وبين سى إسرائيل في جبل سيناء بيد موسى .

هكذا يقول الدين كتبوا التوراة في انفى ، والحقيقة أنهم كانوا يصورون حالتهم وهم أدلة في أرض السبي . إهم كانوا يعتقدون أن ما رل بهم من عار إنما سببه أنهم عصوا أوامر الله ، ولما كانوا يؤمنون بالخراء الأرضى فقد جعلوا وعيد الله كله في الدنيا وليس من المقبول ولا المعقول أن رب موسى لا يذكر الآخرة ويوم الحساب ، ورب عيسى عليه السلام يذكر يوم الدين وجات اليعيم : « وقال المسيح يابى إسرائيل اعدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة وماواه النار وما للظالمين من أنصار » ^(١) . . . من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثنها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرفقون فيها بعير حساب . ويا قوم ماى أدعوكم إلى الحجة وتدعونى إلى النار . تدعونى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز العفار . لا جرم أنما تدعونى إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار . فسندكرون ما أقول لكم وأفوص أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد . فوقاه الله سيئات ما

مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب . النار يعرصون عليها غدواً وعشيا
 ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » (١) . ولقد آتينا موسى
 الكتاب فاحتلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإسهم لفي شك
 منه مريب » (٢) . ولما سكنت عن موسى الغضب أحد الألواح وفي ساحتها
 هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ، واختار موسى قومه سبعين رجلاً
 لميقاتنا فلما أخذتهم الرحفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وبإي أهلكنا
 بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت
 ولينا فاعفر لنا وارحمنا وأنت خير العافرين ، واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة
 وفي الآخرة إنا هدانا إليك قال عدائي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل
 شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتوا الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » (٣) .
 ما من رسول إلا ودعا قومه إلى عبادة الله وحده والإيمان بالبعث والشور
 واليوم الآخر ، فميسى عليه السلام دعا في الإنجيل بنى إسرائيل إلى الإيمان بالله
 ويوم الدين ، والقرآن يؤكد أن موسى عليه السلام دعا بنى إسرائيل إلى الإيمان
 بالله وحووفهم نار جهنم وبشرهم بخة انتى أعدت للمعتقين . فهل يعقل أن
 رب بنى إسرائيل لم يذكر الثواب والعقاب في الآخرة لما ذهب موسى عليه
 السلام لميقات ربه ؟ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل آحمار
 يحمل أسفارا يش مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم
 الظالمين » (٤) .

ويأتى بعد ذلك سمر العدد وفيه يأمر الله موسى بأن يعصى كل جماعة بنى

(١) عامر ٤٠ — ٤٦

(٢) الشورى ١٤ . (٣) الأعراف ١٥٤ — ١٥٦

(٤) الجمعة ٥ .

إسرائيل بعشائرتهم وبيوت آبائهم ، والإحصاء مقصور على الرجال الذين بلغوا العشرين فصاعداً للتحروح للحرب ، وحتى لا يعقل موسى عليه السلام عن بيت من بيوت أسباط بني إسرائيل يحدد الله رأس كل بيت . وعدّ موسى عليه السلام وهارون ورؤساء إسرائيل اثنا عشر رجلاً الرجال الذين بلغوا العشرين فكانوا ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسين . وقد حامل رب الذين كتبوا التوراة سبط لاوى لأن موسى وهارون معهم ، قال : « أما سبط لاوى فلا تحسبه ولا تعدّه بين بني إسرائيل ، بل وكل اللاويين على مسكن الشهادة وعلى جميع أمتعته وعلى كل ماله . هم يحملون المسكن وكل أمتعته وهم يخدمونه وحول المسكن يرلون ، فعند انخال المسكن يُرّله اللاويون ، وعند دخول المسكن يقيمهم اللاويون . والأحصى الذي يقترب يقتل ويرب بنو إسرائيل كلّ في محنته وكل عند رأيته بأحاديدهم . وأما اللاويون فيرلون حول مسكن الشهادة لكي لا يكون سخط على جماعة بني إسرائيل فيحسّط اللاويون شعائر مسكن الشهادة . فعلى بني إسرائيل حسب كل ما أمر الرب موسى . كذلك فعلوا » .

وهذا الإصحاح قد أعمى اللاويين من الحرب وحصصهم حيمة الاجتماع ، ولم يشرع القرآن مثل هذا الشرع فلم يعف قريشا ولا الهاشميين من الحرب لأنهم خدمة بيت الله . بل إن قريشا وهاشميين كانوا على الدوام في صفوف المقاتلين لإعلاء كلمة الدين ، فالجرب المقدسة جهاد وشهادة في عيين ، وما حطّر ذلك على قلب الذين كتبوا توراة فقد أسقطوا حراء الآخرة من حسابهم

وراحت إصحاحات العدد تسرد مواليد هارون وموسى يوم كلم الرب موسى في مربة سيناء . ١ عدد بني لاوى حسب بيوت آبائهم وعشائرتهم . كل

ذكر من ابن شهر فضاء تعددهم ، معددهم موسى حسب قول الرب كما أمره ، وأخذ الرب اللاويين له ولم يفرق بين صالح وطالح ، وما كانت العدالة الإلهية تنصصى طبقة بالميراث : « وإذ اتلى إبراهيم ربه بكلمات فأنتمهن قال : إني جاعلك للناس إماما قال ومن دريتي قال لا يزال عهدي الطالمين » (١) .

وكلم الرب موسى قائلا : « كلم بني إسرائيل وقل لهم إذا راعت امرأة رجل وحانه حياة واضطجع معها رجل اضطجاع زرع ، وأحمى ذلك عن عيسى رجلها واسترت وهي نحسة وليس شاهد عليها وهي لم تؤخذ ، فاعتراه روح العيرة وغار على امرأته وهي نحسة أو اعتراه روح العيرة وغار على امرأته وهي ليست نحسة ، يأتي الرجل وامرأته إلى الكاهن ويأتى بقرابها معها عشر الإيفة من ضحين شعير لا يصب عليه زيتا ولا يجعل عليه لانا لأنه مقدمة عيرة وتقديمه تذكرا تذكرا ذبا . فيقدمها الكاهن ويوقدها أمام الرب . ويأخذ الكاهن ماء مقدسا في إناء حرى ويأخذ الكاهن من العار الذى في أرض المسكن ويجعل في الماء . ويوقف الكاهن امرأة أمم الرب ويكشف رأس امرأة ويجعل في يديها مقدمة التذكرا التى هي مقدمة العيرة وفي يد الكاهن يكون ماء اللعة المر . ويستحىف الكاهن المرأة ويقول لها : إن كان لم يوضغ معك رجل وإن كنت لم تربعى إلى نحاسة من تحت رجلك فكوى برينة من ماء اللعة هذا المر ، ولكن إن كنت قد رعت من تحت رجلك وعست وجعل معك رجل غير رجلك مصحفة . يستحىف الكاهن امرأة حىف اللعة ويقول الكاهن للمرأة : يجعلك الرب لعة وحنفا بين شعك بأن يجعل الرب صحتك ساقطة وبطك وارما . ويدخل ماء اللعة هدا في أحشائك لورم الطس

ولإسقاط الصخذ . فنقول المرأة : آمين .. آمين . ويكتب الكاهن هذه التلعات في كتاب ثم يحوها في الماء المر . ويسقى المرأة ماء اللعة المر فيدخل فيها ماء البعة للمرارة . ويأخذ الكاهن من يد المرأة مقدمة العيرة ويردد التقدمة أمام الرب ويقدمها إلى المذبح . ويقبض الكاهن من التقدمة تذكارها ويوقده على المذبح وبعد ذلك يسقى المرأة الماء . ومتى سقاها الماء فإن كانت قد تنجست وحانت رجلها يدخل فيها ماء اللعة للمرارة فيرم بطنها ويسقط فخذها فتصير المرأة لعة في وسط شعبها . وإن لم تكن المرأة قد تحست بل كانت طاهرة تتبرأ أو تحبل بزرع .

هذه شريعة العيرة : إذا زأغت امرأة من تحت رجلها وتنجست أو إذا اعترى رجلا روح عيرة فعار على امرأته يوقف المرأة أمام الرب ويعمل لها الكاهن كل هذه الشريعة فيتبرأ الرجل من الدن وتلك المرأة تحمل دنبا .

كان البابليون إذا ما شكوا في أن المرأة قد رت بلقوسها في الهر ، فإذا كانت قد ارتكبت جريمة الرأ فالهر ينلعه ، وإذا كانت بريئة فإن الهر يلمطها ، وقد أحد كتاب التوراة في المسمى بفكرة وطورها بما فيه مصلحة الكاهن ، وحاشا لله أن يكون ذلك كلامه . إن الله سبحانه وتعالى يقول في محكم كتابه : ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاحلنوهن ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون ، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصبحوا فإن الله غفور رحيم . والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم مشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين . والخامسة أن لعة الله عليه إن كان من الكاذبين ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين . والخامسة أن غصب الله عليها إن كان من الصادقين ﴾ (١) ولا يعرف الإسلام مؤاحدة الناس على الظن . بل إنه يعتبر

أن بعض الطغاة ولم يمر أحد من قصاص الله إن أحصا ولم يبل العذاب و الدنيا ، فعذاب الآخرة يترص به . أما في شرائع الغيرة التي وضعها حكماء صهيون في أرض المنفى فإن من يهرب من عذاب الدنيا فلا خوف عليه من عذاب الآخرة ، فإنه بعد أن يموت لن يبعث وسيذهب إلى « شول » الأرض التي لا رجعة منها .

وراح رب الدين كتبوا التوراة في المنى يشرح لموسى شريعة المدير : « وهذه شريعة المدير يوم تكمل أيام انتداره يؤتى به إلى باب خيمة الاجتماع فيقرب قربانه للرب خروفا واحدا حوليا صحيحا مُحرقا ، وبعرة واحدة حولية صحيحة ذبيحة خطية ، وكشا وادا صحيحة ذبيحة سلامة ، وسل فطير من دقيق أقراصا ملتونة بزيث رفاق فطير مدهونة بريت مع تقدمتها وسكائبها ، فيقدمها الكاهن أمام الرب ويعمل ذبيحة حطيته ومُحرقه . والكش يعمه ذبيحة سلامة للرب مع سل الفطير . ويعمل الكاهن تقدمته وسكيبته ، ويحقق المدير لدى باب خيمة الاجتماع رأس انتداره ويأخذ شعر رأس انتداره ويحمله على السار التي تحت ذبيحة السلامة . ويأخذ الكاهن الساعد مسلوقا من الكش وقرص فطير واحدا من السل ورقاقة فطير واحدة ويضعها في يدي المدير بعد حلقه شعر انتداره ويردها الكاهن ترديدا أمام الرب . إنه قدس للكاهن مع صدر التردد وساق الرفيعة ، وبعد ذلك يشرب المدير حمرا » .

هذه شريعة المدير الذي يذبح قربانه للرب عن انتداره فصلا عما تال يده حسب نذره الذي نذر كذلك يعمل حسب شريعة انتداره .

وكم الرب موسى قائلا : « كم هارون وسبه قائلا : هكدا تباركون سي إسرائيل قائلين هم : يبارك الرب ويعرسه ، يصيئ الرب بوجهه عيب

وبرحمتك . يرفع الله وجهه عليك ويمحيه سلاما ، فيجعلون اسمي على بني إسرائيل وأما أباركهم .

أيسمح الرب بشرب الخمر على باب خيمة الاجتماع . على باب بيته ولماذا حرم شرب الخمر داخل خيمة الاجتماع ؟ إذا كانت الخمر رحسا من عمل الشيطان فكيف يفرق إله بين شرها في بيته وشرها على باب بيته ؟ ! والدبائح والفضائل ماذا يفعل بها الإله ؟ إن الأصل في الذبيحة أن تكون وسيلة للتوسعة على الفقراء فإذا ما تنقبض في شرع الذين كسوا التوراة في المضي إلى توسعة على الكهنة وقد كان فيهم كهنة من سسل هارون ، وقد جعلوه الكاهن الأول ليكون هم حق ممارسة الكهانة بالوراثة ليسألوا خير الدنيا ، وقد تأثر كثير من كتاب المسلمين عقب ترجمة التوراة إلى العربية تلك امرأع فقتلوا دون دراسة أو تمحيص إن اليهود الذين كانوا في يثرب وحير وقيصم من سسل هارون الكاهن ، ولم يرجعوا إلى القرآن الكريم ليروا مكانة هارون الحقيقية في أيام موسى كليم الله ، وهل اعترف كتاب الله بهذه الكهانة التي افترها بعض أحرار اليهود ؟ لقد كان الإسلام هو الدين الذي يدعو إليه جميع الأنبياء ولم يجعل الله لطيفة دون طبقة من البشر حق ممارسة شعائر الدين باسمه ، فليس من الدين في شيء أن يكتسب أناس رزقهم باسم الدين ولو كان ذلك مما شرع الله لكان أولى الناس بالاكسباب من ممارسة الشعائر الدينية أو بكر الصديق خليفة رسول الله — ﷺ — واحتماء الراشدين من بعده ، ولكم أنوار أن يأخذوا من بيت مال المسلمين شيئا إلا كسوة للشتاء وكسوة للصيف وما يصنع منه أوساط المسلمين . ولم يكن ذلك لقاء قيامهم شعائر الدين بل لأهمهم انقطعوا عن العمل ليسوسوا أمور المسلمين وليحكموا بينهم بما أمر الله ويستمر سفر العدد يروى ألوان اقرايين حتى تقدم على مديح رب ،

أطافا من قصة وزن الواحد منها ١٣٠ شاقلا من قصة ، وصحونا من ذهب وزن الواحد منها عشرة شواقل من ذهب ، وثيران وأبقار وكباش لعل ذلك يعرى المؤمنين على تقديم مثلها بلهفة من بى هارون ، وكما هي عادة البشر جاء موسى عليه السلام بالرسالة وتاجر بالرسالة هو هارون أو الذين رعموا أنهم من نسل هارون .

« وكلم الرب موسى قائلا : اصنع لك بوقين من قصة مسحولين تعمدنهما فيكونان لك لمناذاة الجماعة ولا ترتحل المحلات ، وإذا صربوا بها يجتمع إليك كل الجماعة إلى باب خيمة الاجتماع ، وإذا صربوا بواحد يجتمع إليك رؤوس أنوف إسرائيل ، وإذا صربتهم هتافا ترتحل المحلات الباردة إلى الشرق وإذا صربتهم هتافا ثانية ترتحل المحلات الباردة إلى الجنوب . هتافا يصربون لرحلاتهم . وأما عندما تجمعون الجماعة فتصربون ولا تهتفون . وبو هارون الكهنة يصربون بالأبواق ، فتكون لكم مريضة أندية في أحيابكم . وإذا ذهبت إلى حرب في أرضكم على عدو يصركم تهتفون بالأبواق فتذكرون أمام الرب إلهكم وتخصون من أعدائكم ، وفي يوم فرحكم وفي عيدكم ووعوس شهركم تصربون بالأبواق على محرفاتكم ودينح سلامتكم فتكون لكم نكارة أمام إلهكم . أنا الرب إلهكم » .

ما من شيء رآه هو إسرائيل في مصر المزعوبة وفي بابل أو في أرض كنعان إلا وقد جعله ليدن كتبوا التوراة في اسمي وصية من الله إلى شعبه المختار . إن لصفح في البوق لجمع الحيوش أو لتحريكها كالأمرا معروفا في الأسرات المزعوبة التي سقت ورود يوسف الصديق إلى مصر ، ولكن الذين سموا ثقافة الشعوب الذين برزوا إلى ظهورها أبوا إلا أن يحضروا حتى الصفح في البوق مسحة بهية سبي إسرائيل ، وجعلوا مة — سبحانه وتعالى علوا كبيرا عما

يصنعون — يهتم بصعائر الأمور . إنه سبحانه وتعالى يأمر موسى عليه السلام ليصنع لنفسه بوقين من فضة — وماذا كان يحدث لو أن البوقين كانا من أى معدن آخر ؟ — لمادة الجماعة ولا رتخال المحلات . أكان هذا شيئا جديدا حتى يستحق أن يوصى به رب سى إسرائيل شعبه ؟ إن الذين كتبوا التوراة في المنفى عر عليهم أن يدعوا فضلا لأحد من كلاب البشرية ممن كانوا أكثر حضارة منهم ، فزعموا أن الله شرع لهم كل شيء حتى التافه من الأمور ليدخلوا في روع أنفسهم قبل أن يدحوا في روع الناس أن الله فصلهم على العالمين ، وقد كانوا في حاجة إلى ذلك الوهم فقد كانوا أسرى أدلاء يتطلعون إلى العودة إلى فلسطين .

حاء في القرآن الكريم : « يا سى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلكم على العالمين » (١) . وقد كان ذلك التفصيل يوم أن كانوا سامعين ومطيعين وفصلهم على العالمين بأن بعثهم من بعد موتهم لعلهم يشكروا ، أما وقد صال عليهم العهد وسوا ما شرع الله هم ثم أخذوا شرائع الشعوب وقالوا إن ذلك من عند الله ، فلا فضل ولا تفضيل . « هذا الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم فأرسلنا على الذين صمموا رحلا من السماء مما كانوا يحسقون » (٢) .

وحاء في القرآن الكريم في شأن المسلمين : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » (٣) . أما وأن المسلمين لا

(١) سقر ٤٧ (٢) البقرة ٥٩

(٣) آل عمران ١١٠

يأمرون بالمعروف ولا يهون عن المنكر ولا يؤمنون بالله أو يؤمنون وهم على ضلالتهم يخافون فلا فضل ولا تفصيل : « تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين » (١) .

وحمل الدين كتوا التوراة في المنفى الرب ينزل في عمود من سحب ويصعد في عمود من سحب ، فحدود الرب مكانا ، ومن قل جعلوه يمشي في الحة ، بل جعلوه في بعض الأحيان لا يسمع نواهم : « وكان الشعب كأنهم يشتكون شرا في أذن الرب » . بل إهم جعلوا يعقوب (إسرائيل) يصارع الرب كما صارع مردوخ الأرباب قل أن يصعب عليهم ربا للأرباب ، وكأنه كان الرب خطيا يخاطب كل شعب إسرائيل

وما أكثر ما حمى غضب الرب ونزل في سحابة ليوبح الدين حل عليهم عصبه : « وتكلمت مريم وهارون على موسى بسب المرأة الكوشية التي اتخذها ، لأنه كان قد اتخذ امرأة كوشية . فقالا : هل كنه الرب موسى وحده ؟ ألم يكلمنا نحن أيضا ؟ فسمع الرب ، وأما لرحل موسى فكنا جميعا جدا أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض

فقل الرب حالا موسى وهارون ومريم : اخرجوا أنت الثلاثة إلى خيمة الاجتماع . فخرجوا له الثلاثة . فصر الرب في عمود سحب ووقف في باب الخيمة ودعا هارون ومريم فخرجوا كلاهما . فصر اسمعا كلامي . إن كان معكم سي لرب فدرؤبا أستعل له في الختم كمنه . أما عدى موسى فليس هكذا بل هو أمين في كل بيني . فما إن هم وعبيد أنكم معه لا بالأغار . وشبه لرب يعين ، فمدا لا تحشيان أن تنكبا على عدى موسى

فحمى غضب الرب عليهما ومضى . فلما ارتفعت السحابة عن الخيمة إذا مريم برصاء كالثلج ... ٤ .

والقرآن الكريم لا يؤيد دعوى أن الله كان يكلم موسى كما يكلم الصديق وأنه كان يراه سبحانه وهو يكلمه . والقرآن يقول : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى إليه ما يشاء إله عني حكيم . وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا هدى به من شاء من عبادنا وإنت لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور » (١) .

وقد يحتج بآية : « وكلم الله موسى تكليما » (٢) . فإن ذلك الكلام من وراء حجاب والمديل على ذلك الآيات التي طلب فيها موسى أن يرى الله جهرة ١٠ « ولما جاء موسى بميثاقنا وكلمه ربه قل رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى جبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تحلى به للجن جعله دكا وحر موسى صعبا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأما أول المؤمنين . قال يا موسى إن اصطفىك على الناس برسالاتي وبكلامي فحد ما آتيتك وكن من الشاكرين » (٣) . فما دامت الرؤية قد تعدت فكيف كان يكلم الله فلما إن هو وكفى رأى الله عيانا ٩ إن الله كلم موسى تكليما من وراء حجاب . أما بزول الله في السحب وصعوده سبحانه وتعالى في السحاب فهو تصور قاصر لله ، ومنه في كل مكان . فإذا تصورنا أنه يصعد ويهبط فقد جعلنا

(١) نشورى ٥١ — ٥٣

(٢) الباء ١٦٤ (٣) الأعراف ١٤٣ — ١٤٤

له مكانا وما قدرنا الله حق قدره .

وقد سخر القرآن الكريم من فكرة محي الله في طلل من العمام : ه هل يبطرون إلا أن يأتيهم الله في طلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور (١) .

وعاد الدين كتبوا التوراة في المنفى يؤكدون وعد الله بأن يعطي بني إسرائيل أرض فلسطين وإن كان ما فعلوه مع الله حسب ما يقول كتاب التوراة الجديدة يستحق أن ينزل بهم أشد أنواع العذاب لأن يعطيهم أرضا لا حق لهم فيها . ولكنها أهواء أباء الذين حملهم يختصر إلى أرض العراق بعد أن حرق التوراة التي أنزلها الله على موسى بورا وهدى لبني إسرائيل . ثم كلم الرب موسى قائلا : أرسل رجالا ليتحسسوا أرض كنعان التي أنا معطيها لبني إسرائيل . رجلا واحدا لكل سبط من آباءه ترسلون . كل واحد رئيس فيهم . فأرسلهم موسى من بركة فاران حسب قول الرب . كلهم رجال هم رؤساء بني إسرائيل .

فأرسلهم موسى ليتحسسوا أرض كنعان وقال لهم . اصعدوا من هنا إلى الجنوب واطلعوا إلى الجبل واطروا الأرض ما هي ، والشعب الساكن فيها أقوى هو أم ضعيف ؟ قليل أم كثير ؟ وكيف هي الأرض التي هو ساكن فيها أجيدة أم رديئة . وما هي المدن التي هو ساكن فيها أعجميات أم حصون ؟ . وكيف هي الأرض أخصبة أم هريئة ؟ أمها شجر أم لا ؟ وتشدوا حملوا من ثمر الأرض وأما الأيام فكانت أيام العشب .

أليس عريبا أن يأمر الرب موسى أن يرسل رجلا ليتحسسوا أرض كنعان

ليعرفوا إذ كانت أرضا طيبة مثمرة أو كانت أرضا بورا ؟ إن إبراهيم وذريته كانوا في حبرون وكانوا في أرض فلسطين قبل أن يهبط يعقوب وذريته مصر في عهد يوسف الصديق ، فإن كان الله لا يعلم — وحاشا لله أن لا يعلم — طبيعة أرض فلسطين ، فإن الآباء لا بد أن يكونوا قد أخبروا الآباء بطبيعة الأرض التي مروا بها ، وإلا فم كان وعد الله ولماذا يتהל بهو إسرائيل بالفرح بذلك الوعد إن كانوا لا يعرفون إن كانت أرض المعاد جيدة أو رديئة ؟! إن هذه التوراة قد كتبت بعد موسى عليه السلام بحمسمائة سنة تقريبا بعد أن كون داود وسليمان ملك بني إسرائيل ودمر مختصر ذلك الملك وحمل اليهود أسرى إلى أرض السبي ، فراح أساء الدين كانوا أسرى في العراق يعيدون كتابة التوراة ، فخرجوا ما وقر في أذهانهم من ديانة موسى ومرحوها بأحلامهم وأساطير الشعوب .

وعاد الدين دهورا يتحسوا أرض كنعان إلى موسى وهارون وشيوخ بني إسرائيل وهم يرتعون هرقا من قوة حصومهم وأشاعوا روح الهرطقة في الشعب : « فرغت كل الجماعة صوتها وصرحت وبكى الشعب تلك الليلة ، وتدمر على موسى وهارون جميع بني إسرائيل وقال هما كل الجماعة : ليتنا متا في أرض مصر أو ليتنا متا في هذا القفر . وماذا أتى يا الرب إلى هذه الأرض لسقط بالسيف . تصير ساوذا وأصفالنا عبيمة . أليس حيرا لنا أن نرجع إلى مصر ؟ فقال بعضهم لبعض : نقيم رئيسا و نرجع إلى مصر

فسقط موسى وهارون على وجهيهما أمام كل معشر جماعة بني إسرائيل . ويشوع بن نون وكالب بن يفتة من الذين تحسوا الأرض همزقا ثباتهما . وكثما كل جماعة بني إسرائيل قائلين : الأرض التي مررنا فيها لتجسسها الأرض جيدة جدا جدا . إن سربا الرب يدحسنا إلى هذه الأرض ويعطيها لنا

أرضاً تفيض لسا وعسلا .. إنما لا تتمردوا على الرب ولا تخافوا من شعب الأرض لأنهم غزوا . قد زال عنهم طلبهم والرب معا . لا تخافوهم . ولكن قال كل الجماعة أن يُرحا بالحجارة (موسى وهارون) ثم طهر محمد الرب في حجة الاحتجاج لكل بني إسرائيل . وقال الرب لموسى : حتى متى يهين هذا الشعب ، وحتى متى لا يصدقوا بي بجميع الآيات التي عملت في وسطهم ؟ إني أصربهم بالوباء وأبيدهم وأصيرك شعبا أكبر وأعظم منهم . فقال موسى للرب : فيسمع المصريون الذين أصعدت بقوتكم هذا الشعب من وسطهم ، ويقولون لسكان هذه الأرض الذين قد سمعوا أنك يا رب في وسط هذا الشعب الذي أنت يا رب قد طهرت لهم عيالا لعين وسحابتك واقفة عليهم وأنت سائر أمامهم بعمود سحاب نهارا وعمود نار ليلا . فإن قتل هذا الشعب كرجل واحد يتكلم الشعوب الذين سمعوا بحرك قائلين : لأن الرب لم يقدر أن يدخل هذا الشعب إلى الأرض التي حلف لهم قديمهم في اقمر فالآن تعظم قدرة سيدي كما تكلمت قائلا : الرب طويل الروح كثير الإحسان يعبر الدب والسيئة ، ولكنه لا يرى بل يجعل دب الأباء على الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع . اصفح عن دب هذا الشعب كعظمة نعمت وكما عمرت لهذا الشعب من مصر إلى هنا . فقال الرب : قد صفحت حسب قولك ولكن حتى أنا قمتل كل الأرض من مجد الرب . إن جميع الرجال الذين رأوا محدي وآبتي التي عمتها في مصر وفي البرية وحرثوني الآن عشر مرات ولم يسمعوا لقولي لن يروا الأرض التي خلقت لأبائهم . وجميع الذين أهانوني لا يرونها .

إن كان هذا القول صحيحا ، أيسحق هذا الشعب وعد الله ؟ ! إهم يرتفعون عرفا من بعد عدوهم وما حدث الخرب أحد منهم إلا يوشع بن نون (فتح مكة)

وكالب بن يفتة . أما الآخرون فقد احتاروا عبودية المصريين على القتال في سبيل دحولهم الأرض المقدسة ، ولو صاوعهم موسى عبية السلام لعادوا إلى فرعون يزرعون أراضيهم صاعرين : « وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا حاسرين . قالوا يا موسى إن فيها قوما حمارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . قال رحلوا من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم عالمون وعلى الله فتوكلو إن كنتم مؤمنين . قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إياها قاعدون . قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بينا وبين القوم الفاسقين . قال فيها عزيمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأمن على القوم الفاسقين » (١) .

ثم يكلّم الرب موسى عن الدبائح والدور لعمل رائحة سرور للرب من البقر أو من العنم . « وما كان يهوذا في البرية وجدوا رجلا يختطف حظيا يوم السبت فقدمه الدين وجدوه يختطف حظيا إلى موسى وهارون وكل الجماعة ، فوضعوه في الخرس لأنه لم يعلم ماذا يفعل به . فقال الرب لموسى : قتلا يقتل الرجل يرحمه بحجارة كل الجماعة حجارة المحبة ، فأخرج كل الجماعة إلى خارج المحلة ورحموه بحجارة فمات كما أمر الرب موسى » .

وعمل سيد المسيح في السبت وسحر من شريعة السبت ، فليس من العدل أن يقتل إنسان لأنه اختطف يوم السبت أو قام بعمل في ذلك اليوم

وحاء في القرآن الكريم : « إنما جعل السبت على الذين احتلموا فيه وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون »^(١) . « وأسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيتهم حيتاتهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يستون لا تأتيتهم كذلك ببلوهم عما كانوا يفسقون »^(٢) .

« ورقعنا موقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً وقناهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ، فيما نقصهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غفط بل طمع الله عبيها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً »^(٣) .

وعلى الرغم من كل ما فعله موسى عليه السلام لبني إسرائيل فإيهم ناروا عليه وعلى هارون في البرية وقد غضب الله على الثائرين فأمرل عليهم عدايه ، فاشقت الأرض وبلغت الثائرين ولم يرص ذلك بني إسرائيل . « هدمر كل جماعة بني إسرائيل في العد على موسى وهارون قتلين . أننا قد قتلنا شعب الرب . ولما اجتمعت الجماعة على موسى وهارون مصر فإن خيمة الاجتماع وإذا هي قد عطتها السحابة وتراءى مجد الرب . فجاء موسى وهارون إلى قدام خيمة الاجتماع ، فكلم الرب موسى قائلاً : اطلعا من وسط هذه الجماعة فإنني أصيهم بنحظة ، فحرأ على وجهيهما ، ثم قال موسى لهارون : حد النخمرة واجعل فيها ناراً من على المذبح وصع بخوراً وادهب بها مسرعاً إلى الجماعة وكفر عنهم لأن السحط قد خرج من قبل الرب قد ابتدأ الوباء . فأخذ هارون كما قال موسى وركض إلى وسط الجماعة وإذا الوباء قد ابتدأ في الشعب ،

(١) السجدة ١٢٤

(٢) الأعراف ١٦٣

(٣) النساء ١٥٤ - ١٥٥

فوضع السحور وكفر عن الشعب ووقف بين الموتى والأحياء فامتنع الرباء . فكان الذين ماتوا بالرباء أربعة عشر ألفاً وسبع مائة عدد الذين ماتوا بسبب قدروح (الذى قاد الثورة على موسى وهارون وحسفت به وعن معه الأرض) ثم رجع هارون إلى موسى إلى باب خيمة الاجتماع والرباء قد امتنع . إن الذين كتبوا لتوراة في المنفى جعلوا الرب سريع الغضب سريع الحساب بهم في كل مرة بالبطش بسى إسرائيل . وجعلوا موسى هو الرحيم الذى يماجي الرب ليرفع مقتله وعصبيه عن شعبه ، وإن موسى عليه السلام يحج في كل مرة في أن يرضى الرب ويحلب رضاه على الشعب العاسق الذى صد عن سبيل الله كثيراً .

« سبحان رب السموات والأرض ورب العرش عما يصفون »^(١) .
« يسبح الله ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير »^(٢) . « إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، هو ائدى بصوركم في الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم »^(٣) .
« يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشعرون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون »^(٤) . « سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم »^(٥) . « هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارئ المصور له

(١) الزحرف ٨٢ — ٨٣

(٢) التعاين ١

(٣) آل عمران ٥ — ٦

(٤) الأنبياء ٢٨ (٥) الحشر ١

الأسماء المحسى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ^(١) .
 « إن الله بالناس لرعوف رحيم » ^(٢) . « وهو العفور الودود » ^(٣) . « وما
 الله يريد ظلما للعالين » ^(٤) . « إن الله ندو فضل على الناس ولكن أكثر الناس
 لا يشكرون » ^(٥) . « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ
 طسموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا
 رحيمًا » ^(٦) . « هو أهل التقوى وأهل المغفرة » ^(٧) . « واستغفروا الله إن الله
 عفور رحيم » ^(٨) . « ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله يحمد الله
 غفورا رحيمًا » ^(٩) .

إن فكرة دم إلهه وبطشه بعباده قد أخذت عس أساطير المصريين
 والبابليين ، فرع قد أمر حتحور بأن تترن إلى الأرض وأن تنكل بالدين كعروا
 برع ، فرلت حتحور وأعملت فى الكفرة القتل ولكن أعمان التقتيل التى
 قامت بها حتحور بين اساس كانت من المصاغة حيث دم الإله على ما أصدره
 من أمر ، واعتزم أن يقعد على الأقل حايا من الناس .

ونزول الآهة إلى الأرض تفصص بها الأساطير السامية ، وإن عشتار لم
 تكف بالزور إلى الأرض بل اصضجعت مع بستانى . فأساطير المراعنة
 وأساطير البابليين لعبت دورا كبيرا فى توراة المعنى فلم يستطع الذين كسوا
 التوراة بعد أن حال عليهم الأمد أن يتخلصوا من الثقافة البابلية والمراعونة .

- | | |
|-------------------|------------------|
| (١) امتحة ٢٢ — ٢٤ | (٢) اخج ٦٥ |
| (٣) البروح ١٤ | (٤) آل عمران ١٠٨ |
| (٥) نبقة ٢٤٣ | (٦) النساء ٦٤ |
| (٧) مدثره ٥٦ | (٨) المرمل ٢٠ |
| (٩) نساء ١١٠ | |

فامتزحت أساطير الشعوب بالتوراة التي نزلت على موسى نوراً وهدى لسي
إسرائيل . فرأى الله سبحانه وتعالى عما يصفون بزل في سحابة وهو شائر
عاضب ثم نشر النباء ليفنى المكدين ، ولولا وقوف هارون بين الأحياء
والأموات لقضى الرب على بني إسرائيل ، أكان انحسار النباء بإرادة الرب أم
كان بفعل البخور ؟!

ويعود الدين كتبوا التوراة في المضي يؤكدون أن الله أعطى القرايين هارون
وبيه فريضة دهرية ولم يذكر الفقراء والمساكين . وقال الرب هارون :
وهأنذا قد أعطيتك حراسة رفائعي مع جميع أقداس بني إسرائيل لك أعطيتها
حق المسحة ولسيك فريضة دهرية . هذا يكون لك من قدس الأقداس من
الار كل قرايهم مع كل بقدماهم وكل دبائح خطاياهم وكل دبائح آناهم
التي يردونها لي . قدس أقداس هي لك وليست

ستكون الدمايح كثيرة جدا ، أكثر من حاجة الكهنة من سسل هارون .
لذلك جعلوا الرب بقس استعاسة بعض هذه انقرايين بالفضة ... كل
فاتح رحم من كل حسد يقدمونه للرب من الناس ومن البهائم يكون بث غير
أنت تقبل فداء بكر الإنسان وبكرة البهيمة بحسنة تقبل فداءه . وفداؤه من
اس شهر تقبله حسب تقديمك فصة خمسة شواقل على شاقيل القدس .
ويس هباك عمل بقصد به وجه الله بل لكل عمل آخر في الدنيا ، فما
ذكرت الآخرة مرة واحدة في توراها المسمى . وأما سوا لاوى فإني قد أعطيتهم
كل عشر في إسرائيل ميراثا عوض خدمتهم التي يخدمونها خدمة حيمة
الاحتياج . والعشور كانت لسي لاوى لقاء خدمة بيت الله وما كانت تدفع
إلى بيت المال ليعق منها على مصالح بني إسرائيل ، بل صرح الرب بأن تكون
لقمة سائعة لبيت هارون .

ويرثع الذين كتبوا التوراة من الموت ويشرعون للعت شرائع قاسية ما أرسل الله بها من سلطان : « من مس ميتا ميتة إنسان ما يكون نجسا سبعة أيام ، يتطهر به في اليوم الثالث وفي اليوم السابع يكون طاهرا ، وإن لم يتطهر في اليوم الثالث ففي اليوم السابع لا يكون طاهرا . كل من مس ميتا ميتة إنسان قد مات ولم يتطهر بنحس مسكن الرب ، فتقطع تلك النفس من إسرائيل . لأن ماء الحاسة لم يرش عليها تكون نجسة ، نحاستها لم تزل بها .

هذه هي الشريعة . إدامات إنسان في حيمة فكل من دخل الخيمة وكل من كان في الخيمة يكون نجسا سبعة أيام . وكل إناء مفتوح ليس عليه سواد بعصابة دهره بنحس ، وكل من مس على وجه الصحراء قليلا بالسيف أو ميتا أو عظم إنسان أو قرا يكون نجسا سبعة أيام . فياحدون للنحس من عبار حريق دبيحة الخطيئة ويجعل عليه ماء حيا في إناء . ويأخذ رجل طاهر روبا ويعمسها في الماء ويصحه على الخيمة وعلى جميع الأمتعة وعلى الأنفس الذين كانوا هناك وعلى الذي مس العظم أو القتيل أو الميت أو القبر يصح الطاهر على النحس في اليوم الثالث واليوم السابع . ويصهره في اليوم السابع فيعسل ثيابه ويرحس بماء فيكون طاهرا في المساء . وأما الإنسان الذي ينحس ولا يتطهر فتباد تلك النفس من بين الجماعة لأنه نحس مقدس الرب . ماء الحاسة لم يرش عليه . إنه نحس . فتكون هم فريضة دهرية . والذي رش ماء الحاسة يعسل ثيابه والذي مس ماء الحاسة يكون نجسا إلى المساء ، وكل ما مسه النحس ينحس ونفس التي تمس تكون نجسة إلى المساء » .

ويستمر بنو إسرائيل في تدميرهم ويموت هارون بعد أن ماتت أخته مريم .
« وتكلم الشعب على الله وعلى موسى قائلين : لماذا أضعذتنا من مصر لنموت في البرية لأنه لا حر ولا ماء وقد كرهت أنفسنا الطعام السحيق ، فأرسل

الرب على الشعب الحيات المحرقة فلدغت الشعب فمات قوم كثيرون من إسرائيل . فأتى الشعب إلى موسى وقالوا : قد أخطأنا إذ تكلمنا على الرب وعليك فصل إلى الرب ليرفع عنا الحيات . فصلى موسى لأجل الشعب ، فقال الرب لموسى اصنع لك حية محرقة وضعها على راية ، فكل من لدغ ونظر إليها يمينا ، فصنع موسى حية من نحاس ووضعها على الراية فكان متى لدغت حية إنسانا ونظر إلى الحية النحاس يمينا .

وتسرد إصحاحات اعدد حروح بلعام لمباركة إسرائيل ، وسرعان ما يزيى الشعب المختار مع بنات مؤاب ثم لا يبتشون أن يعدوا آهة مؤاب فبعدوا بعلا وتركوا عبادة الله ، ويقول الدين كنوا التوراة في المسمى إن ذلك قد حدث وموسى كلم الله بهم ، فقال الرب لموسى : حذ جميع رعوس الشعب وعلقهم للرب مقابل الشمس فيترد هو غضب الرب عن إسرائيل . فقال موسى نقضه إسرائيل اقتنوا كل واحد قدم لمتعلقين بعقل فعور

وإذ رحل من بني إسرائيل جاء وقدم إلى إحوته المدبابة أمام عيسى موسى ، وأعين كل جماعة بني إسرائيل وهم باكون لدى باب حيمة الاجتماع ، فلما رأى ذلك فيحاس بن العازار هارون الكاهن ، قام من وسط الجماعة وأحد ربحا بيده ودخل وراء الرجل الإسرائيلي إلى القبة وضعن كليهما الرجل الإسرائيلي والمرأة في سطها ، فامتنع الوباء عن بني إسرائيل ، وكان الدين ماتوا بالوباء أربعة وعشرين ألفا .

فكلم الرب موسى قائلا : فيحاس بن العازار بن هارون الكاهن قد رد سخطي عن بني إسرائيل بكونه عار عيرتي وسخطهم حتى لم أفر بني إسرائيل بعيرتي ، لذلك قل : هاأنا أعطيته ميثاقى ، ميثاق السلام ، فيكون له ولسنه من بعده ميثاق كهوت أئدى ، لأحل أنه عار الله وكفر عن بني إسرائيل ، وكان اسم

الرحل الإسرائيلي المقتول الذي قتل مع المديانية رمري بن سالويس بيت أب من الشمعويين ، واسم المرأة المديانية المقتولة كرفى بنت صور ، هو رئيس قبائل بيت أب في مديان .

ألم يعط هارون من قل ميثاق كهوت أبدى له ولنسله ؟ أوليس فيحاس ابن إلغازار من نسل هارون ؟ فما الجديد ؟ لعل الذين كتبوا التوراة في المنفى خشوا أن يكون الناس قد سوا وعد الله الأول فأروا أن يجدوه .

ويعود الذين كتبوا التوراة في المنفى إلى القرايين والسور فهى لب القصيد ، ثم يتقل سو إسرائيل من حرب إلى حرب يقتلون كل الذكور ويسبون النساء والأطفال ويهون البهائم ويحرقون المدن . ويقول المديين كتبوا التوراة إن موسى عليه السلام قد عصب على وكلاء الجيش ورؤساء الألوف لأهم أبقوا على النساء : « وقال هم موسى : هل أبقيتم كل شئ حية ؟ إن هؤلاء كل لى إسرائيل حسب كلام بعدم سب حياة الحرب في أمر بقور ، فكان الوباء في جماعة الرب ، فآلآ اقتنوا كل ذكر من الأطفال ، وكل امرأة عرفت رجلا مصاحبة ذكر اقلوها . ولكن جميع الأطفال من النساء اللواتي لم يعرفن مصاحبة ذكر أبقوهن حكم حيآت . وأما أنتم فارلوا خارج اهنة سعة أيام . وتظهروا كل من قتل ممسا وكل من مس قتيلا في اليوم الثالث وفي السابع أنتم وسيكم . وكل ثوب وكل متاع من حلد وكل مصروع من شعر معر وكل متاع من حشبت تظهروه . »

وتكنم الإصحاح الحادى والثلاثون من سفر العدد عن الأعمال وتقسيم الأنعام ، وينتهى سفر العدد بأن يجعل الديين كتبوا التوراة الرب يحدد حدود لأرض التي وعدهم بها تحديدا كأنه مهتدس مساحه .

ويبدأ سفر التثنية بإعادة تحديد لأرض شئ يتصع رجها يهود في سعى

فيجمعون الرب يحددها لموسى تحديداً : « الرب إلهنا كلنا في حوريب قائلاً : كفناكم قعود في هذا الحبل . تحولوا وارتحبوا وادخلوا جبل الأموريين وكل ما يليه من العربة والحبل والسهل والحبوب وساحل البحر أرض الكنعاني ولسان إلى النهر الكبير سمر العرات . انظر قد جعلت أمامكم الأرض . ادخلوا وتملكوا الأرض التي أقسم الرب لآبائكم إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يعطيها لهم ولنسلهم من بعدهم . وكلمتكم في ذلك الوقت قائلاً : لا أقدر وحدي أن أحملكم الرب إلهكم قد كثرتهم . وهو دائماً اليوم كبحوم السماء في الكثرة . الرب إله آباءكم يريد عليكم مشكم ألف مرة ، ويبارككم كما كلمكم . كيف أحمل وحدي ثقتكم وحملكم وحصومتكم ؟ هاتوا من أسباطكم رجالاً حكماء وعقلاء ومعروفين فأجعلهم رؤوسكم . فأجتمعت وقتئذ حسن الأمر الذي تكلمت به أن يعمل . فأحدث رؤوس أسباطكم رجالاً حكماء ومعروفين وجمعتهم رؤوساً عليكم ، رؤساء ألوف ورؤساء مئات ورؤساء خمسين .

جمعوا الرب عاجزاً وحده عن أن يحمل أثقال بني إسرائيل وحصوماتهم ، إنه يسألهم أن يعيونه ، ويذهب الرب في هذا الإصحاح إلى التوصل إليهم أن يصعدوا لغارة أهل الأرض التي وعدهم بها ، ولكمهم يحجمون ويقولون : « الرب سبب بعضه لنا قد أعرجنا من أرض ليدفعنا إلى أيدي الأموريين لكي يهلكنا . إن أي بن صاعدون ؟ قد أذاب إخواننا قنوباً قائليين : شعب أعظم وطول منا ، مدد عطيمة محصنة إلى السماء . وأيضا قد رأينا بني عاق هالك ، فقلت لكم لا ترهبوا ولا تخافوا الرب إلهكم السائر أمامكم هو يخارب عكم ، حسب كل ما فعل معكم في مصر أمام أعينكم ، وفي البرية حيث رأيت كيف حملت الرب إلهك كما يحمل الإنسان ابنه في الطريق التي

سلكتموها حتى جئتم إلى هذا المكان ، ولكن هذا الأمر لستم واثقين بالرب إلهكم . السائر أمامكم في الطريق ليتمس لكم مكانا لنزولكم في نار ليلا ليحكم الطريق تسرون فيها وفي سحاب سهارا . وسمع الرب صوت كلامكم فمحط وأقسم قائلا : لن يرى إنسان من هؤلاء الناس من هذا الجيل الشرير الأرض الحيدة التي أقسمت أن أعطيها لأبائكم .. » .

كلام يليق بالذين كانوا في الأسر في بابل ، إيهـمـ مرعزو العقيدة ثقنهم بالرب محلحلة . أما أن يكون ذلك الكلام وحيا أنزل على موسى فأمر لا يمكن لعقل يعرف الله حق معرفته أن يصدق . وهل الشعب الذي يرى الله يسير بهم في الليل وفي النهار في حاجة إلى من يحضهم على إطاعة الله والامثال إلى أوامره ما دام الله فيهم ؟! إنها أقوال تسيء إلى الشعب الذي يدعى أن الله اصطفاه فمن يستطيع أن يصدق أن هذه الأقوال والأفعال قد صدرت من شعب يزعم أنه شعب الله مختار ؟! وإن كانت هذه الأقوال والأفعال قد صدرت حقا عن الدين فصلهم الله على العالمين فمادانتتظر من شعوب لم يكن لهم شرف الاصطفاء ؟

إن هذه المراعـم من وحى قلوب طمع غيبها الأمر وذهب بورها ، فحاعت وعودا متصاربة قد دخلت من ذكر ما أعد للمتقين في الدار الآخرة . وبأيتها سكنت عن اتهام الله حل وعز بالعر عن حل مشاعب بني إسرائيل وحصوماتهم إن الذين كتبوا التوراة في السفى لم يكتبوا بالإساءة إلى الرسل والأنبياء بل أساعوا إلى الرب فجعلوه غيورا مرة ، ونادما على ما فعل في حق بني إسرائيل مرة أخرى ، وعاجرا عن حمل بني إسرائيل وحصوماتهم مرة ثالثة ، وإن كان على النوم متعطشا إلى الدماء والأصحية والمطر .

إن تقديم التفسير للإله عادة مصرية قديمة مما يحلو قردان لأنه من الآلهة قداماء

المصريين من خبز وكعك وفطير ، وقد أخذ بنو إسرائيل الذين أعادوا كتابة التوراة في المعنى تلك العادة بل ومراسم تقديم القرابين وجعل الكهانة في هارون وبنيه من الالهوت المصرى القديم . فالكاهن المصرى القديم كان يتيه فحراً بأنه كاهن ابن كاهن ويذكر ذلك لإلهه ، كأن هذه الحقيقة تعيب عن الإله : « ... أنا كاهن وابن كاهن هذا المبدأ .. أنا كاهن قد حضرت لأعمل ما يجب على المرء عمله ، ولم أحضر لأعمل ما لا ينبغي عمله » .

وأخذ بنو إسرائيل عادة حرق اسخور للإله من قدماء المصريين ، فقد كانت العثات في عهد حتشبسوت تنطق إلى بلاد بونت للعودة بالبخور للمعابد المصرية القديمة ، وكان الكاهن يقوم بحرق البخور للإله ، وقد انتقلت هذه العادة إلى بنى هارون الكاهن فقد كانوا يحرقون البخور للإله يهوه ، ومن عجب أن اسم الإله يهوه لا يرال يستعمل في مصر العليا والسفلى : « يا ناس يا هوه » .

إن موسى أطلق اسم « يهوه » على إلهه في أرض سيناء . ولم يقل الذين كتبوا التوراة في المعنى من أين جاءت هذه التسمية ، أهى كلمة مصرية قديمة أحدها بنو إسرائيل من مصر قبل الخروج أم هى كلمة عبرية ؟!

ويقول الذين كتبوا التوراة إن موسى عليه السلام مر بأرض العيص (عيسو) ولم يعلن عليهم الحرب لأن الله قد أعطى جبل سعيير ميراثاً لبني العيص . وكذلك مر بأرض مؤاب دون حرب لأن الثرب قد أورث تلك الأرض لبني لوط . إسم بذلك يودون أن يقرروا مبدأ الميراث ليكون لهم حق في أرض فلسطين . والقرآن الكريم يهص ذلك المبدأ ، قائلاً يقول في كتابه العزيز : « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده »^(١) . ثم يخصص الميراث

والوارثين : « إن الأرض يرثها عبادى الصالحون »^(١) . والله يطمع على قلوب الذين يرثون الأرض إذا ما تنكوا سبل الرشاد وساروا فى طريق الفساد : « أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو شاء أصابهم بدنوسهم ونطع على قلوبهم فهم لا يسمعون »^(٢) . فميراث قوم لأرض ليس ميراثا أبديا : « كذلك وأورثناها قوما آخرين »^(٣) . ثم إن الأرض لله وسيرت الله الأرض ومن عليها : « إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإليها يرجعون »^(٤) . « والله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير »^(٥) .

ويقول الذين كتبوا التوراة إن الله قال لموسى : « أنت مار اليوم بتخم مؤاب بعر . فمتى قربت إلى تجاه سى عمون لا تعادهم ولا تهجم عليهم ، لأنى لا أعطيك من أرض سى عمون ميراثا ، لأنى لى لوط قد أعطيها ميراثا ... » . أكان بولوط من سبل بنتيه أم من روجات أحر ؟ إهم كانوا من سبل سبيه الذين أسكرناه واضطجعتا معه . فلماذا لم يعصب الرب من الفعلة المشعة ؟ وإذا كان قد سكت وأغمص عييه عن تلك الشاعة أيكفىء السبل الحس بأن يورثه أرض عمان ؟ إن دل ذلك القول على شيء فإما يدل على مدى الاميار الخلقى الذى كان فيه الذين كتبوا التوراة بأيديهم فى أرض المنى ، وقالوا هدا من عبد الله وما هو من عبد الله ، بل من عبد أناس كانوا عارقيين فى

(١) الأنبياء ١٠٥

(٢) الأعراف ١٠٠

(٣) الدخان ٢٨

(٤) مريم ٤٠

(٥) آل عمران ١٨٠

الدنس حتى الآذان !

ويحارب موسى عليه السلام وسو إسرائيل الملوك الذين يمرون بأرضهم في طريقهم إلى أرض فلسطين ، وقد انقضت أربعون سنة وهي المدة التي قضى ربهم أن يمضوها في التيه . فقام موسى عليه السلام يبتل إلى ربه وقد كان انتها لا يخدم قصبة اليهود الذين كانوا في المعنى : « وتصرعت إلى الرب في ذلك الوقت قائلاً : يا سيد الرب أنت قد ابتدأت تُرى عندك عظمتك وبذلك الشديدة ، فإنه أي إله في السماء وعلى الأرض يعمل كأعمالك وكجبروتك . دعني أعر وأرى الأرض الحيدة التي في عبر الأردن هذا الجبل الحيد ولسان . لكن الرب عصب على يسبيكم ولم يسمع لي . بل قال لي الرب كفك . لا تعد كلمتي أيضاً في هذا الأمر . اصعد إلى رأس البسحة وارفع عيبك إلى العرب والشمال والحبوب والشرق وانظر عيبك . لكن لا تعبر هذه الأرض . وأما يشوع فأوصه وشده وشجعه لأنه هو يعبر أمام هذا الشعب وهو يقسم لهم الأرض التي تراها . »

هل يمكن أن يصدق إنسان يعرف حقيقة الرسالة أن موسى عليه السلام يقوم بعد أربعين سنة في التيه وبعد ما كان من آيات الله في أرض مصر : أنت قد ابتدأت ترى عندك عظمتك . ابتدأ ؟! يا لصيغة آيات الله الليات في أرض المراجعة وفي التيه وفي سباء . أبعد أن يرعم الذين كتبوا التوراة أن الله كان يسير كشعلة من ميزان أمام بني إسرائيل يسير لهم صدمات الليل قبل أن يسير هم ظلمات القلوب ، وأنه كان ينزل في السحاب ليحدثهم في خيمة الاجتماع ، وبعد إبرال المي ولسلوى من السماء ، يقولون يا موسى عليه السلام قال للرب : أنت قد ابتدأت ترى عندك عظمتك ؟! وهل يُعقل أن موسى عليه السلام الذي جاء ليدعو قومه لعبادة الله وحده بعد أن راعوا عن التوحيد

وعبدوا العجل كما عبده المصريون يشرك بالله ويعترف بأن في السماء آلهة أخرى غير الله : « فإنه أى إله في السماء وعلى الأرض يعمل كأعمالك وجبروتك ؟ » .

إن الذين كتبوا التوراة في المسمى كانوا يروون تاريخاً قد انقضى فوضعوا على لسان موسى عليه السلام ما يخدم قضيتهم وجعلوه لا يهتم إلا بالأرض التي يطمعون فيها ، وكانوا قد تأثروا بمعتقدات بابل فجعلوا موسى يتהל إلى ربه كما يتהל عباد مردوخ إلى مردوخ ، فلم يسأل موسى ربه في التوراة التي وضعها أحرار اليهود إلا منافع أرضية ، ولر كيف يسأل موسى ربه في القرآن : « قال رب اشرح لي صدري . ويسر لي أمري . واحلل عقدة من لساني . يفقهوا قولي . واجعل لي وزيراً من أهلي . هارون أخي . اشدد به أزري . وأشركه في أمري . كى يسحك كثيراً . وبذكرك كثيراً إنك كنت بما بصيراً »^(١) . وبلغ أحماسنا إلى قول السحرة في القرآن امحيد : « فأنقى السحرة سحداً قالوا أما برح هارون وموسى . قال أمم له قل أن آذن لكم ؟ إنه لكبيركم الذي عنكم السحر فلأقطع أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلسكم في جذوع النخل ولتعلمن أياً أشد عذاباً وأبقى . قالوا لا نؤثرك على ما حاءنا من السيئات والذي فطرنا فاقص ما أنت قاص بما تقصى هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا برحما ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى إنه من يأت ربه محرمات فإن نه جهنم لا يموت فيها ولا يحيى . ومن يأتته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك هم الدرجات العلى . جنات عدن تجري من تحتها الأنهار حالدين فيها وذلك جزاء من تركنى »^(٢) .

آيات الله بينات مد كان موسى عليه السلام في مصر ، وإيمان الناس ليعفر
 رهم خطاياهم وليدخلهم حبات عدد تحرى من تحتها الأسفار خالدين فيها .
 ولم يكن الإيمان صفقة تجارية تعقد بين الرب وعباده أن يؤموا به لقاء إعطائهم
 الأرض وسعادة الدنيا . إيمان مقابل ثم يقضى في الدنيا . أما ما وعد الله المتقين
 فشيء غير ملموس لا يدخل في حساب الذين أعادوا كتابة التوراة في المنفى .
 مات موسى عليه السلام قبل أن يدخل فلسطين مع المداحلين ، وقد قاد
 يوشع فتى موسى جوش بن إسرائيل حتى عبروا نهر الأردن ، فجعل الدين
 كتبوا التوراة بأيديهم ذلك الذي حدث فعلا قبل إعادة كتابة التوراة أمرا
 إلهيا : « ونصب الرب على بسببكم وأقسم أنى لا أعر الأردن ولا أدخل
 الأرض الحيدة التي الرب إلهك يعطيك نصيبا . فأمرت أنا في هذه الأرض .
 لا أعر الأردن . وإنما أنتم فتعبرون وتمتلكون تلك الأرض الحيدة . احترروا
 من أن تمسوا عهد الرب إلهكم الذي قطعه معكم وتضعوا أنفسهم تمثالا
 منحوتا صورة كل ما هناك عه الرب إلهك ، لأن الرب إلهك هو بار آكله .
 إله غيور » .

ويسرد الدين كتبوا التوراة ما حدث لبني إسرائيل واليهود حتى حملوا إلى
 بابل أرض السبي على أنه وعد من الله ، ثم لا يتركوا اليهود في ظلام بل
 يدبرون لرفع الروح المعنوية لشعبهم فيجعلون الله لا يتحلى عن شعبه . ولأول
 مرة نجد أن الرب قد وصف بالرحمة لأن الأمر يتعلق باليهود . « إذا ولدتم
 أولادا وأولاد أولاد وأطلتم الرماح في الأرض وفسدتم وصعتم تمثالا مسحوتا
 صورة شيء ما وفعلتم الشر في عبي الرب إلهكم لإعاظته . أشهد عليكم اليوم
 السماء والأرض أنكم تبتدون سريعا عن الأرض التي أنتم عابرون الأردن إليها
 تملكوها . لانهيوا الأيام عليها بل تهلكوا لا محالة ويبددكم الرب في

الشعوب فتبقون عددا قليلا بين الأمم التي يسوقكم الرب إليها . وتضعون هالك آلهة صنعت أبدي الناس من حشب وحجر مما لا يصر ولا يسمع ولا يأكل ولا يشم ، ثم إن طلبت من هناك الرب إلهك تجده إذا اتهمته بكل قلبك وبكل نفسك . عندما ضيق عليك وأصابتك كل هذه الأمور في آخر الأيام ترجع إلى الرب إلهك وتسمع لقوله ، لأن الرب إلهك إله رحيم لا يتركك ولا يهلكك ولا يسيى عهد آبائك الذي أقسم لهم عليه .

أحداث وقعت قبل عصر التدوين ودعوة إلى العودة إلى الله لاستنهاض الهمم وتذكير بوعد الله للأباء . إنها عبارات لا يمكن أن تكون قد أوجبت إلى موسى عليه السلام إنما هي تصوير للحالة النفسية التي كان فيها عيرير وديال والدين شاركوا في إعادة كتابة التوراة بعد أن أحرق كل نسخها نوحضصر (يختصر) . إن اليهود في المنفى عيدوا مردوخ وشمس وعشتار وسحدوا للأصنام ، فأراد عزيز ودانيال وأخبار اليهود أن يثبثوا فيهم الخماس فدكروهم بإسرائيل ورب إسرائيل ، وأسرفوا في الوعود على لسان الرب لعل المحوة الدينية تفعل فيهم ما عجزت عنه الخطب والصنح والخير الذي به يوعدون . إنهم في كل إصحاح من إصحاحات الأسفار الخمسة لا يسون الوعد ، وما من مناسبة تمر دون أن يجعلوا الله يكرر ذلك الوعد وإن موسى عليه السلام يقول في رعمهم : « ودعا موسى جميع إسرائيل وقال لهم : اسمعى يا إسرائيل العرائض والأحكام التي أتكلّم بها في مسامعكم اليوم وتعلموها واحترروا لتعملوها . الرب إنها قطع معا عهدا في حوريب . ليس مع آبائنا قطع الرب هذا العهد . بل معا نحن الذين ها اليوم جميعا أحياء : وجهانوحه تكلم الرب معا في الحبل من وسط النار . أنا كنت واقفا بين الرب وبيكم في ذلك الوقت لكي أحرركم بكلام الرب . لأنكم حتمت من أحل النار ولم (صج مكة)

تصعدوا إلى الجبل . فقال : أنا هو الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية

فالوعد كان لإسرائيل وقد جددته الله لموسى وقومه فى سيناء . وإن الذين كتبوا التوراة بأيديهم لا يفتأون يذكرون ذلك الوعد بمناسبة وبدون مناسبة حتى يصحح حقيقة فى أذهان اليهود الذين كانوا يرغبون فرقا كلما تصوروا أنهم قد يضطرون للحرب للعودة إلى الأرض التى حبسهم منها بختنصر يوم حملهم إلى العراق أذلة صاغرين .

وتستمر إصحاحات سفر التثنية تتحدث عما أوصى به موسى شعبه عندما يدخلون الأرض التى حلف الرب للآباء إبراهيم وإسحاق ويعقوب بأن تكون لسلهم . وإن قارىء الإصحاحات السادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر ليشيق من كثرة ترديد الوعد . فالذين كتبوا التوراة بأيديهم بالعوا مبالغة تصيق بها الصدور من زعمهم فى كل إصحاح أن الرب لا هم له فى ملكه إلا ذلك الوعد الذى لا يبرره مطلق الأحداث ولا تصرفات سبى إسرائيل ، فإنهم أعرضوا عن وصايا الرب وعصوه فى سيناء وعصوه لما أمرهم بأن يقتلوا أعداءهم : « وحين أرسلكم الرب من قادش برنيع قائلا : اصعدوا امتلكوا الأرض التى أعطيتكم عصيتكم قول الرب إلهكم ولم تصدقوه ولم تسمعوا لقوله . قد كنتم تعصون الرب مد يوم عرفتكم » .

فإذا كان هو إسرائيل — فى رعم الذين كتبوا التوراة — يعصون الرب منذ عرفهم موسى فهل يستحقون ذلك الوعد الذى لا يكاد يحلو معه إصحاح ؟ إنها دعوة سياسية قبل أن تكون دعوة دينية ، وقد أفلحوا فى أن يستعملوا الذين لخدمة قصية الشعب الذى كان مشردا بين الشعوب .

وإن الذين كتبوا التوراة فى بابل جعلوا موسى عليه السلام يتحدث كما

يتحدث كهنة بابل ، فصلاته لله إنما ليطل أيامه في الأرض كما كانت صلاة البابليين ، وتسميحه وتسيح بى إسرائيل إنما ليطرد الرب الشعوب من أمامهم ليرثوا أرضهم ولا شيء بعد ذلك . إن موسى التوراة يقول : « فصعوا كلماتي هذه على قلوبكم ونعوسكم واربطوها علامة على أيديكم ولتكن عصائب بين عيوبكم . وعلموها أولادكم متكلمي بها حين تحسون في بيوتكم وحين تمشون في الطريق وحين تنامون وحين تقومون . واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك . لكي تذكر أيامك وأيام أولادك على الأرض التي أقسم الرب لآبائك أن يعطيهم إياها كأيام السماء ، ولأنه إذا جمعتهم جميع هذه الوصايا التي أنا أوصيكم بها لتعلموها ، لتحبوا الرب إلهكم وتسكنوا في جميع طرقه وتلتصقوا به ، يطرد الرب جميع هؤلاء الشعوب من أمامكم هنثرون شعبا أكبر وأعظم منكم ، كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم . من البرية ولسان من النهر سهر العرات إلى البحر العرقى يكون تحمكم . لا يقف إنسان في وجهكم الرب إلهكم يجعل حشيتكم ورعيتكم على كل الأرض التي تدوسونها كما كلمكم »

إياها الأرض ، كل منهم أن يطرد الرب الشعوب من أمامهم ليرثوها ، أما طاعة الرب ليرثوا حبات عرضها السماوات والأرض فما حظرت على قلب الذين أعادوا كتابة التوراة في المعنى ، بهم كانوا في حجب أرضى فكانت أحلامهم تنحصر في فردوس أرضى ، وفي إله يطرد هم الشعوب ويحمل عنهم قسوة الحرب ويقدم لهم الأرض هدية من إله يتهل بالفرح لأنهم يعدونه وهو عاجل لا يدري أن عبادته إن هي إلا رشوة ليمحهم كل مكان تدوس بطون أقدامهم .

ويذكر موسى عليه السلام وصاياه ولا يسي الذين كتبوا التوراة أن يجعلوه

يعيد ذكر الدبائح ، وفي الإصحاح الرابع عشر يضعون على لسانه أن الله جعلهم شعبا مختارا : « .. وقد احتارك الرب لكى تكون له شعبا خاصا فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض » .

وتعود الإصحاحات لتشرع بيع العبراني للعبراني وما يقدم من الأنعام والنعمة للرب . والمصح وكيف يصنع وعيد المظال وحدد الشرع مدته بسبعة أيام احتمالا بالحصاد . وقد أخذ هذا العيد عن أعياد السيروز فقد أعيدت كتابة التوراة أيام أن كانت العراق في حكم فارس في عهد الساسانيين . وحدد الشرع « ثلاث مرات في السنة يحضر جميع ذكورك أمام الرب إلهك في المكان الذى يختاره في عيد العطير وعيد الأسابيع وعيد المطار . ولا يحضروا أمام الرب فارغين . كل واحد حسبما تعطى يده كبركة الرب الذى أعطاك » .

أليست هذه وصية كهان يتطرون ما في أيدي الناس : « يأبها اناس أتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد »^(١) . « وربك العلى ذو الرحمة »^(٢) . « إن الله لعمى عن العالمين »^(٣) . « لله ما في السموات والأرض إن الله هو الغنى الحميد »^(٤) . ولا عجب أن قال اليهود في أيام محمد — ﷺ : « إن الله فقير وعين أعياء »^(٥) . ما دام كهان التوراة قد حذعوهم بتحذيرهم من الوقوف بين يدي الرب وأيديهم فارعة ، كأنما الرب في حاجة إلى لحوم الأضاحي والحنطة والفطير !

ويوصى الرب موسى عليه السلام — حسب أقوال الذين كتبوا التوراة بأيديهم — بأن يجعل ثلاث مدن في وسط الأرض التى وعده الله بها حراما

(١) طاهر ١٥ (٢) الأنعام ١٣٣

(٣) المكوت ٦ (٤) لقمان ٢٦

(٥) آل عمران ١٨١ .

بأن فيها من قتل آخر خطأ ، ويشرع له في الشهادة أن شاهدا واحدا لا يكفي لإثبات ذنب أو خطيئة فلا بد من شاهدين أو ثلاثة .

ويوصي رب إسرائيل موسى عليه السلام — حسب مزاعم الذين أعادوا كتابة التوراة في المعى — وصية تقشعر منها أبدان الذين يعرفون الله ، فإنه يوصيه إذا ما حارب شعبا وطلب ذلك الشعب الصلح فإن على بنى إسرائيل استعباد ذلك الشعب ، أما إذا أتى الشعب الصلح وكان النصر حليف اليهود فإن رب إسرائيل يأمر بضرب رقاب جميع الذكور واستحياء النساء والأطفال وأخذهم موالى وعبيدا . وإنه لحكم لا يمكن أن يصدر عن رب الناس إله الناس الرحمن الرحيم ، ولكنه حلم الدين ذاقوا مرارة دل الأسر . إنهم يشتهون أن يبعسوا عن أحقاد قلوبهم فوضعوا على لسان الرب أقوالا لا تصدر عن قائد جيش في قلبه ذرة من رحمة . فما بالك بإله رحيم وسعت رحمته كل شيء ، يرغم أنف كهان بنى إسرائيل الذين أنطقوه بكراهية أشنع من الصيد ؟

• حين تقرب من مدينة لكي تحاربا استدعها إلى الصلح ، فإن أحابتك إلى الصلح وضحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك . وإن لم تسلمك بل عمت معك حربا محاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بخد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة وكل غيبتها فتعصمها لنفسك وتأكل عيمة أعدائك أنتى أعطاك الرب إلهك . هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم ها . وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما .. • .

قول يقطر مرارة لا يمكن أن يكون وحى إله حكيم ، إن الله يقول في محكم كتابه : • وإن جمحوا للسلم فاجمع لها وتوكل على الله إنه هو السميع

العليم . . . وقاتلوا في سبيل الله الذين يقانونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . وقاتلوهم حيث تقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جراء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين . . . ويزعم الذين كتبوا التوراة بأيديهم أن الرب سبي موسى عن أشياء لا تقدم ولا تؤخر في حياة البشرية : « إذا اتفق قدامك عشب طائر في الطريق في شجرة ما أو على الأرض فيه مراخ أو بيص والأم حاضة المراح أو البيص فلا تأخذ الأم مع الأولاد . أطلق الأم وحذ لفسك الأولاد لكي يكون لك خير وتطيل الأيام » . لا تزرع حقلك صنفين .. . « لا تحث على ثور وحمار معا . لا تلبس ثوبا مخمطا صوها وكتانا معا » .

ثم يوصح رب إسرائيل — على حسب مراعم الذين كتبوا التوراة — ما يفعله شيوخ إسرائيل فيمن يدعى أن الفتاة التي دخل بها لم تكن بكرًا وفيما يفعلونه لو أثبت أبواها أنها كانت عذراء . « إذا وحده رجل فتاة عذراء غير محطوبة فأمسكها واصططحع معها فوجد ، يُعطى الرجل الذي اضططحع معها لأني الفتاة حمسين من الفضة وتكون له زوجة من أجل أنه قد أدلها . لا يقدر أن يطلقها كل أيامه » .

شرائع سبق أن تقررت في إصحاحات سابقة ، ومن عجب أن رب إسرائيل الذي خلقه خيال أحبار اليهود في المفى يحرم الربا ويحلله في بعض الوقت . إنه حرام أن يقرض إسرائيلي إسرائيليًا آخر بالربا . أما إقراض إسرائيلي لأجنبي فيبيح أن يكون بالربا . « ولا تقرض أحمك ربا : ربا قصة أو ربا طعام أو ربا شيء ما مما يقرض ربا . للأجنبي تفرص ربا ، ولكن لأحمك

لا تفرص بريالكي يباركك الرب إلهك في كل ما تمتد إليه يدك في الأرض التي أنت داخل إليها تملكها .

ويحرم رب إسرائيل أن تعود المرأة إلى زوجها الأول إذا طلقها زوجها الثاني أو مات عنها ، فذلك في شريعة الدين كتبوا التوراة رحس من عمل الشيطان يعضب الرب . ويعود ذلك الرب ليقرر مبدأ عادلاً وإن كان يتناقض مع ما سبق أن قرره أكثر من مرة ، فإنه يستقيم من الآباء في الأبناء حتى الجيل الثالث والرابع : لا يقتل الآباء عن الأولاد ، ولا يقتل الأولاد عن الآباء . كل إنسان بخطيته يقتل .

ويتذكر رب إسرائيل فحاة الغريب واليتيم والأرملة وإن كان لم ينس أبداً اللاويين والكهنة . متى فرغت من تعشير كل عشور محصولك في السنة الثالثة سنة العشور . وأعطيت اللاوي والغريب واليتيم والأرملة فأكلوا في أبوابك وشعوا ، تقول أمام الرب إلهك . قد برعت المقدس من بيت ، وأيضاً أعطيت لللاوي والغريب واليتيم والأرملة حسب كل وصيتك التي أوصيتني بها . لم أخاور وصاياك ولا سببها . لم أكل مني في حربي ولا أخذت مني في نخاسة ولا أعطيت منه لأحد ميت بل سمعت لصوت الرب ، نهى وعملت حسب كل ما أوصيتني . أطلع من مسكن قدسك من السماء وبارك شعبك إسرائيل والأرض التي أعطيتنا كما حلفت لأبائنا أرضاً تعطي لنا وعسلاً .

ويروي الإصحاح الثامن والعشرون من سفر تثنية ما يعم به هو إسرائيل من نعم أرضية إذا ما سمعوا وأطاعوا ، فإن الرب يرفعهم فوق جميع الأمم ويبارك في أولادهم وفي ررعهم ، ويسوقهم السحاب وتظللهم السماء ، أما إذا عصوا الرب ولم يسمعوا ويضعوا فإنه ينزل بهم سوء عذاب . وقد

جعل الدين كتبوا التوراة في المصى ما هم فيه كأنه نوعة ، قالوا على لسان الرب .
 « .. تحطبت امرأة ورجل آخر يصطحب معها . تبى بيتا ولا تسكن فيه .
 تعرس كرها ولا تستعله . يذبح ثورك أمام عينك ولا تأكل منه ، يغضب
 حمارك أمام وجهك ولا يرجع إليك . تدفع عملك إلى أعدائك وليس لك
 محص . يُسلم بنوك وبنايت لشعب آخر وعينك تطران إليهم طول النهار
 فتكلان وليس في يدك طائلة . ثمر أرضك وكل ثمرك يأكله شعب لا تعرفه .
 فلا تكون إلا مطنوما ومسحوقا كل الأيام . وتكون مجنونا من مطر عينيك
 الذى تنظر » . ويستمر الرب في ذكر ألوان العذاب ولا تفرق في كثير ولا
 قليل عما حاق ببنى إسرائيل في أرض السى .

وفي الإصحاح الخامس والعشرين كلام لا يمكن أن يكون وحى إله :
 « إذا سكى إحوة معامات واحد منهم وليس له اس فلا تصير امرأة الميت إلى
 حارح لرجل أجنسى . أحور زوجها يدخل عليها ويتحددها لنفسه روجة ويقوم
 لها بواجب أحي الروح . واليكبر الذى تده يقوم باسم أحيه الميت لئلا يمحي
 اسمه من إسرائيل .

وإن لم يرص الرجل أن يأخذ امرأة أحيه تصعد امرأة أحيه إلى الباب إلى
 الشيوخ وتقول : قد أنى أحور زوجى أن يقيم لأحيه اسما في إسرائيل ، لم يشأ
 أن يقوم لي بواجب أحي الروح . فيدعوه شيوخ مدينته ويتكلمون معه ، فإن
 أصر وقال : لا أرصى أن أتخذها . تتقدم امرأة أحيه إليه أمام أعين الشيوخ
 وتجمع بعله من رجله وتصبق في وجهه وتصرخ وتقول : « هكذا يفعل بالرجل
 الذى لا يبى بيت أحيه فيدعى اسمه في إسرائيل : بيتا مخلوع العل » ..

إن عادة رواح الأخ من روحة أحيه المتوفى عادة يابانية ، وقد يكون
 مردوح أو شماس أو أى آلهة الملبين قد شرعها ولكنه لم يقل أبدا بما قال به

كهان بنى إسرائيل وأنطقوا به إلههم . فهل يمكن أن تتصور أن إلهها يأمر بجمع نعل رجل لا يرغب في الروح من امرأة أخيه وأن يخرضها على أن تصق في وجهه ؟ إنه إله سوف لا يمكن أن يكون له مكان إلا في عقول مريضة أصنافها دل الأسر وتأثرت بأسوأ ما في أساطير الشعوب .

وتستمر الوصايا وهي جميعا وصايا مسقت في أسفار سابقة حتى يحين أجل موسى عليه السلام : « وقال الرب لموسى هو ذا أيامك قد قربت لكى تموت . ادع يشوع وقفا في حيمة الاجتماع . فتراءى الرب في الخيمة في عمود سحب ووقف عمود السحاب على باب الخيمة . وقال الرب لموسى : ها أنت ترقد مع آبائك فيقوم هذا الشعب ويفجر وراء آلهة الأجنبيين في الأرض التى هو داخل إليها فيما بينهم ويتركى ويكث عهدى الذى قطعت معه . فيشتعل غضبى عليه في ذلك اليوم وأتركه وأحجب وجهى عنه .. » .

موسى عليه السلام يرقد مع آبائه . هذا كل جرائه . لاجه عالية ولا نعيم مقيم . ورب يعلم أن بنى إسرائيل سيعدلون آلهة الشعوب وعلى الرغم من ذلك يباركهم ويحبههم في رعمهم شعبه المختار . وهو يخبر رسوله وهو على حافة القبر أن الشعب الذى أخرجه من مصر وأرهم المعجزات سرعان ما يرددون إلى الكفر ، ومع ذلك يستمر ذلك الإله بينهم ويوصى يشوع بن نون بأن يتشدد : « وأوصى يشوع بن نون وقال : « تشدد وتشجع لأنك أنت تدخل بنى إسرائيل الأرض التى أقسمت لهم عنها وأنا أكون معك » .

أنت معى أنه إله عريب يصر على أن يعطى الأرض لأناس لم يصدقوه يوما ، بل إنه يعرف أنهم سيرددون عن عادته إلى عادة آهة آخرين ، ومع ذلك يصمم على أن يسير معهم ليهره أعداءهم ويمحهم الأرض التى أقسمهم عنها جزاء كفرهم وعصيانهم ؟

استمع إلى موسى عليه السلام يقول لهم : « خذوا كتاب التوراة هذا
وصعوه بحاسب تابوت عهد الرب إلهكم ليكون هناك شاهدا عليكم . لأنى أنا
عارف غمركم ورقابكم الصلبة . هو ذا وأنا بعد حى معكم اليوم قد صرتم
تقاومون الرب فكم بالحرى بعد موتى ؟ » .

هذه هى الأسفار الخمسة التى يؤمن بها بنو إسرائيل جميعا ، السامريون
واليهود ، وقد عبث بها الذين أعادوا كتابة التوراة فى المضى وسماقش باقى
الأسفار التى لا يؤمن بها السامريون فى التنزيل التالى إن شاء الله .

القاهرة فى : ٢٦ / ٩ / ١٩٦٩

المراجع

- القرآن الكريم
 الكتاب المقدس
 صحيح البخارى
 السيرة النبوية
 إنسان العيون (السيرة الخلية)
 بلوغ الأرب
 نهاية الأرب
 إيران في عهد الساسانيين
 لكريستيس — ترجمة د . يحيى
 الخشاب
 نور الأبصار في مناقب آل بيت السى المختار
 لشيخ الشمعى
 إحياء علوم الدين
 للفرالى
 شفاء العوام بأخبار البلد الحرام
 تنقى مدين محمد بن أحمد العاسى
 حقوق الإنسان في الإسلام
 لعدكتور على عبد الواحد وائى
 محمد رسول الله
 مولای محمد على
 الرسول . حياة محمد
 ر . ف . بودى ترجمة . محمد محمد
 فرح وعد الحميد جوده السحار
 الإسلام والطام العالمى الحديد
 مولای محمد على
 ترجمة أحمد جوده السحار

لأبى الأعلى المودودى	الدين القيم
للمهندس زكريا هاشم زكريا	المستشرقون والإسلام
للدكتورة بنت الشاطئ	نساء النبى
لعباس محمود العقاد	عبقريّة محمد
للمسهيلى	الروض الآنف
	تاريخ الطبى
للدكتور زكريا إبراهيم	مشكلة الحرية
لعباس محمود العقاد	فاطمة الزهراء والفاطميون
للوحدى	أسباب النزول
لأبى أحمد	شرح نهج البلاغة
لشهرستانى	الملل والنحل

مؤلفات الأستاذ عبد الحميد جودة السحار

- أحسن بطل الاستقلال
- أبو ذر الغفارى
- بلال مؤذن الرسول
- فى الوظيفة
- سعد بن أبى وقاص
- همزات الشياطين
- أبناء أبى بكر الصديق
- فى قافلة الزمان
- أميرة قرطبة
- الثقاب الأزرق
- المسيح عيسى بن مريم
- أهل بيت النبى
- محمد رسول الله

تأليف : مولاي محمد على

- ترجمة بالاشتراك مع مصطفى فهمى
- قصص من الكتب المقدسة
- مائة السنين
- حياة الحسين
- الشارح الجديد
- وكان مساء
- أذرع وسيفان
- المستنقع
- ليلة عاصفة
- (مجموعة أقاصيص)
- (مجموعة أقاصيص)
- (مجموعة أقاصيص)
- (مجموعة أقاصيص)
- (مجموعة أقاصيص)
- (مجموعة أقاصيص)

— الحصاد	(رواية)
— جسر الشيطان	(قصة)
— النصف الآخر	(قصة)
— السهول البيض	(رواية)
— أم العروسة	(قصة)
— قلعة الأبطال	(قصة)
— وعد الله وإسرائيل	— عدو البشر
— عمر بن عبد العزيز	— أبطال الجزيرة الخضراء
— هذه حياتي	— القمر
— الحفيد	— الله أكبر
— ذكريات سينائية	— ثلاثة رجال في حياتها
— كشك الموسيقى	— مسجد الرسول
— خفقات قلب	— فات الميعاد
— صور وذكريات	— آدم إلى الأبد
— الإسراء والمعراج	— العرب في أوروبا
— القصة من خلال تجارلي الذاتية	— الدستور من القرآن العظيم

القصصُ الديني

(للأطفال)

في ١٨ جزءا
في ٢٤
في ٢٠
في ٢٤ جزءا

قصص الأنبياء
قصص السيرة
قصص الخلفاء الراشدين
العرب في أوروبا

السيرة النبوية في ٢٠ جزءاً

- ١ — إبراهيم أبو الأنبياء ١١ — الهجرة
- ٢ — هاجر المصرية أم العرب ١٢ — غزوة بدر
- ٣ — بنو إسماعيل ١٣ — غزوة أحد
- ٤ — العدنانيون ١٤ — غزوة الخندق
- ٥ — قريش ١٥ — صلح الحديبية
- ٦ — مولد الرسول ١٦ — فتح مكة
- ٧ — اليتيم ١٧ — غزوة تبوك
- ٨ — خديجة بنت خويلد ١٨ — عام الوفود
- ٩ — دعوة إبراهيم ١٩ — حجة الوداع
- ١٠ — عام الحزن ٢٠ — وفاة الرسول

ثمن الجزء الواحد عاды جتیهان

ثمن الجزء الواحد ممتاز ثلاثة جنيهاً ونصف

ثمن المجموعة المجلدة تجليداً فاعراً في ٢٠ مجلداً ٩٥ جنيهاً

رقم الإيداع ٧٨ / ٤٢٢٨
الترقيم الدولي ٨ - ٢٨١ - ٣١٦ - ٩٧٧